نوازل الضيافة

د. محمد بن إبراهيم الحمد

ⓒ دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد، محمد إبراهيم

نوازل الضيافة./ محمد إبراهيم الحمد- ط١-الرياض ١٤٣٩هـ

ص : ..: سم

ردمك: ٠ -١٢ -٨٢٥٣ -٦٠٣ -٩٧٨

١ -الكرم ٢ -الضيافة أ -العنوان

ديوي ٢١٢.٢ ١٤٣٩/٩٦٩٧

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٩٦٩٧

ردمك: ٠ -١٢ -٨٢٥٣ -٦٠٣ -٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤١٦١٣٩ - ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد فإن الضيافة عادة حميدة ، وشعبة إيمانية ، وخصلة محببة.

وللضيافة عند كافة الشعوب -قديماً وحديثاً- منزلة سامية ، ولهم فيها طرائق شتى ، وعادات تختلف باختلاف بيئاتهم.

ولشريعة الإسلام التي لم تغادر صغيرة ولا كبيرة مما فيه مصلحة الناس إلا وأحاطت بها إجمالاً أو تفصيلاً - عنايةٌ بشأن الضيافة ، وأحكامها ، وآدابها ، وما جرى مجرى ذلك.

وكتب التفسير، وشروح السنة ، والسير، والآداب حافلة في تفصيل ذلك.

هذا وإن شأن الضيافة كغيره من الشؤون من ناحية ما يطرأ عليه من التغير، أو اختلاف العادات ، وما يستجد للناس فيه من أحوال.

لذا كان للضيافة **نوازل** جديدة تستحق الوقوف عندها ، والعناية بشأنها.

والنوازل -في الأصل- تطلق على المصيبة الشديدة ، وعلى القضاء الذي لا محيص عنه ، كما قال الحكيم العربي :

هُمُ وسطٌ يرضى الأنام حكمهم ... إذا نزلتْ إحدى الليالي بمعظم

وقال الآخر :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تُفرج

ويرادف هذه الكلمة كلمات أخرى كبلايا ، وصروف ، وكوارث ، ومصائب ، ونوائب ، ونحوها.

ثم تطورت دلالتها، فصار لها -مع ذلك- مدلولٌ اصطلاحيٌّ خاصٌّ؛ فصارت كلمة النوازل تطلق على ما يستجد من القضايا التي لم يسبق للأوائل بحثُها.

وأكثر ما تُستَعمل في القضايا الفقهية، أو العدلية، فيقال: **نازلة** فقهية، **كنوازل** الحج، **ونوازل** الصيام، ونحوها.

ويقال: **نازلة** قضائية، وهي الأحكام المستجدة التي لم يسبق للأوائل فيها بحث؛ إذ يحدث للناس أقضيةٌ بقدر ما يحدثون[1].

واشتهر عند الفقهاء إطلاق **النازلة** على المسألة الواقعة الجديدة الشديدة الملحة التي تتطلب اجتهاداً.

وبعض المعاصرين يوسِّع مدلول **النازلة**؛ فلا يرى أنها لابد أن تكون فقهية، أو عدلية.

بل تشمل تلك المسائل، وغيرها كالمسائل المتعلقة بالعقائد، أو السياسات، أو المسائل التربوية، أو الاجتماعية الحادثة، وما جرى مجرى ذلك من الوقائع المستجدة الملحة.

لذا فإن الكلام في هذه الصفحات سيدور حول ما يتيسر مما استجد من أحوال الضيافة، وآدابها، وما يطرأ في شأنها مما يخص الضيف، أو المضيِّف، أو مايتعلق بهما؛ فهي -بهذا الاعتبار- داخلة في قبيل مسائل الفقه بمفهومه الخاص، أو بمفهوم الفقه العام كما هو معروف عند السلف.

ولن يكون الكلام ههنا متمحضاً عن أحكام الضيافة من الناحية الفقهية البحتة بقدر ما سيكون حول الممارسات العملية في الضيافة، وما يدور في فلكها.

ولقد يسَّر الله أن كتبت قبل سنوات حول هذا الشأن مقالاً عنوانه (خواطر في الضيافة) ثم استجد لي أمور في هذا الموضوع، فرأيت أنَّ من المناسب طرقَها،

---

(١) قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: «يحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور».

قال ابن عاشور رحمه الله معلقاً على هذه الكلمة: «يكفي أن يقال: يحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون دون أن يقال: من الفجور».

وإلقاءَ مزيد من الضوء عليها؛ إسهاماً في الرقي بهذه الخصلة الحميدة التي تُلقي بآثارها على الأفراد والمجتمعات.

أما منهجي في ذلك فهو كما يلي:

١ـ سيكون هذا البحث على هيئة مسائل مرقمة يطولُ بعضها، ويَقْصُر بعضها الآخر.

٢ـ ربط هذه المسائل بعنوانات مختصرة جامعة، يُذكر تحتها ما يذكر من الأدلة والأقوال، والشواهد، والآثار، والأشعار.

ويتخلل ذلك ما يستجد من الأحوال مما هو مناسب لعنوان المسألة.

٣ـ مراعاة كون بعض المسائل خاصاً بشأن الضيافة، وبعضها خاصاً بالمضيف، وبعضها خاصاً بالضيف، وبعضها مشتركاً.

٤ـ ربط مسائل الكتاب بأصولها الشرعية، ونظائرها العُرفية القديمة؛ خصوصاً ما كان معروفاً عند العرب الأوائل؛ إذ لهم في شأن الضيافة القِدح المُعَلَّى، والنصيب الأوفى.

٥ـ أن بعض المسائل قد يكون داخلاً في بعض؛ بحيث يجمل الكلام في بعضها، ثم يفصل في بعضها الآخر؛ رغبة في طرد الملل عن القارئ.

فهذا هو المنهج الذي سيسير عليه هذا الكتاب.

وقبل الدخول في تفاصيل مسائله وضعتُ مدخلاً؛ يتضمن الكلام فيه على منزلة الضيافة، وإكرام الضيف؛ فإلى بيان ذلك، والله المستعان، وعليه التكلان.

محمد بن إبراهيم الحمد

الزلفي ١٤٣٩/٥/٨هـ

جامعة القصيم ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ

قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

WWW.M-ALHAMAD.COM

M@M-ALHAMAD.COM

@M__ALHAMAD

مدخل: منزلة الضيافة، وإكرام الضيف

للضيافة، وإكرام الضيف منزلة عظيمة، ومحلٌّ أرفع عند سائر الأمم.

وتعظم هذه الخصلة عند أمة العرب قبل الإسلام، وتزداد عظمتها بعده.

فالضيافة عادة عربية، وخصلة عظيمة من خصال المروءة، ومحلٌّ لإجماع سائر الأمم على استحسانها في القديم والحديث.

فلا غرو -إذاً- أن كانت شعبةً من شعب الإيمان، ومكرمة من مكارم الأخلاق التي جاء الإسلام؛ ليتمم صالحها.

ولقد كانت الضيافة خلق الأنبياء ودأب الأسخياء، وأدب النبلاء.

ولهذا جاءت نصوص الشرع حاثة على تلك الخصلة الحميدة، مرغبة في الاتصاف بها، مبينة ما يترتب عليها من عظيم الجزاء.

وجاءت لغة العرب فخمة مملوءة بمفردات الضيف، والضيافة؛ فتلك الألفاظ قد حشدت معاني كثيرة، وتفرع عنها دلالات متنوعة، وارتبط بها عادات، وأعراف اجتماعية ذات قيمة معنوية، تُحترم، ويحافظ عليها، وتلتزم العرب بآدابها، وقوانين العلاقات الناشئة عنها[1].

والكلام في هذا المدخل ليس في تفصيل ذلك، وإنما هو إشارات إلى فضل تلك الشعبة.

ويكفي في فضلها وشرفها أنها ارتبطت بركنين من أركان الإيمان هما أوجبُ الواجبات، وأهم المهمات، ألا وهما الإيمان بالله -عز وجل- وباليوم الآخر.

---

(١) انظر الضيافة وآدابها في الشعر العربي القديم د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك ص٩-١١.

قال النبي ﷺ : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيُكْرِم ضيفَه**»[١].

وكان الأنبياء -عليهم السلام- أكرم الناس ضيفاً، وكان الخليل -عليه السلام- موصوفاً بالكرم، وكان يكنى أبا الضيف؛ لكثرة جوده وإكرامِه لأضيافِه.

ولما جاءه أضيافه من الملائكة على هيئة بشر أكرمهم، وقَدَّمَ لهم العجل السمين الحنيذ.

وكان لقصره أبواب بعدد الاتجاهات الأربعة يدخل الضيف من حيث أتى[٢].

وكان نبينا ﷺ أكرم الناس لجلسائه، فقد كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وكان يعطي كل واحد من جلسائه نصيبه، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه.

وكان العرب لا يعدلون بتلك الخصلة شيئاً، ويرونها أُسًّا من أسس السيادة، ومُقَوِّماً رئيساً من مقومات المروءة، ومفخرةً من أعظم المفاخر التي تنال بها المجادة.

ولهم في ذلك أخبارٌ، وعوائد، ورسوم يطول ذكرها، وسيأتي تفصيل لذلك في تضاعيف هذا الكتاب.

ومِنْ كُناهم بالأب قولهم: أبو ضيف، وأبو الأضياف: لِلْمِطْعام.

قال العجيرُ السلولي من شعراء الحماسة يرثي عمّه جالب بن يزيد:

تركنا أبا الأضياف في ليلة الصَّبا بِمِرٍّ ومِرْدَى كلِّ خصم يجادله[٣]

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٨) ومسلم (٤٧).

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/٣٥.

(٣) انظر عادات عربية للعلامة محمد المكي بن الحسين ص٥٥.

وقال عتبة بن بجير المازني :

فقــام أبــو ضــيفٍ كــريمٌ كأنــه وقَـدْ جَـدَّ مـن فَـرْطِ الفُكاهـة مـازح

ويعني بأبي ضيفٍ نَفْسَه[١].

وقال جابر بن حيان من شعراء الحماسة :

ومـا وجـد الأضياف فيمـا ينـوبهم لهـم عنـد عِـلاّت الزمـان أبـاً مثلـي

قال التبريزي في شرح ديوان الحماسة : «عِلاّت الزمان : مكارهه ، وشدائده.

وجعل نفسه أبا الأضياف؛ لأنه يحنو عليهم حنو الأب.

وهذا على عادتهم في تسمية المضيِّف : أبا المثوى.

قال أبو العيال الهذلي :

أبــــو الأيتـــــام والأضـــــيا ف ســـــاعةَ لا يُعـــــدُّ أبُ[٢]

وقال كثير عزة في أحد ممدوحيه مبيناً أنه مضياف ، كثير الروَّاد :

وأنـت أبـو ضـيفين : ضـيفٍ نفحتـه بنفحـة عُـرفٍ عاجـل فهـو زائـل

وآخـر يرجـو منـك مـا نـال قبلـه أخـوه الـذي جَهَّزتَـه فهـو نـازل[٣]

ويجعله أباً للأضياف عطوفاً عليهم ، فيقول :

وأنــت أبــو الأضــياف يغشــون نــاره ومُلْقِـي رحـال العيس وهـو لغـوب[٤]

ويسمون من يغشاه الناس كثيراً ، وتنزل به الأضياف : المُرَهَّق ، قال زهير بن أبي سلمى يمدح الهرم بن سنان :

---

(١) انظر شرح الحماسة للتبريزي ٥٨/٤.

(٢) انظر شرح الحماسة للتبريزي ١١٧/٤ ، وعادات عربية ص١٢٥.

(٣) ديوان كثير عزة ص٢٩٥.

(٤) ديوان كثير عزة ص١٦٦.

ومُرَهَّـق الـنيران يحمـد في الّـ ... لأواء غـير مُلَعَّـن القِـدْر[1]

وقال ابن هرمة:

خـير الرجـال المُرهَّقـون كمـا ... خـير تـلاع الـبلاد أوطؤهـا[2]

وكانوا يُجِلُّون الأجواد الكرام الذين يُعنون بشأن الأضياف، ويتروَّون أخبارهم[3].

ومن ذلك قولهم: أجواد الجاهلية الذين انتهى إليهم الجود ثلاثة نفر: حاتم الطائي، وهرم بن سنان المزني، وكعب بن مامة الإيادي[4].

ومن ذلك قولهم إن أجواد أهل الحجاز في القرن الأول ثلاثة: عبدالله ابن جعفر، وعبيد الله بن العباس، وسعيد بن العاص[5].

ويذكرون أن عبيد الله بن العباس يسمى مُعَلِّمَ الجود؛ لفرط جوده، وأنه هو أول من وضع الموائد على الطرق، وأن نفقته كلَّ يوم خمسمائة دينار، وإذا خرج من دُوْرِه طعامٌ إلى رِحَابه ومساجده لا يُرَدُّ إليها منه شيء.

ويذكرون أنه أول من فطَّر جيرانه على طعامه، وجمعهم عليه في رمضان، وهو أحد أجواد الصحابة -رضي الله عنهم-[6].

(١) ديوان زهير بن أبي سُلمى ص٢٨.

(٢) الأمالي لأبي علي القالي ١٤٨/١.

(٣) انظر شرح الحماسة ٢٧/٤، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ص١٤٤.

(٤) انظر تفصيل ذلك في ثمرات الأوراق ص١٤٤-١٤٥، والمستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي ص١٨٠-١٨١.

(٥) انظر غرر الخصائص للبرهاني ص٢٤، والأوائل للبسنوي ص١٣٧.

(٦) انظر ثمرات الأوراق ص١٤٦.

ويذكرون عن سعيد بن العاص ﷺ أنه كان يجمع إخوانه كل جمعة، فيصنع لهم طعاماً، ويخلع عليهم، ويرسل إليهم بالجوائز[١].

ويذكرون أن لعبد الله بن جعفر أخباراً في الجود يكاد سامعها ينكرها؛ لبعدها عن المعهود، وأخباره، وأحواله في الجود، والسخاء والحلم مشهورة لا تحصى[٢].

وهو الذي أُنْشِد عنده قول الشاعر:

إن الصنيعة لا تكون صنيعةً حتى يصابَ بها كريمُ المصنع

فقال -أي عبدالله بن جعفر-: هذا رجل يريد أن يبخِّل الناس، أمطر المعروف مطراً، فإن صادف موضعاً فهو الذي قصدت، وإلا كنت أحق به[٣].

ويشبه هذا ما ينسب لأبي الحسين بن السراج:

بُثَّ الصنائعَ لا تَحْفَل بموقعها فيمن نأى أو دنا ما دمت مقتدرا

فالغيث ليس يبالي حيثما انسكبت منه الغمائمُ تُرباً كان أو حجرا

ولقد بلغ في العرب من شأن الضيافة، وقِراها مبلغاً لا يكاد يُصدَّق، حتى أصبح حق الضيف واجباً لا يلغيه، أو يقلل منه **حال من الأحوال.**

حتى حال الحرب - وهي أقسى ما يقع بينهم - لا تمنع أحد المتحاربين من تقديم القرى، ودعوة المحاربِ الآخرِ إذا نزل عليه، ولا تمنع النازلَ أن يجيب دعوة خصمه[٤].

---

(١) انظر حكم وأخلاق عربية لمحمد المكي بن الحسين ص٩٦-٩٧.

(٢) انظر ثمرات الأوراق ص١٤٨-١٤٩.

(٣) انظر حكم وأخلاق عربية ص٩٨.

(٤) انظر الضيافة وآدابها ص٢٢.

ومما ذكر من ذلك من أخبارهم في الجاهلية أن أبا كرب تُبَّع غَزَا الأوس والخزرجَ في يثرب عندما أَنِفُوا طاعته، وعصوا أمره؛ فكانوا يحاربونه في النهار؛ فإذا جن الليل، وتوقفت الحرب أخرج الأوس والخزرج طعام الضيافة لجيشه، وقدموا لهم القِرى الذي يرونه واجباً عليهم حتى في مثل تلك الحال من الحرب والقتال[١].

وكان سكان الجزيرة ينقسمون إلى أهل مدر، وأهل وبر.

ولأهل المدرِ الحصونُ الحصينةُ، والقلاعُ والأبوابُ المُرْتَجَةُ التي تمنع الطارق من الدخول إليها، وطلبِ الطعام من أهلها في الليل؛ ففطنوا لذلك، وأثر عن بعض سكان الحصون والقرى أن فيهم من كانوا لا يُغْلِقُون أبوابَ بيوتهم في الليل؛ خشية أن يَطْرُقَهُم ضيفٌ وهم نيام؛ فلا يجد أحداً يُقْرِيْه، وقد ينام خارج البيت طاوياً[٢].

وجاء في أمثالهم ما يدل على إمعانهم في كرم الضيافة وتَخَلُّلِ تلك الصفة منهم مسلك الروح.

والأمثال تُنْبِي عن طبيعة الشعوب، وثقافاتهم.

ومن أمثالهم في ذلك: أقرى من زاد الراكب، وأقرى من حاسي الذهب، وأقرى من مطاعيم الريح، وأقرى من آكل الخبز، وأقرى من أرماق المقوين[٣].

---

(١) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ٣/٣٢٤.

(٢) انظر الضيافة وآدابها ص٢٢.

(٣) انظر مجمع الأمثال للميداني ٢/١٢٧.

أما أهل الوبر أو البادية المتنقلون في فجاج الصحراء، وأنحاء الجزيرة فكان شأنهم عجباً في إقراء الضيف، والاحتشاد له، والاهتمام بأمره، مع ما يعتريهم من عوز، وفاقة.

ولكنهم لم يعدموا سبيلاً يُقْتفى بها آثار النازحين؛ فكانت النار إحدى أمارات الهداية لمن غاب منهم، أو ضل عنهم؛ فهي توقد للاصطلاء، والطبخ، وهداية التائهين.

ثم كانت وسيلة لم يلبث العرب أن جعلوا إيقادها تعبيراً عن كرمهم، ورغبتهم في صنع الجميل؛ فصنفوا النيران، وأضافوها إلى ما تجلب، وما تعبر عنه في حياتهم، وما توقد من أجله.

ومن تلك النيران: نار القرى، وهي نار يوقدها الجواد في الليل خاصة في ليالي الشتاء، وغيرها؛ ليستدل بها الأضياف؛ فهي أعظم وسائل جلب الأضياف، ودعوتهم[1].

هذا وسيأتي الكلام عليها فيما بعد مفصلاً، وإنما المقصود ههنا بيان منزلة الضيافة عند أهل الوبر من العرب.

وهذه الأخبار، وأمثالها ليست خاصة بالعرب الأوائل، وإنما هي موجودة إلى يومنا هذا.

والأخبار المعاصرة في ذلك الشأن لا تكاد تحصى.

وقد ذكرت شيئاً من ذلك في كتاب (مروءات معاصرة).

---

(١) انظر الضيافة ص٢٣-٢٤.

ومما يحضرني في ذلك الشأن: رجل من كبار السن في بلدنا، وقد عاش مائة وثلاثة أعوام، وتوفي عام ١٤٢١هـ.

ولم يكن من أهل الغنى واليسار، ولكنه كان مضيافاً يجد أنسه، وسروره، بل وزيادة نشاطه وصحته إذا قَدِم إليه ضيف.

وله في ذلك أخبار يطول ذكرها، ولم يكن فرحه بالضيف خاصًّا بأحد دون أحد، بل بكل ضيف.

ومن أخباره في ذلك أنه إذا صلى معه في المسجد القريب من منزله عمال النظافة، أو غيرهم من العمال خرج قبلهم، وأخذ أحذيتهم، وقال: من يريدها فليأتِ إلى بيتي؛ فيأتون إليه، فيكرمهم، ويسعدهم، ويطعمهم، ويعطيهم ما تيسر من المال، ثم يودعهم.

وبالجملة فإن منزلة الضيافة، وإكرام الضيف، وأخبار الأجواد في ذلك لا تحصى، وسيأتي مزيد بيان لذلك في فقرات قادمة.

وبعد هذا المدخل الذي دار حول منزلة الضيافة، وإكرام الضيف ـ ينتقل الكلام إلى تفصيل الكلام على نوازل الضيافة، وذلك من خلال المسائل التالية: حيث تتضمن كل مسألة شأناً من شؤون الضيافة، وإكرام الضيف، ويتخللها ما يستجد في أمرها، بعد ربطها ـقدر المستطاعـ بأصلها.

الأولى: مفهوم إكرام الضيف

تختلف نظرة الناس في مفهوم إكرام الضيف، وكثير منهم **يَقْصُرُه على إطعامه فحسب**؛ فإذا قام بذلك في أي صورة كانت ظَنَّ أن قد وفَّى ذلك المقام حقه.

ومن هنا لا تراه يبالي بما عدا ذلك من معاني الإكرام.

ولا ريب أن إطعام الطعام من أعظم حقوق الضيف، ومن أجلى صور إكرامه، بل لا تكتمل الضيافة، أو قد لا تعد في بعض الأحوال إلا بذلك.

ولكنَّ قَصْرَ الإكرامِ على ذلك خلل، وخطل؛ إذ مفهوم الضيافة أشمل، ومعاني الإكرام أوسعُ وأعمُّ.

والنبي -عليه الصلاة والسلام- حين حث على القيام بحق الضيف، وقرن ذلك بالإيمان بالله، واليوم الآخر لم يقل: «فليطعم ضيفه» وإنما قال: «**فليكرم ضيفه**»[(١)].

فعبَّر بهذا اللفظ الشريف، ألا وهو الإكرام.

ومادة هذا اللفظ - وهي **(كرم)** - من ألطف ما يكون، ويدخل تحتها جملة من المعاني الشريفة، اللطيفة.

وقد أشار ابن تيمية رحمه الله إلى شيء من ذلك عند تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ العلق[(٢)].

وهذا الموضع هو أجمع ما تكلم فيه عن معنى هذه المادة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٣٨).

(٢) انظر مجموع الفتاوى ١٦/٢٩٣-٢٩٨.

قال ﷺ مبيناً معنى الكرم: «ولفظ الكرم: لفظ جامع للمحاسن والمحامد؛ لا يراد به مجرد الإعطاء، بل الإعطاء من تمام معناه؛ فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسنِ، والكرم: كثرةُ الخيرِ، ويسرتُه»[١].

وهذا معنى دقيق لطيف مناسب لمقتضى الإكرام؛ إذ هو مشتمل على خير كثير متنوع حاصل بيسر ولطف.

ثم أورد قول النبي ﷺ: «لا تسموا العِنَبَ الكَرْمَ؛ فإنما الكرم قلب المؤمن»[٢].

ثم بين سبب تسمية العنب بالكرم، فقال: «وهم سَمّوا العنبَ الكَرْمَ؛ لأنه أنفع الفواكه؛ يؤكل رَطْباً ويابساً، ويعصر؛ فيتخذ منه أنواع»[٣].

ثم علل لنهي النبي ﷺ عن تسميته بالكرم فقال: «ومع هذا نهى النبي ﷺ عن تسميته بالكرم، وقال: **(الكرم قلب المؤمن)** فإنه ليس في الدنيا أكثر، ولا أعظم خيراً من قلب المؤمن»[٤].

ثم أشار إلى معانٍ أخرى لطيفة للكرم، فبين أن الشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم، وأن القرآن دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه، وفيهم من يهينه.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/٢٩٣.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٨٢) بلفظ: **(لا تسموا العنب الكرم)**، وبلفظ آخر (٦١٨٣): **(ويقولون الكرم؛ إنما الكرم قلب المؤمن)**.

وأخرجه مسلم (٢٢٤٧) بلفظ: **(لا تسموا العنب الكرم؛ فإن الكرم الرجل المسلم)**، وبلفظ: **(لا تقولوا كرم؛ فإن الكرم قلب المؤمن)**.

(٣) مجموع الفتاوى ١٦/٢٩٤.

(٤) المرجع السابق ١٦/٢٩٤.

واستدل على ذلك بقوله ـتعالىـ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ الحجرات: ١٣، وقوله: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ الحج: ١٨.

وأوضح أن كرائم الأموال: هي التي تَكْرُمُ على أصحابها؛ لحاجتهم إليها، وانتفاعهم بها من الأنعام وغيرها[١].

ثم أشار إلى سر لطيف من أسرار وصف الله ـعز وجلـ لنفسه بأنه: الأكرم، فقال: «وهو ـسبحانهـ وصف نفسه بأنه الأكرم بصيغة التفضيل[٢] والتعريف[٣] لها؛ فدل على أنه الأكرم وحده.

بخلاف ما لو قال: (وربك أكرم) فإنه لا يدل على الحصر، وقوله: **(الأكرم)** يدل على الحصر.

ولم يقل: (الأكرم من كذا) بل أطلق الاسم؛ ليبين أنه الأكرم مطلقاً غير مُقَيَّدٍ؛ فدل على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه، ولا نقص فيه»[٤].

ثم أورد قول ابن عطية في تفسير هذه الآية ـ وفيه إشارة إلى معنى من معاني إكرام الله لنبيه ﷺ ـ.

قال: «قال ابن عطية: (ثم قال له ـتعالىـ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ على جهة التأنيس؛ كأنه يقول: امضِ لِما أُمِرْتَ به، وربك ليس كهذه الأرباب.

---

(١) انظر المرجع السابق ١٦/٢٩٤ـ٢٩٥.

(٢) أي كون كلمة (الأكرم) جاءت على وزن: أَفْعَل التفضيل.

(٣) يعني كون كلمة (الأكرم) معرفة بـ: أل.

(٤) مجموع الفتاوى ١٦/٢٩٥. =

بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص؛ فهو **ينصرك، ويُظْهِرُك**)[١]»[٢].

وبناءً على ذلك فإن **إكرام الضيف شامل لأمور كثيرة**؛ إذ يدخل فيها: إعزازه، وإسعاده، ورفع شأنه، وتيسير أمره، ورفع الحرج، والكلفة عنه.

ويكون ذلك بحسن استقباله، وملاحظته، وإيناسه، والإقبال عليه، والقيام بشأنه، والحذر من الحط من قدره.

ويدخل في ذلك تقديم الإنسان أحسن ما لديه من الطعام للضيف بما يلائم الحال والمقام.

وهذا الشمول في معاني الإكرام مما يَعْزُب عن بال من لا يأبهون بالضيف، أو من يَقْصرون مفهوم الإكرام على إطعام الطعام فحسب، ولو صَاحَبَ ذلك ما صاحبه مما ينافي الإكرام.

وتفصيل ذلك الشمول مبثوث فيما سيأتي من صفحات هذا الكتاب.

---

(١) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي ت٥٤٦هـ، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ٥٠٢/٥

(٢) مجموع الفتاوى ١٦/ ٢٩٥-٢٩٦.

الثانية: متابعة الضيف، والاهتداء إلى مكان الضيافة

والمقصود بذلك متابعته في إنجاز موعد الزيارة، وتحديد وقتها، ومتابعته إذا حدد الموعد، وهمَّ بالقدوم للزيارة خصوصاً إذا كان في بلد، ومكان الضيافة في بلد آخر، أو كان لا يعلم مكان الضيافة كأن يكون بعيداً، أو في بَرِّيَّة لا يهتدي إلى سبيلها بيسر وسهولة.

وهذا الأمر لم يكن معروفاً عند الأوائل؛ إذ قد يَطْرُقهم الضيف بغتةً، أو قد يحتاج إلى خرِّيت يهديه السبيل إلى مكان المُضَيِّف إذا كان على موعد سابق؛ فلا يصل إليه إلا بكل كلفة خصوصاً إذا كان بعيداً، أو في بلد غير بلده.

بل ربما تاه الضيف، وربما هلك وهو في طريقه إلى مضيِّفه.

لذا كان الكرام يسكنون في العوالي، ويوقدون النيران؛ لتكون مساكنهم أشهر، وأظهر؛ ليهتدي إليهم الأضياف، وكانوا يسمون تلك النار: نار الضيافة.

والقادم إلى مكان الضيافة التي أُوقدت فيها النار يسمى **العاشي**، يقال: عشى إلى النار يعشو إليها عَشْواً، وعُشُوًّا.

والعاشي: الذي يطلب القوم ليلاً، فيرى نارًا؛ فيعشو إليها يستضيء بها يرجو خيراً وهدىً، وذلك يكون وقت العشاء، أول الليل.

ثم صار يطلق على الذي يقصد ليلاً، ثم صار كل قاصدٍ عاشياً، وكل قاصدٍ نارَ الضيافة عاشياً[1].

قال امرؤ القيس:

---

(١) انظر لسان العرب ١٠/١٦٣.

لـنِعْمَ الفتـى تعشـو إلى ضـوء نـاره طريف بن مالٍ ليلة الجوعِ والخَصْرِ[١]

وقال الحطيئة في بيته الشارد السائر:

متـى تأتِـه تعشـو إلى ضـوء نـاره تجد خيرَ نارٍ عندها خير موقد[٢]

قال ابن السكيت: «تعشو: أي تجيء على غير بصر ثابت؛ فيهتدى بناره؛ يقال: عشا يعشو: إذا استدل ببصر ضعيف، وقد عشيَ يعشَى إذا صار أعشى»[٣].

وقال الأعشى:

لعمـري لقـد لاحـت عيـون كـثيرةً إلى ضـوء نـار في يفـاع تُحـرَّق[٤]

أراد هنا: نار القرى والضيافة.

ويعني باليفاع: المكان المرتفع، والأرض المرتفعة، وإنما يُوْقِدُ الكريمُ النارَ على التلال والجبال؛ لِيُعْرَف مكانه، وليراها الناس؛ فيقصدوا إلى ضيافته.

---

(١) ديوان امرؤ القيس ص١١٠.

(٢) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت تحقيق نعمان محمد أمين طه ص٨١.

(٣) ديوان الحطيئة ص٨١.

(٤) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس شرح وتعليق د. محمد محمد حسين ص٢٢٣، وهي من قصيدته المشهورة في المحلَّق التي يقول طالعها:

أرِقـت ومـا هـذا السـهادُ المـؤرق ومـا بـيَ مِـن سُـقْمٍ ومـا بـيَ مَعْشَـقُ

ولهذه القصيدة قصة مشهورة، خلاصتها: أن المحلَّق كان فقيراً، ذا بنات، واتفق أن قَدِم الأعشى -وكان يوافي سوق عكاظ في كل عام- فأشرف إليه المحلَّق، فضيَّفه، وبالغ في إكرامه؛ رجاء أن يصيبه خيرٌ من مدحه؛ فلما أصبح الأعشى وافى عكاظاً؛ فأنشد هذه القصيدة.

قالوا: فتسارع الناس إليه يَخطِبون بناته؛ فلم تُمْسِ منهم واحدة إلا وهي في عصمة رجل ثريٍّ شريف. انظر الأغاني ٩/١١٣-١١٧.

والمعنى: لعمري إن أشخاصَ الناسِ لتبدو وهي تقصد إلى نار قد أوقدت فوق التلال[١].

وقال آخر:

لــه نــار تُشَــبُّ علــى يفــاعٍ إذا الـنيران أُلْبِسـت القناعــا[٢]

وقال آخر في وصف نار الضيافة:

فهـي تعلـو كالرايـة الخضـراء تفـري الـدجى إلى كـل سـار

أرادوا بذلك: نار الضيافة التي توقد في الأماكن المرتفعة.

وكانوا يتمدحون بنار القِرى، التي تسمى نار الضيافة، قال المرار الفقعسي:

وآليت لا أُخْبِيْ إذا الليل جنَّني سـنا النـار عـن سـارٍ ولا مُتَنَـوِّرِ
فيا مُوْقِدَيْ ناري ارفعاها لعلّها تضـيء لسـارٍ آخـر الليـل مُقْتِرِ
ومـاذا علينـا أن يواجـه نارنـا كـريمُ المحيـا شـاحبُ المتحسـر[٣]
إذا قـال مـن أنـتم ليَعـرِف أهلـها رَفَعْـتُ لـه بـاسمي ولم أَتَنَكَّـرِ[٤]

وقال عمرو بن عبدالله العجلي:

إذا أُخْمِـد الـنيران مـن حَـذَر القِـرى رأيت سنا ناري يَشِـبُّ اضطرامُها[٥]

وقال حاتم الطائي:

---

(١) انظر ديوان الأعشى الكبير ص٢٢٣-٢٤٤.

(٢) انظر محاضرات الأدباء للأصبهاني، ص٢٨٦، وقد نسبه للعرندس.

(٣) المتحسر: ما يبدو منه كالوجه، واليد، والرجل.

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/١٧٢٢.

(٥) معجم الشعراء للمرزباني ص٢٢٣.

إذا ما البخيل الخَبُّ أخمد ناره ... أقول لمن يُصلى بناريَ أوقدوا

توسَّعْ قليلاً أو يكن ثَمَّ حَسْبنا ... وموقدُها البادي أعفُّ وأَحْمَدُ[١]

وقال الأفوه الأودي:

ثم فينا للقرى نارٌ يرى ... عندها للضيف رُحْبٌ وسعةْ[٢]

وقال مزرد بن ضرار واصفاً حال ضيفه وناره:

فأبصر ناري وهي شقراءَ أُوقِدت ... بعلياءَ نَشْرٍ للعيون النواظر[٣]

وكان كليب وائل لا توقد مع ناره للضيفان نار فيما يقرب من منازله، وأوطانه، قال أخوه مهلهل يرثيه[٤]:

نُبِّئْت أن النارَ بعدَك أُوْقِدَتْ ... واسْتَبَّ بعدك يا كليبُ المجلسُ

وتكلموا في كل أمر عظيمة ... لو كنتَ شاهدَهم بها لم ينبسوا

وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً ... وذراعَ باكيةٍ عليها بُرْنُسُ[٥]

تبكي عليك ولستَ لائمَ حرةٍ ... تأسى عليك بعبرةٍ وتَنَفُّسُ[٦]

وبالجملة فكلامهم عن نار القرى، ووصفها، وتمدحهم بها طويل كثير[٧].

والحاصل أن تلك هي من أهم وسائل الأوائل لجلب الأضياف، ودلالتهم على مكان الضيافة.

---

(١) ديوان حاتم الطائي ص٢٦٣.

(٢) ديوان الأفوه الأودي ص٢٠.

(٣) البخلاء ص٢٤٣.

(٤) انظر شرح ديوان الحماسة ٩٢٨/٢، وحكم وأخلاق عربية ص٣٢-٣٨، والضيافة وآدابها ص٢٥.

(٥) البُرنس: كل ثوب رأسه منه مُلْزَقٌ به.

(٦) انظر جمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري القيرواني ص٧٩، وحكم وأخلاق عربية ص٣٢-٣٨.

(٧) انظر تفصيل ذلك في الضيافة وآدابها ص٣١-٣٨.

أما في عصرنا الحاضر فقد تيسرت السبل، فيمكن معرفة مكان الضيافة دون أدنى كلفة، وذلك عبر طرق آمنة مسلوكة، أو عبر رسالة هاتفية تحدد موقع المكان.

ثم ما يكون بعد ذلك من متابعة الضيف متى ما سار من مكانه؛ ليتم الاستعداد لاستقباله؛ فيتابع عبر الهاتف طيلة مسافة الرحلة؛ ليحصل له الإيناس في الطريق، ولِيُشعر بالاهتمام به، والإجلال له، إلى أن يصل إلى مكان الضيافة.

ويكون ذلك من قِبل المضيِّف، أو من يُوكِل إليه تلك المهمة.

وسواء كانت المتابعة مع الضيف نفسه، أو مع بعض من يرافقه؛ فذلك كله من مكملات الضيافة، ومن تمام إكرام الضيف.

ويراعى في ذلك: الذوقُ بحيث لا تَصِلَ المتابعةُ إلى حد الإملال، والإثقال، والإيقاع في الحرج.

ويراعى في ذلك -أيضاً- أنْ إذا أَوكل المضيِّف مهمةَ المتابعة إلى غيره أن يكون المُوكَلُ ذا ذوق، ولطف، وأدب؛ إذ هو النائب عن المضيِّف، وهو قائم مقامه؛ فلا يليق به أن يكون جافياً، أو جاهلاً بقدر الضيف، خصوصاً وأن وصف المكان عبر الهاتف، وإعادته مرة أو أكثر يورث شيئاً من الضيق والملالة.

ويراعى -كذلك- ملاحظة الهاتف من ناحية تمامه، واكتمال ما يلزمه من الشحن، وتحقق استقباله ونحو ذلك؛ إذ قد يتصل الضيف يريد السؤال عن الطريق؛ فيجد الهاتف مغلقاً؛ فيقع في الحرج.

وبعض من لم يعرفوا حقوق الضيافة لا يأبهون بمثل تلك الدقائق، وربما لا يخطر لهم ببال؛ فترى الضيف يأتي بكل شوق، وفرح؛ وقد يكون آتياً من

مكان بعيد، أو من بلد ليس بلده، وقد يكون مدعوًّا منذ فترة طويلة، وقد يكون هو الضيفَ الكبيرَ؛ فإذا كان في الطريق إلى مكان المضيف لم يجد من يتصل به عبر الهاتف، أو يخبره في المكان؛ فإذا وصل إلى بلد المضيف لم يجد من يستقبله، أو يرشده إلى أين يذهب؛ فتراه يسأل من لقي عن منزل فلان؛ فإذا وصل إليه لم يجد من يستقبله، فيطرق الباب، وربما لم يجد من يجيبه في الحال.

وما هكذا يكون الإكرام، ولا بمثل هذا يستقبل الأضياف.

الثالثة: انتظار الضيف القادم، والاستعداد لاستقباله

فذلك من لوازمِ الضيافة، وتمامِ الإكرام؛ لذا كان من الأهمية بمكان أن يُسْتَعد لاستقبال الضيف، وذلك بمعرفة وقت وصوله، وانتظاره في مكان ملائم لاستقباله بكل ما ينبغي أن يستقبل به، فإن حسن الاستقبال هو أولى ما يُبْتدر به الضيف؛ فإن كان لائقاً، رائقاً، رائعاً امتد أثره إلى ما بعده من وقت الضيافة، ودل على ألمعية المضيف، وكرمه، وبراعة استهلاله.

وإن كان الاستقبال بارداً، باهتاً، فاتراً ـ انْجَرَّ إلى ما بعده، وربما كان ذلك سبباً لانقباض الضيف، ودليلاً على نقص الإكرام.

وسواء كانت تلك هي الزيارة الأولى للضيف، أو كانت مسبوقة بزيارات قبلها؛ فإن كانت الأولى بقي ذلك الأثر في الضيف.

وإن كانت مسبوقة بزيارة أو زيارات قَبْلَها كان لذلك أبلغ في الأثر عنده بحسب حسن الاستقبال من عدمه؛ ذلك أنه إذا كان الاستقبال على الوجه المطلوب علم الضيف أن قيمته عند صاحبه لم تنزل عن مَدْرَجَتِها، وأدرك أن مُضيِّفَه باقٍ على الودِّ لا يلوي، ولا يتغير.

وإن كان الاستقبال بخلاف ذلك فإنه ربما شعر بثقله عليهم، أو أن مكانته قد تزحزحت عندهم، خصوصاً إذا كان الضيف من ذوي الإحساسات المرهفة على حد قول الأول:

إني كثرت عليه في زيارته ... فَمَلَّ والشيء مملول إذا كثرا

ورابني منه أني لا أزال أرى ... في طرفه قِصَراً عني إذا نظرا

ثم إن انتظار الضيف، والاستعداد لاستقباله يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ فقد يحسن أن يُستقبل مباشرة منذ أول وهلة عند وصوله كأن يستقبل في المطار، أو في محطة القطار، أو في الميناء إذا كان آتياً عبر البحر.

وقد يحسن أن لا يستقبل مباشرة خصوصاً إذا كان سيقيم أكثر من يوم.

وإنما يتوجه فور وصوله إلى مكان إقامته؛ حتى يرتاح من وعثاء السفر، ولأجل أن يأخذ أهبته؛ لملاقاة الناس؛ فربما كان ذلك أسعد له، وأحب إليه.

وكلُّ ذلك راجع لحكمة المضيِّف، وحسن تدبيره، وتقديره، ووضعه الأشياء مواضعها.

الرابعة: الفرح بالضيف، وإظهار ذلك

فمن تمام الإكرام، ومما يدل على تأصل خصلة الكرم في الإنسان ـ فرحه بأضيافه، وإظهار ذلك لهم؛ فَيُشْعَر الضيف بأن مضيِّفه فرح به، مغتبط بمقدمه.

بل يجمل أن يمتد ذلك الفرح إلى أهل المضيِّف، وأصدقائه ممن سيدعون إلى الضيافة خصوصاً إذا كان الضيف كبيراً، أو قادماً من بلد آخر؛ فمن حق الضيف الذي أوجبه الأجواد على أنفسهم، وألزموها به ـ بشاشةُ اللقاء، وإشراق الوجه، وإظهار السرور والحفاوة بالطارق عند رؤيته الأولى، وكسر حاجز دهشة اللقاء بالترحيب؛ حتى يأنس، وتهدأ نفسه بقربهم؛ فيشعر بالراحة والأمان[١].

وهذا هو شأن كرام الناس، وساداتهم؛ حيث يقضون ذلك الحق، فيكرمون من يقصدهم حق التكرمة، «والعرب تجعل الحديث، والبسط، والتأنيس، والتلقي بالبِشر ـ من حقوق القِرى، ومن تمام الإكرام.

وقالوا: من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكلة»[٢].

قال ابن عباس ـرضي الله عنهماـ: «إن لكل قادم وحشةً؛ فآنِسوه بالتحية»[٣].

وقال حاتم الطائي:

سلي الجائعَ الغرثان يا أمَّ منذرٍ إذا ما أتاني بين ناري ومجزري

---

(١) انظر الضيافة وآدابها ص٥٧ـ٥٨.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/١٠.

(٣) البيان والتبيين ٢/٩١.

هَـلَ ابْسـط وجهـي إنـه أَوَّلُ القِـرى وأبـذل معـروفي لـه دون منكـري[١]

وقال مسكين الدارمي:

لحـافي لحـافُ الضـيف والبيـتُ بيتُـه ولم يُلْهِـني عنـه غـزالٌ مُقَنَّـعُ[٢]

أحدِّثُـه إن الحـديثَ مـن القِـرى وتعلـم نفسـي أنـه سـوف يهجـع[٣]

وقال الآخر:

وإنـي لطلـقُ الوجـهِ للمبتغـي القِـرى وإن فنـائي للقِـرى لرحيـبُ

أضـاحك ضـيفي قبـل إنـزالِ رحلـه فيخصـب عنـدي والمكـان جـديبُ

وما الخصبُ للأضيافِ أن يكثر القِرى ولكنمـا وجـهُ الكـريمِ خصـيبُ[٤]

وقال غيره:

وضـيفَكَ قابِلْـهُ بِبِشْـرِك وَلْـيَكُنْ لـه منـك أبكـارُ الكـلامِ وعُونُـه[٥]

وقيل للأوزاعي رحمه الله: «ما إكرام الضيف؟ قال: طلاقة الوجه، وطيب الكلام»[٦].

---

(١) ديوان حاتم الطائي، صنفه يحيى بن مدرك الطائي، رواية هشام بن محمد الكلبي، دراسة وتحقيق د. عادل سليمان جمال، ص٣٠٢، وانظر البيان والتبيين ١/١٠.

(٢) غزال مقنع: يعني به الزوجة.

(٣) البيان والتبيين ١/١٠، ويروى البيت: طعامي طعام الضيف الرحل رحلـه...، قال ابن عبدالبر: «وهو أحسن شيء في الضيافة» انظر بهجة المجالس ١/٢٩٦.

(٤) روضة العقلاء ص١٦١ـ ١٦٢.

(٥) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/١٧٠.

(٦) روضة العقلاء ص١٦١.

وقال ابن عباس -رضي الله عنهما: «أعزُّ الناسِ عليَّ جليسي، الذي يتخطى الناس إليَّ، أما والله إن الذباب يقع عليه فيشق عليَّ!»[١].

«وعن ابن عباس أنه سئل: من أكرم الناس عليك؟ قال: جليسي حتى يفارقني»[٢].

«وقال معاوية ﷺ لعَرابةَ الأوسيِّ: بِمَ استحققت أن يقول فيك الشماخ:

رأيت عَرَابَة الأوسيَّ يسمو ... إلى الخيرات مُنْقَطِعَ القرينِ

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاها عَرابةُ باليمين

فقال عرابةُ: هذا من غيري أولى بك يا أمير المؤمنين، فقال: عزمت عليك لتخبرني، فقال: بإكرامي جليسي، ومحاماتي على صديقي، فقال: إذاً استحققت»[٣].

وقال الأحنف: «لو جلست إلى مائة لأحببت أن ألتمس رضى كل واحدٍ منهم»[٤].

وكان القعقاع بن شَوْر إذا جالسه رجل، فعرفه بالقصد إليه - جعل له نصيباً من ماله، وأعانه على عدوه، وشفع له في حاجته، وغدا إليه بعد المجالسة شاكراً، حتى شهر بذلك، وفيه يقول القائل:

وكنت جليسَ قعقاعِ بنِ شَوْرٍ ... ولا يشقى بقعقاع جليسُ

---

(١) عيون الأخبار ٣٠٧/١، وأدب المجالس ص٣٣، وبهجة المجالس ٤٥/١.

(٢) بهجة المجالس ٤٦/١، وأدب المجالس ص٣٣.

(٣) بهجة المجالس ٤٦/١، وانظر جمع الجواهر ص٥١.

(٤) بهجة المجالس ٤٥/١.

ضحوك السن إن أمَرُوا بخير وعند السوء مطراقٌ عبوس[١]

وبالجملة فإن الفرح بالضيف، وإظهار البشاشة له من المفاخر التي لا نزاع فيها عند العرب، ولا خلاف.

وكما أنهم يفاخرون بذلك فهم يمدحون من هو متصف بتلك الخلال.

قال مطرود بن كعب الخزاعي:

يبكين عَمْرَو العُلا إذ حان مصرعه سمحَ السجيةِ بسامَ العَشِيَّاتِ

فقوله: (بسام العشيات): يعني أنه يضحك للأضياف، ويبسم عند لقائهم[٢].

وقال مهيار الديلمي:

من القوم بسامون والجو عابسٌ وراضون واليوم الأصم غضوب[٣]

وقال آخر في ممدوح له:

فتىً إذا نبَّهتَه لم يغضبِ أبيضُ بسامٌ وإن لم يَعْجبِ

مُوكَّلُ النفس بحفظ الغُيَّبِ أقصى رفيقيه له كالأجنب[٤]

وقال أحد شعراء الحماسة في مدح كريم مضياف مبيناً أنه يتذكره كلما طرقهم ضيف، واصفاً إياه بالفرح، والتهلل عند إقبال أضيافه:

وأضيافه إن نبهونا ذكرته فكيف إذاً أنساه غابرة الدهر

---

(١) انظر الكامل للمبرد ١٠٣/١، وعيون الأخبار ٣٠٦/١.

(٢) انظر عادات عربية ص٢٤.

(٣) ديوان مهيار الديلمي.

(٤) هكذا في الأصل، ولعل الأولى: كالأقرب. انظر عيون الأخبار ٢٣/٣.

إذا سـلَّم الساري تهلل وجهُـهُ على كل حال من يسار ومن عسر[(١)]

بل لقد بلغ في بعض العرب من استقبال الضيف، والفرح به، والرغبة في مكثه مبلغاً قد يبعث على الغرابة؛ فقد روي عن أبي البحتري وهب بن وهب القرشي أنه إذا نزل به ضيف أسرع عبيده إلى إنزاله، وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل.

فإذا هَمَّ بالرحيل تَخلَّوا عنه، ولم يَقْرَبْه أحدٌ منهم، وتجنَّبوه.

فإذا أنكر عليهم ذلك، قالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة، ولا نعينه على الرحيل![(٢)].

وعدّوا من تمام القرى ألا يقابل الضيف بعبوس، ولا تجهم، قال الأخطل:

وإني لحلالٌ بي الحق أتقي إذا نزل الأضياف أن أتجهما[(٣)]

وكما أن هذا الأدب السامي، والخلق الرفيع ألا وهو الفرح بالضيف، وإظهار ذلك هو حق من حقوق الضيف ـ فهو كذلك مما يرفع من قدر المضيِّف، ويزيد من إقبال القلوب إليه، ويدل على سجاحة خلقه، وكمال مروءته.

بخلاف ما يكون من بعض الناس في بعض المناسبات؛ حيث تشعر من خلالها أن الضيافة همٌّ ثقيل يود المضيِّف لو يزيحه عن عاتقه بأسرع وقت.

وهذا مما يفقد بعض الضيافات طعمها، وحرارتها، ويضفي عليها جواً من الخمود، والهمود، والبرود.

---

(١) شرح ديوان الحماسة ٢/٧٠٥.

(٢) انظر المستطرف للأبشيهي ص٣٥٨.

(٣) ديوان الأخطل ص٦٠.

وهو ـكذلكـ مما يجعل النفوس لا تنبعث إلى كثير من المناسبات؛ فلا تأتيها إلا على سبيل أداء الواجب الشرعي، أو الاجتماعي.

بخلاف بعض المناسبات المفعمة بالبشر والفرح؛ حيث ترى الإقبال عليها كبيراً، بل ربما يأتي بعض من يأتي إليها دون دعوة لها.

وقد يحصل من بعض الناس جفوة على بعض الأضياف، وقلة تلطُّفٍ له وإقبالٍ عليه.

وقد يكون ذلك بسبب ثقل الضيف، أو ضيق عطن صاحب المكان، كما قال أحدهم:

وإني لأجفو الضيف من غير عسرة ... مخافة أن يَضْرى[1] بنا فيعود[2]

وقد يكون ذلك ناتجاً عن البخل، وكراهية الأضياف، كما قال أحدهم:

أعددت للضيفان كلباً ضارياً ... عندي وفضلُ هراوة من أرزن[3]

ومعاذراً كذباً ووجهاً باسراً ... متشكياً عضَّ الزمان الألزن[4]

وأتى رجل الحطيئة الشاعر، وبيده عصا؛ فقال: ما هذه؟ قال: عجراء من سَلَمٍ، قال: إني ضيف، قال: للضيفان أعددتها[5].

ولهذا كان كراهية الضيف مادة للهجاء اللاذع، كما قال حسين بن عرفطة في هجاء من يُعَيِّره بكراهة الضيف:

---

(١) يضري: يولع، ويعتاد.

(٢) عيون الأخبار ٢٤٦/٣.

(٣) الأرزن: شجر صلب تتخذ منه العصي.

(٤) الألزن: الشديد الكَلِب. انظر عيون الأخبار ٢٤٦/٣.

(٥) عيون الأخبار ٢٤٦/٣.

والضيف عندك مثل أسودَ سالخٍ لا بل أحبُّهم إليك الأسود[١]

وقال آخر في هجاء بخلاء:

تراهم خشية الأضياف خُرساً يؤدون الصلاة بلا أذان

والحاصل أن بسط الوجه للضيف من أعظم إكرامه، ومن أهم مهمات الضيافة.

بل هي مما تنال بها الدرجات العلى مع كل أحد؛ فكيف بالضيف؟

ولئن حصل تقصير في تقديم الطعام بسبب قلة ذات اليد فإن البشر، والبسط والتأنيس يجبر ذلك.

ولو بلغ الإكرام ما بلغ من جهة كثرة الطعام، وحسنه دون أن يُصْحَب ذلك بِبِشر، وطلاقة، وبسط ـ لكان الإكرام ناقصاً لا يجبره شيء.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن لِيَسَعَهم منكم بسط الوجه، وحسن الخلق**»[٢].

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصدقة أن تكفأ من دلوك في إناء أخيك، وأن تلقاه ووجهك منبسط إليه**»[٣].

---

(١) بهجة المجالس ١/٢٩٩.

(٢) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق (١٨)، والبيهقي في الشعب (٧٦٩٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧)، وقال: (حسن صحيح) والطبراني في مكارم الأخلاق (١٩).

الخامسة: المزاح مع الضيف

فالضيف الوارد ـ وخصوصاً ـ من يأتي أول مرة، أو بعد غيبة طويلة ـ يحتاج إلى مؤانسة لاسيما أول قدومه.

والمزاح العالي، المشتمل على الإيناس، ونفي الوحشة من جميل ما يستقبل به الضيف، ويكرم به.

وكان العرب يُعْنَون بشأن المزاح مع الضيفان، ويولونه اهتماماً بالغاً.

قال عتيبة بن بجير المازني من شعراء الحماسة:

فقام أبو ضيف كريم كأنه وقد جدَّ من فرط الفكاهة مازحُ

ويعني بأبي ضيف: نفسه، وقوله: (وقد جدَّ...): أي أنه يشابه المازح من فرط الصبابة، وهو جادّ.

ويقال: فاكهته بملح الكلام: وهي الفكاهة؛ إمعاناً في إكرام الضيف، وإسعاده[1].

قال الشيخ العلامة محمد المكي بن الحسين بعد إيراده البيت السابق: «ونظير هذا البيت قول المتنخل بن عويمر الهذلي يذكر حاله مع أضيافه:

سأبدؤهم بِمَشْمعةٍ وأثني بجهدي من طعام أو بساط

أنشده صاحب التاج (مادة شمع) وقال: (يريد أنه يبدأ أضيافه بالمزاح؛ لينبسطوا، ثم يأتيهم بعد ذلك بالطعام).

---

(١) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/٥٩.

وأنشده السيد المرتضى في أماليه (١٣٧/٢) وقال: (ومعنى سأبدؤهم بمشمعة: أي بِلَعِبٍ، وضحك؛ لأن ذلك من علامات الكرم، والسرور بالضيف، والقصد إلى إيناسه وبسطه»[١].

وقال جران العود في مثل هذا المعنى:

فتى الحيِّ والأضياف إن نزلوا به حذور الضحى تِلْعَابةٌ مُتَغَطْرِفُ[٢]

ومعنى: (تِلعابة): كثير اللعب، والمتغطرف: هو السخي، الجواد، الكريم، الكثير الخير، الظريف.

والمعنى: أنه إذا نزل به الأضياف أكرمهم غاية الإكرام، وآنسهم بكثرة مزاحه، وتظرفه؛ لإدخال السرور عليهم، وإزالة الوحشة عنهم.

بل ذهب العلامة ابن مفلح إلى استحباب ذلك، حيث قال: «ويستحب لصاحب الطعام أن يباسط الإخوان بالحديث الطيب، والحكايات التي تليق بالحال إذا كانوا منقبضين»[٣].

هذا وسيأتي مزيد بيان للمزاح في الضيافة عند الكلام على المزاح في مجلس الضيافة، وإنما المقصود ههنا إيناس الضيف بالمزاح أول قدومه.

---

(١) عادات عربية ص٥٥-٥٦.

(٢) ديوان جران العود ص٢٣.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢١٢/٣.

السادسة: تهيئة مكان إقامة الضيف

فإذا كان الضيف قادماً من بلد آخر، وسيقيم عند المضيف يوماً أو أكثر - فلابد من تهيئة مكان لإقامته، ومن معه، ولابد أن يكون المكان ملائماً بحسب الحال.

وقد كانت العرب تعنى بذلك الشأن، ولهم في ذلك رسوم، وأسماء تخص مكان إقامة الضيف.

ومن ذلك ما يعرف عندهم بـ: **(الثَّوِيّ)** وهو البيت المهيأ للضيف[١].

ومن ذلك -أيضاً-: **(التَّكْرِمة)**: وهي الوسادة وما يجلس عليه الضيف المكرم[٢].

وفي اللسان: «التكرمة: الموضع الخاص، لجلوس الرجل من فراش، أو سرير مما يعد لإكرامه، وهي تَفْعِلة من الكرامة»[٣].

وفي عصرنا الحاضر **استجدت عند الناس أمور في شأن إقامة الأضياف**، سواء في البيوت، أو الفنادق، أو دور الضيافة، أو الاستراحات، أو الأماكن التي يعدها الناس؛ لإكرام ضيوفهم سواء في منازلهم، أو مزارعهم، أو استراحاتهم، أو منازههم، أو ما جرى مجرى ذلك.

وقد يحصل تقصير، وخلل في حق الأضياف من هذه الناحية، إما بالغفلة عن إعداد المكان لإقامتهم، أو قلة المبالاة بملاءمته لهم، أو بتَركِ التفقد للمكان المخصص لهم.

---

(١) انظر لسان العرب ١٤/١٢٦.

(٢) انظر طراز المجالس للخفاجي ص١٢٨، وعادات عربية ص٢٩.

(٣) لسان العرب ١٢/٥١٥.

وإن من دلائل حزم المضيف أن **يعنى بتهيئة مكان إقامة الضيف تمام العناية**، وذلك بأن يُوكِل مهمة ذلك إلى أحد أولاده، أو خدمه، أو من له دالَّة عليهم من أخ أو صديق.

ويجمل أن يوصيهم بما يلزم حيال ذلك، بل يجمل به -أيضاً- أن يتفقد ذلك بنفسه؛ ليتأكد من لَياقته، وصلاحيته؛ إذ قد يحصل في بعض الأحيان أن يخصص مكان للضيف، ولكن قد يطول عليه الأمد دون أن يُلاحَظ، وقد تعلوه الأتربة، والغبار، وقد تتغير رائحته من طول المدى، وقد تحتاج بعض خدماته كالكهرباء، والماء إلى مزيد عناية، وقد يوجد فيها خلل، أو عطل؛ فإذا حصل التفقد والتعاهد له كان ذلك أدعى لملائمته من كل ناحية.

وكل ذلك راجع إلى الضيف بالراحة، ومزيد الإسعاد، ودال على رسوخ قدم المضيف في الكرم، والفضيلة.

السابعة: العناية بمجلس الضيافة

فمجلس الضيافة عنوان على ذوق صاحبه، وكرمه، وحسن نظره.

ومن هنا كانت العناية بمجلس الضيافة من الأهمية بمكان، سواء كان مجلسَ المضيف الخاصِّ به، أو أن يكون مجلساً استأجره في فندق، أو غيره.

وسواء كان ذلك في داخل المدينة، أو كان في بَرِّية خارجها.

وتلك العناية شاملة **لسعة المجلس**، ومدى استيعابه للمَدْعُوِّين، فلا يليق بالمضيِّف أن يدعو الجمَّ الغفير من الضيوف في مكان ضيِّق لا يتسع إلا لأقل القليل منهم.

ومن العناية بمجلس الضيافة: **العناية بترتيبه**، وإضاءته.

ومن ذلك: العناية **بطيب رائحة المجلس**؛ بحيث يطيَّب بأحسن ما يمكن من الطيب؛ لأن بعض الناس يأتي بأي طيب كان، فيبخّر به مجلسه، فإذا دخل الأضياف كان من أول ما يُستقبلون به تلك الرائحة التي تلاقيهم من جنبات المجلس.

ومن العناية بالمجلس العناية **بملاءمة جَوِّه** من ناحية البرودة، والحرارة.

وذلك يختلف باختلاف فصول السنة؛ فقد يكون المكان حاراً يُحتاج معه إلى تبريد يلطف الجو، وينعش الحاضرين.

وقد يكون المكان بارداً يُحتاج معه إلى وسائل تدفئة؛ كي تضفي عليه الدفء.

وقد يُحتاج إلى إشعال النار كي يصطلي عليها الحاضرون، أو يوضع عليها دلال القهوة، وأباريق الشاي، ونحوهما.

ولابد في ذلك من مراعاة جودة الحطب، وحسن الإيقاد للنار؛ بحيث تكون ناراً هادئة، وقودُها الحطبُ الجزل الطيب الذي لا يؤذي بدخانه؛ إذ بعض الناس لا يبالي بذلك؛ فتراه يوقد النار على أنواع رديئة من الحطب، أو تراه لا يحسن إيقادها؛ فيتأذى

ضيوفه بها أيما أذية؛ فقد تُحرق ثيابهم بما يتطاير من شررها، وقد تؤذي أعينهم، وأنوفهم، وصدورهم بما ينبعث من دخانها، وقد يصيب ثيابهم ما يصيبها من روائح ذلك الدخان، وقد يكون من بينهم من هو مريض يتضرر بتلك الرائحة المؤذية.

وبعض الكرام ممن اعتادوا على استقبال الأضياف قد لا يأنف من دخان النار مهما كثر وتصاعد، بل قد يحبذه، وقد يظن أن غيره كذلك؛ فإذا جاء بعض الأضياف نزل على حكم ذلك المضيِّف؛ فجامل، مع انزعاجه، وتأذيه من ذلك.

ولهذا كان العرب يعنون بشأن النار أشد العناية؛ بل لقد كانت من أركان الضيافة عندهم -كما مرت الإشارة إلى ذلك-.

وكان من عنايتهم بها حرصهم على أن تكون ناراً نافعة طيبة هادية، هادئةً، غير مؤذية.

وإذا أثنوا على كريم من الكرام أثنوا عليه بطيب ناره، وجودة حطبه، وحسن إيقادِه لتلك النار.

ولهذا فضلوا بيتي الأعشى في مدح المحلق، وهما قوله:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار في يفاع تُحرَّق

تُشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلَّق[1]

---

(١) المحلَّق بفتح اللام هو ابن خَنْثَم بن شداد بن ربيعة، قيل: إنه لقب بالمحلَّق؛ لبعير عضَّه، فترك في وجهه أثراً كالحلقة، أو لِكُدْنة كان في خدِّه كالحلقة. انظر ديوان الأعشى الكبير، تحقيق د. محمد محمد حسين، ص ٢١٦-٢١٧.

ونقل أبو الحجاج البلوي في كتاب ألف - ب ١/٥٣-٥٤: «المُحَلِّق بكسر اللام: رجل من ولد أبي بكر بن كلاب بن عامر الذي يقول فيه الأعشى:

..... وبات على النار الندى والمحلّق»

فَوَصفَ تلك النارَ بأنها تَهْدِي الأضياف إلى مكان الضيافة، وأنها تدفئ المقرور وهو من أصابه البرد[١].

وفضلوا عليهما بيت الحطيئة الذي يقول فيه:

متى تأتِهِ تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد[٢]

قال البغدادي: «أي متى أتيته عاشياً إلى ضوء ناره وجدت خير نار: أي أنفع نار للدفء، والأكل.

(عندها خير موقد): يحتمل معنيين: أن يريد بمن عندها من يوقدها من الغلمان، والخول، ويريد بقوله (خير موقد): كثرة كرمهم واحتفالهم بالوارد عليهم، وحسن القيام عليه بجميع ما يحتاج إليه.

والثاني: أنه يريد به الممدوح، ووصفه بالإيقاد ـ وإن كان سيداً ـ لأنه أمر به؛ فكأنه فاعله؛ يريد بقوله: (خير موقد): أكرم موقد، وأسخى موقد، وأفضل موقد؛ فعلى هذا يكون قد وصفه في هذا البيت بجماع الفضائل»[٣].

وقال ابن السكيت: «لما أنشد عمرَ بنَ الخطابِ الحطيئةُ هذا البيت قال: تلك نار موسى عليه السلام»[٤].

وفي الخزانة: كان الناس يستحسنون بيت الأعشى:

---

(١) انظر ديوان الأعشى الكبير ص٢٢٣ـ٢٢٥.

(٢) ديوان الحطيئة ص٨١.

(٣) الخزانة للبغدادي ٦٦١/٣.

(٤) ديوان الحطيئة ص٨١، ونسب هذا القول في العقد الفريد ٣٨٠/٣، وزهر الآداب لحصري ص٩٠٧، لعبدالله بن عمر.

..... وبـات علـى النـار النـدى والمحلّـق

حتى قال الحطيئة: متى تأته... فسقط بيت الأعشى»[١].

والحاصل مما مضى كله أن تمام إكرام الضيف إراحتَه من ناحية جو المجلس، وكونه معتدلاً ملائماً لا يُشتكى حرُّه، ولا برده.

وكل ذلك داخلٌ في باب العناية بمجلس الضيافة.

(١) الخزانة ٢١٥/٣، وقال السيوطي في شرح شواهد المغني: ص١٠٩: «قال العسكري في الأوائل: كان هذا البيت: لعمري قد لاحت... يستحسن في صفة نار القِرى، حتى قال الحطيئة: متى تأته تعشوا إلى ضوء ناره... البيت، فعَفَّى على الأول، هكذا قالوا.

قال: وعندي أن الأول أحسن وأعرب».

الثامنة: التماس العذر للضيف إذا تأخر

فقد يحصل ـأحياناًـ أن يتأخر الضيف عن وقت الضيافة؛ لسبب أو لآخر.

وسيأتي الكلام على تأخر الضيف، وما ينبغي له حال تأخره.

والكلام ههنا على المُضَيِّف في تلك الحال؛ فمن تمام إكرام الضيف، ومن دلائل رسوخ المضيِّف في الفضيلة أن يبسط العذر للضيف إذا تأخر؛ فقد يحبسه حابس؛ فيتأخر قليلاً أو كثيراً؛ فإذا أخذ المضيف بالعدل كان له حق أن يسأله، أو يعاتبه على تأخره.

وإذا أخذ بالإحسان والتكرم بسط له العذر، ولقيه بوجه وضاح، وجبين طلق، يزيل به وحشةَ الضيف، ويرفع عنه شعورَه بالذنب؛ فيكون ذلك إكراماً على إكرام، خصوصاً إذا كان الضيف كريم النفس، وليس من عادتِه التأخرُ، وحبسُ الناس.

وهب أيها المضيف أنك أفرطت في عتاب الضيف إذا تأخر، ثم جلس عندك متكدر النفس، مشغول البال، أو أنه لم يتحمل عتابك، فأعطاك ظهره وعاد أدراجه؛ فما مصيرك ـوالحالة هذهـ؟!

لاشك أنك ستندم، وربما اضطررت إلى الاعتذار إذا كنت ذا كرم.

ومما يحضرني في هذا الشأن **حادثة** حصلت قبل ثلاث عشرة سنة، حيث ذهبت بصحبة ثلاثة من الزملاء من أساتذة الجامعة إلى الرياض لمقابلة أحد مديري الجامعات بشأن موضوع يخصنا، وبينما نحن في الطريق وكان لأحد الصحبة أخ برتبة وزير، وكان يرأس أحد المرافق الحكومية، فاتصل ذلك الوزير

بأخيه، فأخبره الأخ أنه قادم إلى الرياض، وأن معه صحبة أتوا لأجل مقابلة فلان من المسؤولين؛ فقال: إذاً أنتظركم على الغداء، وألح كثيراً، فوافقنا، وقلنا له: إذاً يكون الغداء بعد صلاة الظهر مباشرة، فقال: الأمر كذلك.

وذلك الوزير لا يعرف أحداً منا إلا أخاه.

وبعد أن ذهبنا لمقابلة المسؤول الذي جئنا من أجل مقابلته أَخْبَرنا مدير مكتبه ـ وكان أخاً لأحد الصحبة الزملاء ـ أن المدير خرج لاجتماع طارئ، وأنه ربما لا يأتي؛ فذهبنا إلى أحدى المكتبات ريثما يحين وقت الظهر، فنصلي، ثم نذهب إلى صاحبنا المضيف.

وكانت المكتبة تقع في وسط الرياض، والجامعة في طرف الرياض الشمالي الغربي، وكان بيت صاحبنا المضيف في طرف الرياض الغربي، والمسافة بعيدة خصوصاً مع شدة الزحام وقت الظهيرة.

وقبيل الظهر اتصل بنا مدير مكتب مدير الجامعة، وأعلمنا أن المدير موجود بعد الظهر، فقلنا لصاحبنا: اعتذر من أخيك المضيِّف، أو أخبره أننا ربما نتأخر، فاتصل عليه، فقال: أنتظركم، ظناً منه ومنا أننا لن نتأخر إلا يسيراً، فلما وصلنا الجامعة انتظرنا قليلاً، ثم دخلنا على المدير، ثم أخذنا معه في الكلام على موضوعنا، وما خرجنا إلا متأخرين، فسرنا إلى منزل مُضَيِّفنا، ومع شدة الزحام لم نصل إليه إلا بعد أذان العصر، ونحن في خجل شديد؛ فهو بتلك المكانة، ونحن تأخرنا عليه كثيراً، وهو لا يعرفنا، فتوقعنا أن يعاتب، أو يَظْهَر عليه التكدرُّ؛ فلما وصلنا منزله استقبلنا عند الباب بكل بشر، وطلاقة، وحسن حديث، وكأنه يعرفنا منذ سنين.

فما كان منا إلا أن بادرناه بالاعتذار، وأن الأمر ليس بأيدينا؛ فقال: لا تعتذروا؛ الأمر يسير جداً، وأنا في منزلي، وبين كتبي، وأهل بيتي، وفي ظل ظليل، وراحة تامة؛ أنتم الذين تعبتم، وتكلفتم، وشرفتموني بالزيارة؛ فالفضل لكم.

وبعد أن تناولنا القهوةُ قرُبَ وقتُ إقامة صلاة العصر، فقال لنا: تفضلوا على الغداء، ولا تنتظروني؛ فأنتم مسافرون وأنا سأذهب إلى المسجد للصلاة؛ فقلنا ننتظرك؟ فألحَّ، ورغب إلينا كثيراً ألا ننتظره.

وبعد أن صلى جاء إلينا، وشاركنا الغداء، وبادلنا الأحاديث، ونحن في أشد ما نكون من الإعجاب به، والخجل منه.

وبعد الغداء استأذنا منه، فقال: لا أسمح لكم؛ نريد إكمال الجلسة، وتعويض ما فاتنا منكم، ورغب في ذلك كثيراً، فجلسنا عنده بعد العصر، وتناولنا الشاي، وتجاذبنا أطراف الأحاديث، وهو في غاية ما يكون من الارتياح، والسرور حتى انتصف العصر، فاستأذنا وقلنا: أمامنا سفر، فأذن لنا، وودعنا بكل حفاوة وبشر.

وقد مضى على هذه الحادثة سنوات، ولا أزال أنا وأصحابي نتذكرها بكل إعجاب، وإكبار.

وهي تدل على رسوخه في الفضل، وتدبره للعواقب؛ إذ لو لقيناه وهو متكدر النفس -وحق له ذلك- لربما انقبضنا، وزاد خجلنا منه.

ولكنه آثر الفضل، والإحسان، والتماس العذر.

وأذكر أن أحد الناس كان ينتظر ضيفاً قادماً كبيراً من بلد بعيد مع صحب له؛ ليقيموا عند المضيِّف أياماً، وكان مقرراً أن يصلوا بعد العشاء بوقت يسير.

ولكنْ بدا لهم أن يزوروا أحد الناس وهم في طريقهم إلى مضيفهم؛ فتأخروا كثيراً، ولم يصلوا إلا في ساعة متأخرة من الليل.

وكان الضيف الكبير في غاية الحرج من جراء تأخرهم؛ فاعتذر عن ذلك، وبالغ في العذر؛ فما كان من المضيف إلا أن قال: نحن في أشد الشوق إليكم، وكلما تأخرتم ازداد شوقنا؛ فما كان من الضيف إلا أن استبشر، وفرح، وزال عنه الحرج.

التاسعة: توزيع أعمال الضيافة

فمن حزم الإنسان، ورسوخه في فضيلة الضيافة توزيعه لأعمالها، وإسناده مَهامَّها لمن يراه من أولاد، أو أقارب، أو أصحاب، أو خدم، أو من هم متخصصون بتلك الأعمال.

ويتأكد هذا الأمر حال المناسبات الكبيرة التي تحتاج إلى جهد كبير، ومتابعة مستمرة؛ فتوزيع الأعمال في مثل تلك الأحوال من أعظم ما يخفف الأعباء، ويعين على إنجاح الضيافة، وإكرام الأضياف؛ فالعمل الكبير إذا تَوَزَّعَتْهُ الأيدي خَفَّ حِمْلُه، وعَظُمَ أَثَرُه.

ومن الإحسان في ذلك أن يُوكِل المضيف كلَّ شأنٍ من شؤون الضيافة إلى من يحسن القيام به؛ كتهيئة المكان، وإعداد القهوة والشاي، وتجهيز الطعام، ومتابعة الضيوف، واستقبالهم، ونحو ذلك من مهمات الضيافة.

ومن الإحسان -أيضاً- أن **يحسن اختيارَ مَنْ يُسْنِدُ إليهم تلك الأعمال**، وأن يوصيهم بما يريد، وأن يزرع الثقة فيهم، ويشجعهم، وينشر بينهم روح الفريق الواحد؛ فيشعر كلُّ واحد منهم أنه عنصر مُهِمٌّ من عناصر الضيافة، وأنه عنوان على صاحب المكان.

ومن ذلك توصيتُهم بأن **يحسنوا التعامل مع الأضياف**، وأن يقابلوهم بالبشاشة، وأن يحرصوا على خدمتهم وإسعادهم، وإعزازهم غاية ما يستطيعون؛ فإن ذلك مما يبهج الأضياف، ويرفع من شأن صاحب الضيافة.

ولهذا كانت العرب تثني على من كانت حاله كذلك كما في **بيت الحطيئة** السالف، وهو قوله:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقدِ[١]

فمن أوجه شرح هذا البيت ـ كما مر ـ أنه أراد بقوله: (خير موقد): من يوقدها من الغلمان، والخول، والأولاد؛ لكثرة كرمهم، واحتفالهم بالوارد، واحتفائهم به، وحسن القيام عليه بجميع ما يحتاج إليه.

وكل ذلك دليل على كرم صاحب الضيافة، وبُعد نظره، وحسن تدبيره[٢].

وهذا من أعظم ما يُمدح به الرجل المضياف كما **قال ابن هُرْمة**:

لله درك من فتىً فَجَعَتْ به يوم البقيع حوادثُ الأيام
هشٌّ إذا نزل الوفود ببابه سهل الحجاب مُؤَدَّب الخدام
فإذا رأيت شقيقه وصديقه لم تدرِ أيهما أخو الأرحام[٣]

بخلاف ما إذا كان أولئك جفاة، عساة، قساة ينهرون الأضياف، ويعبسون في وجوههم، وكأنهم قد أتوا إلى مكان؛ ليهانوا فيه، لا ليكرموا.

والحاصل أن توزيع الأعمال حال الضيافة الكبيرة مما يريح صاحب الضيافة، ويضفي عليه سكينة، وراحة، وطمأنينة، ومزيد إقبال على أضيافه.

بخلاف ما إذا كان يباشر جميع الأعمال بنفسه؛ فإن كثرتَها، وتنوعَها، ودخولَ بعضِها في بعض، واختلافَ مَنْ يُتعامَل معهم في شأنها كل ذلك ينال نَيْلَهُ من سكينته، وراحة قلبه، واستعداده لمقابلة أضيافه؛ فإن كان هو ممن لا يكل العمل لأحد؛ لقلة صبره، أو لقلة ثقته بأحد ـ فإنه سيلهو عن ضيفه، وربما تكدر، وظهر عليه ذلك بسبب نقص شيء، أو التقصير فيه.

---

(١) ديوان الحطيئة ص٨١.

(٢) انظر الخزانة ٦٦١/٣.

(٣) البيان والتبيين ١٦٨/١.

ومما يحسن في ذلك الشأن أن يكون بينه وبين من **يقومون بشأن الضيافة توافق**، وفهم لإشاراته، وأوامره دون أن يشعر بذلك أحد من الضيوف؛ فإذا أراد أيَّ أمر من أمور الضيافة عرفوه من خلال إشارة يده، أو إطراف عينه، أو من فحوى كلامه، أو عادته في مثل تلك الأحوال، كما قال الأول:

فأومأت إيماءً خَفِيًّا لِحَبْتَرٍ فلله عينا حَبْتَرٍ أيما فتى[1]

وبهذا الصنيع يسلم صاحب الضيافة من كثرة الخروج، والولوج، ومن كثرة الاتصال عبر هاتفه، وينأى عن مقاطعة الأضياف في حديثهم؛ فيكون بذلك قد قام بحقهم تماماً على الذين أحسن؛ فالضيوف -في الأغلب- يريدون مشاهدة مُضَيِّفهم، ومسامرته، وسماع حديثه، وإسماعه أحاديثهم؛ فليس من الضيافة أن يقطع عليهم ذلك بكثرة الولوج، والخروج، والاشتغال بأمور يمكن أن يقوم بها غيره.

وبالجملة فإن توزيع المهام من قِبَلِ المضيف يعين على السلامة من تلك الآفات التي تنال حظاً وافراً من أطراف الضيافة والإكرام.

(١) هذا بيت من قصيدة جميلة للراعي النميري تدور حول إكرام الضيف.

وحبتر: هو ابن أخيه، والمعنى: ما أذكى حبتر، وما أحد بصره؛ حين فطن، وتهدَّى لإرادتي.

انظر ديوان الراعي النميري، جمع، وشرح، وتحقيق د. محمد نبيل طريفي ص٢١-٢٢.

العاشرة: إكرام القائمين بشأن الضيافة

فمما يجمل بصاحب الضيافة، ويدل على كرم نفسه، وحسن نظره أن يُعنى بإكرام من يقومون بشأن الضيافة، سواء كان **ذلك الإكرام مادياً، أو معنوياً**؛ وسواء كانوا من خدمه، أو من أولاده، أو من أقربائه، أو أصدقائه، أو غيرهم.

فإما أن يكافئهم مالياً بما يليق، أو أن يزجي لهم الشكر والعرفان إذا قاموا بالضيافة خير قيام.

ولْيَحْذَرْ كلَّ الحذر من إهانتهم، والنيل من كرامتهم خصوصاً أمام الضيوف؛ إذ إن ذلك الصنيعَ منافٍ لأدب الضيافة؛ فترى مِنْ بعض الكرام ممن يغشاهم الضيوف من هو قليلَ الصبرِ، ضيِّقَ الصدرِ؛ فتراه عند أدنى هفوة من أحد ممن يقومون على خدمة ضيوفه يبادر إلى لومهم، وتبكيتهم، وتقريعهم أمام الأضياف.

وربما زاد الأمر عن ذلك، فمد يده لضرب ذلك المخطئ، أو المقصر، وربما دخل بعض الضيوف؛ لفض النزاع.

وما ذلك الفعل بصنيع الكرام حقاً، إذا هو مما يكدر على الضيف، ويورث من يقوم على الخدمة من ولد، أو خادم، أو صديق ـ الملالةَ من صاحب الضيافة، وقلة الرغبة في الإقبال على خدمته، قال الرستمي في مدح قوم كرام:

ولم يغلقوا أبوابهم دونَ ضيفهم ولا شتموا خُدَّامَهم ساعةَ الأكلِ[1]

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ٣/٣٧٣.

الحادية عشرة: التماس العذر لصاحب الضيافة إن بدرت منه فجوة

وكما أنه ينبغي لصاحب الضيافة أن يكرم أضيافه، ومن يقومون على خدمتهم من أولادَ، وخول، وأصدقاء، واقارب، وأن يحذر كل الحذر من أن يكدر عليهم - فينبغي كذلك لهؤلاء أن يعذروه إن بدرت منه جفوة، أو كزازة، أو سوء خلق؛ ذلك أن للضيافة أعباءها، والكرام يحرصون على أن تكون على خير ما يرام، ويحاذرون من أي تقصير في شأنها، ويشغلهم كلُّ ما يتعلق بالضيافة من صغار الأمور وكبارها.

وذلك مما قد يولّد لديهم شعوراً بالهمّ، وقلة النوم.

وقد يكدر عليهم مَنْ يُكَدِّر ممن لا يأبهون بإجابة الدعوة، أو من يتأخرون في إحضار طعام الوليمة، أو من يقصِّر في حق الضيافة من الأهل، أو الخدم.

وعلى مثل ذلك يُحمل قول **زينب بنت الطثرية** ترثي أخاها زيد بن الطثرية:

إذا نـزل الأضـياف كـان عَـذَوَّراً على الحيِّ حتى تَسْتَقِلَّ مراجلُه

قال الخطيب التبريزي في شرح ديوان الحماسة: «العذوَّر: السيِّئ الخلق، القليل الصبر فيما يريده، ويهم به؛ وَصَفَتْهُ بسوء الخلق، والتشدد في الأمر والنهي حتى تُنْصَب المراجل، وتهيأ المطاعم للضيفان، ثم يعود لخُلقه الأول»[1].

وقال ابن قتيبة في شرح البيت: «يقول: يسوء خُلُقُه حتى يطعم أضيافه؛ لإعجاله إياهم، ولخوف تقصير»[2].

---

(١) ٤٦/٣.

(٢) عيون الأخبار ٢٣٩/٣.

فعلى من كان كذلك أن يعذره أهلُه، وأولادُه، وخدمُه، وضيوفه خصوصاً إذا كان كريماً جواداً؛ فالكرم والجود يغطي المعايب؛ إذ كلُّ عيبٍ يغطيه السخاء.

وعليه -أيضاً- أن يحرص على لزوم البِشر، والصبر، واستدعاء السَّكِينة قدر المستطاع.

وأن يعتذر ممن يخطئ في حقهم من خدم، أو أصدقاء، أو أقارب، أو أولاد، أو أهل بيت.

الثانية عشرة: حُسْن التّفقّد للأضياف، والتتبُع لرغائبهم

فالأضياف النازلون على مضيِّفهم يكون لهم رغبات متنوعة، وحاجات مختلفة، وقد يستحيون من إبدائها لمضيفهم خصوصاً إذا كانوا سيمكثون عنده أياماً.

ومن ألمعية المضيِّف، ونباهته، وحسن قيامه بحق أضيافه أن يكون ذا فطنة مستيقظة، وملاحظة دقيقة، وبديهة حاضرة؛ بحيث يحس ما تُكِنُّه صدور ضيوفه، وتنزع إليه رغائبهم، وتنطق به عيونهم وإن لم يتفوهوا به صراحة؛ كأن يلحظ رغبةَ ضيفه في طعام أو شراب معين، أو تَضَايُقَه من برودةِ المكانِ أو حرارته، أو زيادةِ إضاءة المكان، أو نقصها، أو يلحظَ رغبتَه في إيجاد مُتَّكَئٍ، أو كرسيٍّ، أو رغبته في النوم، ومبارحةِ مكان الضيافة، إلى غير ذلك مما يحتاجه الضيوف.

ثم تراه بعد ذلك يبادر إلى صُنع ما يريدون دون أن يُشعرهم بأنه عالم بما يرغبون فيه؛ فتلك المبادرة من حسن التفقد، ومن تمام الإكرام.

وبعض المضيِّفين يغفل عن هذا المعنى الدقيق؛ فلا يُوْلِيْهِ اهتمامَه.

أما كرام الناس، وساداتهم، ومن ذللت لهم سُبلُ المكارم تذليلاً - فيوفُّون هذا المقام حقَّه؛ فلا يَغْفُلون عن صغير حقِّ الضيف ولا كبيره.

وهو مما يجعل لهم المحل الأرفع عند من يقدرون المكارم قدرها.

جاء في المسند عن طِهْفَةَ الغفاري ﷺ قال: ضِفْتُ رسول الله ﷺ فيمن تَضَيَّفه من المساكين، فخرج رسول الله ﷺ في الليل **يتعاهد ضيفه**؛ فرآني منبطحاً

على بطني؛ فركضني برجله؛ وقال: «لا تضطجع هذه الضِّجعة؛ فإنها ضِجعَة يبغضها الله»[١].

قال **عبيدالله بن عبدالله بن طاهر**:

يا بني اسمعوا فإن أبيكم ... عاقه عائق من الأضياف

فاكفلوهم ولو بروح أبيكم ... أو بقطع الأعضاء والأطراف[٢]

قال ابن عبدالبر رحمه الله: «تذاكر أهل البصرة من ذوي الآداب، والأحساب في أحسن ما قاله المولدون في حسن الجوار من غير تعَسُّفٍ، ولا تعجرف؛ فأجمعوا على بَيْتَي أبي الهندي:

نزلت على آل المهلب شاتياً ... غريباً عن الأوطان في بَلَدٍ مَحْلِ

فما زال بي إكرامُهم وافتقادُهم ... وبِرُّهمُ حتى حسبتهم أهلي[٣]

ولأهل الأدب ولوعٌ بهذين البيتين، ولهما روايات مختلفة، ومن ذلك أن البيت الثاني يُروى:

فما زال بي إكرامهم واقتفاؤهم ... وإلطافهم حتى حسبتهم أهلي

والاقتفاء من القَفيِّ: وهو ما يُؤثَرُ به الضيف.

وأصل الاقتفاء: اتباع الأثر؛ كأنهم يتتبعون أموره؛ فيصلحونها.

ويروى: افتقادهم: أي تفقدهم.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٣٦١٥).

(٢) التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص٤٣٠.

(٣) بهجة المجالس لابن عبدالبر ١/٢٩٤.

ويروى:

فما زال بي إكرامهم وافتقادهم وإحسانهم حتى حسبتهم أهلي

قيل: فيكون الإكرام، والافتقاد: داخلين تحت الإحسان، وإنما كرر ذلك؛ للتنويه بذكر الصنيع، والإيجاب لحقه[1].

ومما هو داخل في **حسن التفقد للضيف تفقدُ مَركبته**، وقديماً كانت العرب تقول: إن من إكرام الضيف إكرامَ دابته.

قال الأول:

مطيَّة الضيف عندي تِلْوَ صاحبها لن تُكْرِمَ الضيفَ حتى تُكْرِمَ الفرسا[2]

ودابة الضيف الآن: هي **مركبته**؛ فيحسن أن توضع في مكان آمن، وظل ظليل، حتى يرتاح صاحبها، وتكون قريبة منه؛ إذا قد يكون فيها ما فيها مما يخصه، فيخشى عليها من السرقة أو الضرر؛ فإذا وضعت في مكان آمن كان ذلك من تمام راحته.

ومن ذلك: **تفقد ما يحتاجه في ملبسه** من نحو تغسيل الثياب، أو كيِّها، أو تهيئة ملابس تَقِيْه البرد إن لم يكن الضيف مستعداً للبرد.

وكل هذه الأمور، وما جرى مجراها من أعظم ما تتم به الضيافة، ويحصل به الإكرام، وينال الثواب.

---

(١) انظر البيان والتبيين ٢٢٢/٢، وعيون الأخبار ٢٦١/١، والأمالي ٤١/١، والحماسة ١٣٥/١، وعادات عربية ص٣١، ويروى: وإيناسهم، ويروى: ومعروفهم، ويروى البيت الأول: في الزمن المحل.

(٢) التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص٤٣١.

ولهذا عقد الإمام الطبراني في كتابه (مكارم الأخلاق) باباً قال فيه: «باب فضل إلقاء الرجل الوسادة لأخيه المسلم» ثم ساق الحديث بسنده إلى أنس بن مالك ﷺ أنه قال: دخل سلمان الفارسي على عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- وهو متكئٌ على وسادة؛ فألقاها له؛ فقال سلمان: الله أكبر! صدق الله ورسوله.

فقال عمر: حدِّثنا يا أبا عبدالله، فقال سلمان: دخلت على رسول الله ﷺ وهو مُتَّكِئٌ على وسادةٍ، فألقاها لي، وقال: «يا سلمان! إنه ما من مسلم يَدْخل على أخيه؛ فيلقي له وسادةً إكراماً له إلا غفر الله له»[(١)].

فانظر إلى هذا العمل اليسير من إكرام الضيف كيف ترتب عليه ذلك الثواب الجزيل، وقِسْ عليه ما هو دونه، وأعلى منه.

ولهذا تجد ضيف الكرام يشعر براحة، واغتباط حتى كأنه في بيته، وبين أهله من فرط أنسه وسروره، قال العلوي:

يستأنس الضيف في أبياتنا أبداً فليس يَعْلَمُ خَلْقٌ أينا الضيف[(٢)]

بل يشعر بارتفاع واعتزاز، وشرف.

وهذا ما أشار إليه القاسم بن أمية بن أبي الصلت في وصف قوم كرام:

قوم إذا نزل الغريب بأرضهم ردُّوه رَبَّ صواهلٍ وقيان[(٣)]

---

(١) (١٥١) وأخرجه -أيضاً- في الكبير (٦٠٦٨)، وفي الأوسط ١٦٠/٢، وفي الصغير ٥٠/٢، وقال الألباني في الضعيفة (٥٤٢٣): «ضعيف جداً».

(٢) بهجة المجالس ٢٩٦/١.

(٣) انظر بهجة المجالس ٣٠١/١، وذكره أسامة بن منقذ في لباب الآداب ص٣٦٥-٣٦٦ ضمن أبيات، ونسبه إلى كعب جعيل، وذكره في ص٢٥٧ دون نسبة، وإنما قال: «قال العربي».

الثالثة عشرة: المراعاة للأضياف في الإقبال عليهم

فمن كرم المضيّف، ورسوخه في الفضيلة ـ أن يراعي هذه الخصلة؛ فَيُقْبِلَ على أضيافه إقبالاً يشعرهم بقيمتهم دون أن ينتقص من قدر أحدٍ منهم.

ومما يدخل في هذا القبيل **أن تكون نظراته موزعة** على الأضياف؛ بحيث لا يَغْفُل عن أحد منهم ـوإن كانوا يتفاوتون في ذلك بحسب مقاماتهم، وامتلاكهم ناصية الكلام، وقوة الحضور في المجلس.

وإنما المقصود **أن لا يهمل أيَّ أحدٍ من ضيوفه قدر المستطاع**، وبما يليق بحال كل ضيف.

يقال هذا لأن بعض الناس إذا كان عنده ضيوف، ومن بينهم ضيف كبير، وقد جاؤوا على شرفه ـ انصبّ كلُّ اهتمامه على **الضيف الكبير**، وتعامى عمّن سواه من صحب **الضيف الكبير**، أو من سائر من في المجلس كأصحابه وأقربائه؛ فما إن يراهم إلا وتصغر عينه، وتراه يحاول الصدود عنهم.

ولا ريب أن إعطاء الضيف الكبير حقه من الإكرام والنظر، ونحو ذلك من مقتضيات الضيافة.

ولكن ذلك لا يعني **إهمال البقية**، والنظر إليهم شزراً.

وبإمكانك ـأيها المضيفـ تدارك ذلك بلفتات حانية تشعرهم بقيمتهم، وترفع مقامك عندهم.

ثم إن من سعة نظرة المضيّف، وكِبَر قلبه ـ ألا يُشغله اهتمامه بالضيف الكبير عن أصحاب الضيف الكبير؛ إذ إكرامهم ـفي الحقيقةـ إكرام له، وهم رسله،

وعيونه على المضيِّف؛ فمن حسن النظر أن يتعاهدهم المضيِّف قَدْرَ المستطاع بالنظر والمؤانسة، والسؤال، والتفقّد.

وكل ذلك لا يحتاج إلى مزيد جهد، ووقت بقدر ما يحتاج إلى نباهة، ودقة ملاحظة.

ولقد كان النبي ﷺ يعطي كل أحدٍ من جلسائه نصيبه؛ لا يحسب أحدٌ أن أحداً أكرمُ عليه منه.

ومما يحضرني في هذا الشأن ما حدثني به أحد الأصدقاء من الكويت قائلاً: «ذهبتُ للدراسة في إحدى المدن الكبرى في المملكة عام ١٤٠٣هـ تقريباً أنا وزميل لي، وكنا نسكن في السكن الجامعي.

وفي يوم من الأيام استضافنا خال لزميلي، فذهبنا إليه.

ولما وصلنا إلى مكانه جلس المضيِّف بيني وبين زميلي ـ الذي هو ابن أخته ـ فأعطاني المضيِّف جنبه، وأخذ يتجاذب أطراف الحديث مع ابن أخته، ولم يكلمني طيلة المجلس، ولم ينظر إليَّ إلا نظرة السلام الأولى؛ فتكدرت كثيراً، وضاق صدري، وما فرَّج عني إلا لحظة توديعنا له.

وبعد أيام قابلت أحد أقاربي، ففرح بي، ورحَّب أجمل ترحيب، وألحَّ علي بالضيافة، فوافقت، وذهبت إليه أنا وزميلي؛ فلما وصلت إليه وجدت أنه قد استضاف جميع أكابر عائلتنا، وأولادهم، وهم كثر في ذلك البلد.

ولما رأوني أنا وزميلي فرحوا بنا، ورحبوا بنا أجمل ترحيب.

ولما أخذنا أماكننا في المجلس المكتظ المُجْتَمِع من أجلي أنا وزميلي ـ سألوني عن والدي، وبقية الأسرة، ثم تحولوا إلى صاحبي، وسألوا عنه، وزادوا في الترحيب به، بل كادوا أن ينصرفوا عني جملة من شدة إقبالهم عليه.

ولما تناولنا الطعام، وهممنا بالانصراف قاموا جميعاً، وطلب كل واحد منهم موعداً خاصاً، فحاولنا الاعتذار، فما قبلوا، فلم نخرج إلا بموعد خاص مرتب لكل واحد منهم.

وبعد ذلك صرنا في كل ليلة عند واحد منهم، وكان صنيعهم مع صاحبي كصنيعهم في الليلة الأولى من ناحية إقبالهم عليه، وإيناسهم له، وسؤالِه عن أهله؛ مما أسعده كثيراً، وأسعدني أكثر منه؛ إذ لم تكن سعادتي لأجل إكرامهم لي، بل لإكرام صديقي، فكان إكرامهم لي مرتين».

يقول صاحبي: «الآن، وبعد مضي ما يزيد على ستة وثلاثين سنة لا زلت أتذكر ما حصل؛ فأجد مرارة ما كان من قريب صاحبي نحوي، وأجد حلاوة نحو ما حصل من أقاربي تجاه صاحبي».

الرابعة عشرة: حفظ حق الأهل، والأصحاب حال الضيافة

فقد مرت الإشارة إلى شيء من ذلك في فقرة ماضية، والمقصود من تخصيص الكلام عليه ههنا: التأكيدُ، وإلقاء مزيد من الضوء حوله؛ فالمضيِّف -في الأغلب- لا ينهض بإصْر الضيافة وحده؛ إذ الضيافة تحتاج إلى جهود عدة متنوعة، وليست مقصورة على إعداد الطعام وتهيئة المكان فحسب.

بل تحتاج -مع ذلك- إلى حضور يملأ المكان حسّاً ومعنىً.

ومن مقاصد الضيافة الكبرى حصول التعارف، والإفادة، والاستفادة، وحصول الإعزاز للحاضرين.

ويحصل كثيراً في مناسبات الضيافة الكبيرة التي يحضرها ضيوف كبار، أو من خارج بلد المضيِّف - **أن يُقَصِّرَ في هذا الجانب**؛ فترى بعض المضيفين لا يأبه بأصحابه، أو أقاربه، وأهل بلده؛ فربما أزرى بهم، أو نهرهم أمام الأضياف، أو لم يُعْطِهم فرصة للكلام، ونحو ذلك من مظاهر التقصير في ذلك الشأن.

ولا ريب أن ذلك خلل كبير؛ فأهلك، وأصحابك، وأهل بلدك، ورواد مجلسك هم رأس مالك.

وضيفُك الطارئُ مكسبٌ من مكاسبك، ولا يُقَدَّم المكسب على رأس المال.

نعم، لا يراد منك أن تشتغل بهؤلاء عن الضيف الكبير، ولا ينبغي لهم أن يطالبوك بهذا.

ولكن ذلك لا يعني أن تجرح إحساساتهم، وتبالغ في تجاهلهم.

لذا كان حقاً على الكريم المضياف أن **يحفظ حق الأهل والأصحاب حال الضيافة**؛ فيسعى لإعزاز أهله، وأصحابه أمام أضيافه بما يناسب، وذلك بأن يعرِّف بهم، ويذكر ألقابهم العلمية، أو الوظيفية، أو الاجتماعية.

وإن كان فيهم من يثري المجلس بلطيف كلامه، ومحاسن طرائفه ـ فليعطه الفرصة؛ ليضفي على الضيافة ما يضفي من الإسعاد، والإفادة.

وإن كان فيهم شاعر مُجيد فليفسح له المجال؛ لإبداء ما عنده، أو أن يرحب بالقادمين من خلال شِعره، وهكذا.

فكل ذلك، وما جرى مجراه مما يزيد في المحبة، والتلاحم بين صاحب المناسبة، وأهله، وأصحابه، ومما يدفعهم إلى مزيد من إعزازه، ومحبته، وإسعاد أضيافه، ومساعفته في كل ما يحتاج إليه.

بل هو مما يرفع شأنهم جميعاً، ويوحي بالاقتداء بهم.

على أنه يحسن بالأصحاب، والأهل، والأصدقاء حال قدوم الضيف الغريب على أحد منهم أن **يلتمسوا العذر للمضيِّف**، وألا يطالبوه بما لا يطيق، فيعتبوا عليه عند أدنى تشاغل عنهم، أو تقصير غير مقصود في حقوقهم.

بل عليهم أن يعذروه، وأن يعينوه، وأن يشعروه أن ضيفه ضيفهم؛ فذلك مما يحقق مقاصد الضيافة من الإسعاد، والإعزاز، والتلاحم، والتراحم.

الخامسة عشرة: الترحيب بالضيوف

فقد مر أن من تمام الإكرام محادثة الضيف، ومؤانسته، وتلَقِّيه بالبشر.

وإن من أعظم **ذلك كثرة الترحيب به**، وتكرار ذلك ما بين الفينة والأخرى؛ ذلك أن الضيافة تحتاج إلى إسعاد الضيف منذ قدومه إلى حين رحيله؛ وإن من أحسن ذلك الترحيبَ فيه، خصوصاً أوَّل مَقْدَمِهِ، أو إذا انقطع الكلام في المجلس وساده الصمت، أو حال تقديم الطعام للضيوف، أو حال تناولهم له؛ أو بعد فراغهم منه؛ فهذه أوقات يحسن أن تمتلئ بالترحيب، وأن **يُختار منها العباراتُ الجميلةُ المناسبة لكل حال**.

ومن أحسن تلك العبارات، وأكثرها سيرورة قول: أهلاً، وسهلاً، ومرحباً.

ومعنى (أهلاً): أي أتيت أهلاً، لا غرباء؛ فاستأنس، ولا تستوحش.

ومعنى (سهلاً): أي نزلت مكاناً سهلاً، لا حزناً غليظاً.

ومعنى (مرحباً): أي أتيت سعة، وانزل في السعة؛ فلك عندنا ذلك.

ويقولون: مَرْحَبُك الله، ومسهلك، ومُرَحِّباً بك الله، ومُسَهِّلاً بك الله.

أي: رحب الله بك، مرحباً، وسَهَّل عليك.

ويقولون: رحَّب به: دعاه إلى الرحب والسعة[1].

وهذا ما جاءت به السنة المطهرة، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، وليلة؛ فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: **«ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟»**.

---

(١) انظر لسان العرب ١/٤١٤، و١١/٢٩.

قال: الجوع يا رسول الله.

قال: «**والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا**».

فقاموا معه إلى رجل من الأنصار؛ فإذا هو ليس في بيته؛ فلما رأته المرأة قالت: **مرحباً، وأهلاً**؛ فقال رسول الله ﷺ: «**أين فلان؟**» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد أكرم أضيافاً مني... الحديث[1].

وتلك كانت تحايا العرب، وتراحيبهم بأضيافهم، قال عمرو بن الأهتم:

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً ... فهذا مبيت صالح وصديق[2]

وقال هُدبة بن الخشرم في أحد ممدوحيه:

---

(١) صحيح مسلم (٥٤٣٤).

(٢) من أبيات رائعة في الضيف، ومنها:

ذريني فإن البخل يا أم هيثم ... لصالح أخلاق الرجال سروق

إلى أن قال:

ومستنبح بعد الهدوء أجبته ... وقد حان من ساري الشتاء طُروق

فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحباً ... فهذا مبيتٌ صالح وصديق

أضفت ولم أُفحِشْ عليه ولم أقل ... لأَحْرِمه: إن الفناء يضيق

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

أورد هذه الأبياتَ ابن عبدالبر في بهجة المجالس ١/٣٠٠، وقال قبلها: «وقال عمرو بن الأهثم التميمي المنقري من أشرافهم، وكان شاعراً محسناً كأن شِعره حُلَلٌ منتشرة، وله صحبة».

وانظر شعر الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهثم دراسة وتحقيق د. سعود عبدالجابر ص٩٢.

وأَسْرَعَ في المقرى وفي دعوة الندى إذا رائد للقوم راد فأجدبا
وأَقْوَلُنا للضيف ينزل طارقاً إذا كُرِه الأضياف أهلاً ومرحباً[1]

ومن ذلك قول: حيَّاكم الله، حَيَّا الله الجميع، وتلك تحايا شيخنا الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله لضيوفه.

ولا بأس أن يُحَيّا كلُّ قومٍ بحسب عُرْفِهم؛ إذ لكل قوم تحية للضيف، فإذا عُرِفَت عادتهم في ذلك، وكانت مقبولة لا إشكال فيها حَسُن أن يحيَّوا بها إذا قدموا ضيوفاً.

ومن ذلك تحية بعض الناس بحسب لغتهم؛ فإن ذلك من جميل ما يُحَيَّون به.

وإذا أقبل الضيفانُ على الطعام فمن التراحيب أن يقول المضيّف: حياكم الله، تفضلوا، يا مرحباً، مرحباً بكم إلى غير ذلك.

والحاصل أنه **يجمل بالمضيِّف أن يكثر من الترحيب**، ويُنَوع فيه **بشرط ألا يصل إلى حدِّ الإملال، والإزعاج، والحرج**؛ كحال من يرفع صوته في الترحيب رفعاً زائداً عن الحد حال سكون المجلس، أوحال اتصال الحديث.

وكحال من يُرَحِّب بكلام غير مقبول كمن يشعر الحاضرين بِكِبَرِ صنيعه لهم، كمن يقول: تفضلوا على هذا الطعام الحلال!

وهل كانوا قبل أن تستضيفهم يأكلون سحتاً؟!

وفي **مقابل ذلك تجد من يأتيه الضيوف**؛ فيستقبلهم **دون أن يُزْجِي لهم** أيَّ ترحيب، بل يكاد يكون الكلام بينه وبينهم إشارةَ خُرْس.

---

(١) شعر هدبة بن الخشرم ص٦٤.

يَذْكر أحدهم أن أحَدَ معارفه استضافه، قال: ولما وصلت منزل المضيِّف استقبلني هو وأولاده عند الباب دون أن ينبسوا بِبِنْتِ شَفَةٍ، ثم دخلت في المجلس المُعَدّ، ثم قدموا لي القهوة، ثم أشاروا أن تَفَضَّل إلى العشاء، وتركوني أنا وأحد الأضياف وحدنا.

وبعد العشاء تناولنا الشاي دون أيَّ كلمة منهم، ثم ودّعتهم وانصرفت.

على أنه يحسن التماس العذر لمن لا يرحب، فقد يكون حيِيًّا، أو لا يحسن الترحيب.

ولكن إذا فاته ذلك فلا يفوته إشراقة الوجه، وطلاقة المحيا.

ومما هو داخل في الترحيب، وجميل عباراته إبداء المضيف سعادته بين الفينة والأخرى، كأن يقول لأضيافه: ما أسعدنا بكم، ومَن أكرم منا أضيافاً؟ وما أجملها من فرصة! ولقد طال اشتياقنا لهذا الزيارة، ونحو ذلك من الترحيب المسعد.

وقد يحسن ـأحياناًـ أن تلقى كلمة ترحيبية للضيف، أو تلقى قصيدة بالمناسبة خصوصاً إذا كان الضيف قادماً من بعيد، أو من غيبة طويلة، أو بعد إبْلال من مرض.

السادسة عشرة: استمطار الضيف الحديث، واستطعامه إياه

فقد يكون الضيف ذا مَنْطِق حسن، وتأثير بالغ، وذا تفنن في الكلام، أو ذا علم، أو تخصص في أي شأن من الشؤون.

وقد يستحيي أن يبادر إلى الكلام، وإبداء ما عنده، وقد ينزل على حكم مضيِّفه؛ فلا يتقدم بين يديه بشيء.

فيحسن -والحالة هذه- أن يُستمطر الكلام، ويُستطعم الحديث، فَيُرغَب إليه، ويستأذن منه أن يبادر في الكلام، أو أن يسأل عما هو في دائرة اهتمامه، أو مما يستطيع القيام به من إيراد الكلام وإصداره؛ فذلك من تمام إكرامه.

وقد يكون ذا رغبة في الاستماع لنوع من الكلام قصصاً، أو أخباراً، أو شِعراً، أو فرعاً من أي فروع العلم، أو استماعاً لأحد من الحاضرين بعينه؛ فمن إكرامه أن يلبى له ذلك.

والمهم في ذلك أن لا يبرد مجلسُ الضيافة، ويثقلَ على الضيف والحاضرين عموماً.

هذا وسيأتي مزيد بيان وتفصيل لذلك عند الكلام على مجلس الضيافة، وما يقتضيه من الآداب، وما يعتريه من الآفات.

السابعة عشرة: تعريف الضيوف ببعض

وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ فقد يَجْمُل أن يُعَرَّف الضيوف بعضهم ببعض، وأن يُقرنَ ذلك بذكر بلدانهم، وألقابهم العلمية، أو الوظيفية مع ذكر بعض مآثرهم، وما يُقَرِّب بعضهم من بعض؛ فذلك مما يزيل الوحشة، ويقود إلى التئام مجلس الضيافة.

ولقد كان من أدب نبينا محمد ﷺ أن يستعلم من يقدمون إليه عن أسمائهم، كأن يقول: من القوم؟ أو أن يسأل عن أسمائهم.

جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ لقي ركباً بالرَّوحاء، فقال: «**من القوم؟**» قالوا: المسلمون، فقالوا: من أنت؟ قال: «**رسول الله**»[(١)].

وفي صحيح البخاري عن المسيب عن أبيه أن أباه جاء إلى النبي ﷺ فقال: «**ما اسمك؟**» قال: حَزَن، قال: «**أنت سهل**».

قال ابن المسيب: فما زالت الحزونة فينا بعد[(٢)].

وفي سنن أبي داود عن أسامة بن أَخْدَرِي رضي الله عنه أن رجلاً يقال له: أحدم، كان من النفر الذين أتوا رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**ما اسمك؟**» قال: أنا أحدم، قال: «**بل أنت زرعة**»[(٣)].

---

(١) مسلم (٣٣١٧).

(٢) البخاري (٦١٩٠).

(٣) أبو داود (٤٩٥٦).

وجاء في سنن الترمذي عن يزيد بن نعامة الضَّبِّي قال: قال رسول الله ﷺ: « **إذا آخى الرجلُ الرجلَ فليسألْه عن اسمه، واسم أبيه، وممن هو؛ فإنه أوصل للمودة**»[1].

فاستعلام الضيف عن اسمه مما يشعره بالاهتمام، ومما يزيد في الصلة والمودة.

بل مما يزيدها أن يسأله من أين هو، وما بلده؛ فإن في ذلك مزيد قرب، وأنس.

ولا يُعْدَمُ الكريمُ أن يجد من غضون ذلك التعريف ما يكون مادة لزيادة المعرفة، والصلة.

وكان سماحة شيخنا ابن باز رحمه الله **يستعلم أضيافه عن أسمائهم**، ويسألهم عن أخبارهم، وأحوال بلدانهم، ومن وراءهم من أهل العلم والدعوة.

وفي بعض الأحيان قد لا يَحْسُن تعريف بعض الضيوفِ ببعض؛ إذ قد يكون من بينهم مَنْ هُمْ متناكرون، ولا يعرف بعضهم بعضاً إلا بالذكر، فيخشى إن علم أحدٌ من المتناكرين بوجود الآخر أن يخرج من المجلس، أو يحدث في نظامه خللاً خصوصاً إذا كان أرعن الطبع، ويخشى من سوء بادرته.

وقد تَضْطَر الحالُ الرجلَ أن ينزل ضيفاً على أحدٍ في بريةٍ، أو نحوها، وهو يريد طعاماً، أو ماءً، أو مبيتاً؛ فلا يرغب أن يُعرف اسمه، أو أن يرى من الجفاء أن يسأل عنه؛ فيحسن -والحال هذه- ألا يسأل عن اسمه، ومن أين أتى إلا إذا خُشي أن وراءه ما وراءه من الشر، أو الفتنة.

وعلى هذا -أي على ترك الاستعلام من الاسم- يحمل قول الشاعر:

---

(١) الترمذي(٢٣٩٢).

سلي الطارق المعترّيا أمَّ مالكٍ إذا ما أتاني بين قِدْرِي ومجزري

أيسفر وجهي أنه أول القرى وأبذل معروفي له دون منكري

قال الخطيب التبريزي في شرح البيتين: «قوله: (**بين قِدْري ومجزري**): يريد إذا أتاني في موضع الضيافة أعطيه لحماً نيّاً، وذلك من المجزر، وإما مطبوخاً، وذلك من القدر.

ومعنى قوله: (**إنه أول القرى**): يريد أن إظهار البشاشة للضيف من أوائل قِراه.

وقال النميري: **المعروف** هنا: القِرى، والإيناس، وما شاكلهما.

والمنكر ههنا: أن يسأل الضيف عن اسمه، ونسبه، وبلده، ومقعده، وكل هذا مما يجلب عليه حَيَاه»[1].

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/٦٥، وانظر عادات عربية ص٣٤.

الثامنة عشرة: حبس الضيفان بلا طعام

قد يحصل ـأحياناًـ أن يتأخر بعض الضيوف كثيراً، فيضطر المضيّف إلى تأخير الطعام عن وقته المحدد.

وقد يتسبب ذلك في الحرج لبعض الضيوف الذين حضروا مبكرين، وأشد ما في ذلك أن يكون لبعضهم موعدُ تناولِ دواءٍ في وقتٍ محدد، ولا بد أن يسبق تناولَ الدواء أكلُ طعامٍ ولو قليلاً.

وقد يكون بعض الحاضرين مصاباً بنقص السكر؛ فيحتاج إلى تناول شيء من الطعام؛ كي يعود السكر عنده إلى طبيعته، فإذا تأخر الطعام حصل له ضرر، وحرج.

وقد يؤخر المضيِّف الطعام تأخيراً كثيراً بلا سبب أصلاً، وذلك مما ينافي أدب الضيافة.

فينبغي للمضيِّف ـفي مثل تلك الأحوالـ أن يضع بعض الطعام للضيوف ولو قلّ، كأن يضع تمراً، أو ماءً، أو نحو ذلك.

ويتأكد هذا الأمر إذا كان الضيف طارئًا، أو غريباً، أو قادماً من بعيد؛ فإن من تمام الكرمِ الإسراعَ إلى إطعامه.

وفي قول الله ـتعالىـ عن إبراهيم ـعليه السلامـ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات:٢٦] إشارة إلى هذا المعنى.

ويؤكد ذلك ما جاء في الآية الأخرى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هود:٦٩].

فلم يتريث بقرى الضيف، ولكنه عَجَّل به كعادة العرب بتعجيل قرى الأضياف بأطيب الطعام الموجود، ولو كانوا غرباء لا يعرفونهم.

وقوله -تعالى-: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ وصفٌ لحال إبراهيم -عليه السلام- ومدحٌ له بالكرم؛ حيث انطلق كالمستخفي من ضيفه لئلا يظهروا على ما يريد[١].

وجاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ لما أتى النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- رجلاً من الأنصار -وقد مضى- وفيه: «إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحدٌ اليومَ أكرم أضيافاً مني؛ فانطلق؛ فجاءهم بِعِذق فيه بُسْرٌ وتمر، ورطب؛ فقال: كلوا من هذه، وأخذ المُدْيةَ، فقال له رسول الله ﷺ: **(إياك والحلوب)**.

فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن العذق، وشربوا...»[٢].

والشاهد من ذلك أن الأنصاري انطلق من فوره؛ فجاء بعذق فيه بسر، وتمر، ورطب؛ فقدمه لهم ليأكلوه.

وهي عادة عربية لا زالت حتى يومنا عند الناس؛ إذ يحاول صاحب المنزل ألا يرى الضيف ما يُقَدَّم له من قِرى، أو ما يقوم به المضيِّف من تهيئة الطعام؛ فيسارع خُفيةً إلى ما لديه؛ فيأتي به.

وكلما كان الطعام سريعاً خفيًّا كان أظهر في الكرم، وأدلَّ على اعتياد صاحبه، وألطف على الضيف الذي لا يود أن يثقل كاهل مضيِّفه بما يقدم له من طعام.

كما يدل على سرور المضيف، واغتباطه بضيفه، وأنه غير مستثقل لهم، ولا متكلف لضيافتهم[٣].

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/٤٥-٦٢، والضيافة وآدابها ص١٢.

(٢) مسلم (٥٤٣٤).

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٠/٤٥، والضيافة ص١٣.

والمقصود مما مضى ألا يُحْرَج الضيفُ بتأخير الطعام، وأن ذلك خلاف ما عليه أهل الإمعان في الكرم.

لذا كان من **عادة العرب** أن جعلوا أنواعاً كثيرةً، وصنوفاً شتى تقدم **للضيف قبل الوجبة الرئيسة**، ومنها **العجيل**، أو **العَجِل**: وهو طعام يقدم إلى الضيف حال نزوله، ويكون من السَّوِيق والتمر في أغلب الأحيان.

ومنها **القَفَاوة**: وهو المرق الذي يقدم للضيف قبل الوجبة الأساس.

ومنها **لهنة الضيف**: وهو طعام خفيف يقدم للضيف يتلهى به، ويَرُدُّ جوعه حتى يهيأ الطعام[١].

ومن أمثالهم: كسرة بملح إلى أن يدرك الشواء[٢].

وقد مدحوا بتعجيل الطعام للضيف، وذَمُّوا بإبطائه؛ إذ الإبطاء دليل على تعسُّر معنى الكرم في نفوسهم.

ولذا ترى الشعراء يهجون من يؤخرون القِرى، قال ابن الحجاج لرجل دعاه، وأخَّر الطعام:

قد جُنَّ أصحابك من جوعهم ... فاقرأ عليهم سورة المائدة[٣]

وقال بعضهم يذم من يؤخر الطعام:

الخبزُ يبطي حين يَدْعُو به ... كأنه يَقْدُم من قافِ[٤]

---

(١) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ص٦٨٦، والضيافة ص٣٠.

(٢) انظر ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص٦٠٨.

(٣) زهر الأدب للحصري القيرواني ٣٤١/٢.

(٤) قوله: (من قاف) يقال في بعض الأساطير: قافاً جبل محيط في الدنيا، يقول: كأن الرغيف قادم من آخر الدنيا. انظر المحاسن والأضداد، ص١٠٢.

وقال آخر يهجوا قوماً بتأخير الطعام:

أسأتم وأبطأتم على الضيف بالقِرى ... وخير القِرى للنازلين المُعَجَّلُ[١]

وقد سمي حَيٌّ من أحياء العرب ببني العجلان؛ لأنهم كانوا يعجلون بقِرى الضيف، ويسرعون إليه؛ فكانت مفخرة من مفاخرهم[٢].

وقال مسكين الدارمي مفتخراً بإكرامه للأضياف، ناعياً نفسه إليهم، ذاكراً جملة من الخصال التي يتصف بها، وتعد من دلائل الكرم، وذكر منها تعجيل الطعام للضيف:

إذا مت فانعيني لأضيافِ شُقَّةٍ ... رمى بِهِمُ داجٍ بهيمُ العياطلِ

ولست بوقافٍ إذا الخيل أسرعت ... ولست بعباس إلى الضيف باسلِ

ولكنه يلقاه مني تحيةٌ ... ويأتيه قبل العذر بَذْلي ونائلي

ويلقاهمُ وجهي طليقاً وعاجلاً ... قِراي ومن خير القِرى كلُّ عاجل[٣]

---

(١) ثمار القلوب ص٤٣.

(٢) انظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ٥٢/١، وقال الحصري القيرواني: «وكان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم، ويتشرفون بهذا الوسم؛ إذ كان عبدالله بن كعب جدهم إنما سمي؛ لتعجيله القِرى للضيفان؛ وذلك أن حيًّا من طيئ نزلوا به؛ فبعث إليهم بِقِراهم عبداً له؛ فأعتقه؛ لعجلته؛ فقال القوم: ما ينبغي أن يسمى إلا العجلان؛ فسمي بذلك؛ فكان شرفاً لهم، حتى قال النجاشي -واسمه قيس بن عمرو بن حرن بن الحارث بن كعب- يهجوهم:

أولئك أخوال اللعين وأسرة الـ ... ـهجين ورهط الواهن المتذلل

وما سمي العجلان إلا لقوله ... خذ القَعْبَ واحلب أيها العبد واعجل

فصار الرجل منهم إذا سئل عن نسبه قال: كعبي، ويكنى عن العجلان» زهر الآداب للحصري ٥٤/١.

(٣) ديوان مسكين الدارمي ص٥٨.

التاسعة عشرة: مراعاة المضيف لذوق السؤال

إذ من تمام ألمعية المضيف أن يكون ذا ذوق عالٍ في السؤال؛ فيعرف متى يسأل؟ وعن ماذا يسأل؟ ومتى يسترسل في السؤال؟ ومتى يُقْصِرُ عنه؟

ثم إن حال الضيف وشخصه يُنْبِئان عن مدى الحاجة إلى السؤال، والمضيف الحكيم يدرك ذلك بذوق وألمعية.

وكم جر التفريط في ذلك من الشرور والحرج.

فأدب السؤال وذوقه، وملاءمتُه ـ موهبة ربانية، وقد تحصل بالمران، وملاحظة سير الأكابر.

ومن فاته ذلك فاته خير كثير، وفُتِح عليه بابُ شَرٍّ مستطير.

أخرج الطبراني في الأوسط[1]، ومكارم الأخلاق[2] عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**التودد للناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم**».

ومراعاة ذلك الأدب خصوصاً في الضيافة شامل للسائل والمسؤول؛ ذلك أن الناسَ يختلفون في رغبتهم في الأسئلة من عدمها؛ فبعضهم قد يرغب في أن تسأله عن أمرٍ ما، وأن تستفصل عنه فيه، وقد لا يرغب أن تسأله في أمرٍ غيره.

وبعضهم لا يُحبذ أن يُسأل عن أي شأن من شؤونه، بل تراه يضيق ذرعاً عندما يسأله أحد عن أي شيء من أمره ولو كان يسيراً.

---

(١) ٧/٢٥.

(٢) (١٤٠).

وبعضهم لا يكره أن يُسأل بمفرده، ولكنه يتضايق كثيراً إذا سئل بمحضر جمع من الناس.

ويذكر لنا **التاريخ شذرات من هذا القبيل** لأناس لم يراعوا جانب الذوق في السؤال؛ فكانوا عرضة للذم، وغرضاً لسهام الأجوبة المُسْكِتة المُبَكِّتة.

قال ابن عبدالبر رحمه الله: «قال تميم بن نصر بن سيار لأعرابي: هل أصابتك تخمة؟

قال: أما من طعامك فلا!»[1].

وقال ابنُ رَشِيْقٍ القيرواني: «كان الفرزدق ينشد مرةً، والكميت -الشاعر- صبيٌّ؛ فأجاد الاستماع إليه، فقال: يا بني! أيسُرُّك أني أبوك؟

قال: أما أبي فلا أرى به بدلاً، ولكن يسرني أنك أمي؛ فأفحمه، حتى غصَّ بريقه»[2].

قال الحكيم العربي:

وَدَعِ السؤالَ عن الأمور وبحثها فَلَرُبَّ حافرِ حُفْرةٍ هو يُصْرَعُ[3]

ولا يعني ذلك ألا يَسأل الإنسان صاحبه عن شيء؛ فتكون لقاءاته بأحبته باردة باهتة، قال الحكيم العربي:

كيف أصبحت كيف أمسيت مما يورث الود في فؤاد الكريم

وإنما المقصود أن يراعي ما مضى من أحوال؛ فيرتقيَ بأسئلته لأضيافه؛ فيسألَ عما يعني، ويفيد، ويسعد، ويتجافى عما يضر، ويحزن.

---

(١) أدب المجالسة وحمد اللسان لابن عبدالبر ص١٠١.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ٢/٧٨-٧٩.

(٣) عين الأدب والسياسة لابن هذيل ص٢٧٧.

العشرون: المبالغة في عرض الطعام على الضيف

فكثير من المُضَيِّفِين يحرص على تقريب أنواع الطعام للضيف، ويُرَغِّبه في تناوله، وهذا أمر حسن؛ إذ هو من تمام الإكرام والضيافة.

ولكن المبالغة في ذلك هي المذمومة؛ كأن يحلف عليه بين الفينة والأخرى أن يأكل هذا النوع من الطعام، أو أن يراقب الضيف مراقبة واضحة بحيث إذا رآه آخذاً وقتاً؛ لِيَتَنَفَّس فيه، أو ليمضغَ الطعام جيداً ابتدره إلى قول: كل يا فلان، ما لك لا تأكل؟!

أو إذا رأى اثنين من الضيوف يتناجيان على الطعام عاتبهما قائلاً: دعوا الكلام؛ كلوا الآن، والكلام بعد الطعام.

ولا ريب أن هذا نوع من النهر للضيف لا يليق.

وكذلك إذا أثقل على الضيف بتناول طعام معين، فربما جامل الضيف وأكل منه على مضض.

وقد يكون ذلك الطعام لا يلائم الضيف، كأن يكون فيه ضرر عليه، أو قد يكون مما يسبب له علة، أو قد يكون مُحَذَّراً منه من قبل الأطباء، ولا يريد أن يُعْلِم أحداً بذلك؛ فإذا ألح عليه المضيِّف بالأكل منه فأكل تضرر، وتضايق من جراء ذلك، وإذا اعتذر عن الأكل، وأخبر عن سبب اعتذاره وقع في الحرج؛ لأنه قد لا يحب الإفصاح عن ذلك السبب.

والحاصل أن عرض الطعام على الضيف، وترغيبه فيه حسن مطلوب، خصوصاً إذا كان الضيف حَيِيًّا، أو نحو ذلك.

أما ما عدا ذلك من الإحراج، والإلحاح الشديد، الخارج عن الطَّور فليس من الإكرام في شيء، بل هو داخل في قبيل الذم.

الحادية والعشرون: مراعاة عرف الضيف

فمن إحراج الضيف عدم مراعاة عُرْفه، وذلك يأخذ صوراً شتى؛ فمن ذلك ما تراه من بعض المضيِّفين من يقوم بتقطيع اللحم للضيف بيده، وقد يكون الضيف يكره ذلك؛ فمما ينفي الحرج في مثل تلك الحال أن يدع الطعام أمامه، وإذا أراد تقديم شيء إليه فليكن من خلال حائل كقفازات الأيادي الجديدة النظيفة، أو أن يقطع له اللحم من خلال بعض الأدوات كالسكاكين دون لمس مباشر للحم.

جاء في مسند الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: ضِفت النبي ﷺ ذات ليلة، فأمر بِجَنْبٍ؛ فشوي، قال: فأخذ الشفرة؛ فجعل يحزُّ لي بها منه.

قال: فجاء بلال يؤذنه بالصلاة؛ فألقى الشفرة، وقال: «**ما له تربت يداه**»[1].

ومن ذلك مراعاة عرفة في التحية، والاستقبال، وتقديم الطعام، وما جرى مجرى ذلك.

وكذلك يراعى عُرْفُه إن بدر منه ما يخالف عادة المضيِّف من نحو قول، أو فعل؛ فكل مراعاة للضيف محمودة ما لم تخالف الشرع.

وسيأتي مزيد بيان، وأمثلة لهذه المسألة.

---

(١) المسند (١٨٢١٢).

الثانية والعشرون: تصوير الضيف

وذلك مما شاع في عصرنا، فلا تكاد تمر مناسبة دون أن تصور، أو تسجل.

وهذا الأمر يحتاج إلى تفصيل؛ إذ قد يكون جالباً لحرج الضيف، وقد لا يكون؛ فمن الحرج في ذلك للضيف تصويره وهو يتكلم بكلام خاص دون علمه؛ ثم إذا خرج الضيف من المناسبة وجد كلامه الخاص منشوراً أمام الملأ.

وكذلك قد يأتي الضيف إلى شخص، أو مكان، أو بلد، ولا يريد أن يعلم أحد أنه في ذلك المكان؛ حتى لا يعتب عليه أحد أحبته أنه لم يزره؛ فإذا صُوِّر، وانتشر خبره كان في ذلك حرج له.

ولا ريب أن ذلك خلل، وتقصير في حق الضيافة، بل هو إخلال بأمانة المجلس؛ فإذا أراد المضيف تصوير الضيف فَلْيَستأذنه، ولْيُعْلِمْهُ، فإذا رضي فبها ونعمت، فيكون مستعداً لما يقول، وإن لم يرض فَلْيدع تصويره.

ويتأكد هذا في المناسبات الخاصة التي يكون الحاضرون فيها قِلَّة.

أما المناسبات الكبيرة فالأمر فيها أهون.

الثالثة والعشرون: كثرة نظر المضيِّف إلى الساعة

فمما ينافي أدب الضيافة كثرة نظر المضيِّف إلى الساعة أمام أضيافه؛ فإن ذلك يحرجهم كثيراً، وربما شعروا بثقلهم عليه؛ فينبغي للمضيف أن يحذر من ذلك غاية الحذر.

وإن احتاج إلى النظر إليها كأن يترتب على ذلك معرفةُ وقتِ تقديم الطعام، أو نحو ذلك فليكن نَظَرُهُ خِلْسَةً دون أن يشعر به أحد.

ويستثنى من ذلك ما إذا كان الأضياف ثقلاء جداً، وقد أتوا على غير ميعاد، وصاحب المكان لديه موعد مهم، أو يترتب على طول مكثهم ضرر ـ فلا بأس أن ينظر إلى الساعة، وأن يستأذنهم ويبدي لهم العذر.

أما ما عدا ذلك فلا يسوغ؛ إذ هو مخالف لتمام الإكرام، والإسعاد، والإعذار للضيف.

وقد لام أحدهم من ينظر إلى الساعة بين الفينة والأخرى بقوله:

تنظر الساعة من حينٍ لحين ... ليت شعري ما الذي يستعجلُك

إن هذا الوصل أحلام سنين ... فاتق الله ودع ما يشغلك

وقد سألتُ أحد كبار السن الأدباء ممن جاوز التسعين عن كونه لا يلبس الساعة، فقال: «كنتُ ألبسها، ثم تركت لبسها قبل خمسين سنة».

فسألته عن السبب، فقال: «كنت حاضراً لمحاضرة في إحدى الدول لفلان ـ أحد الأدباء والمفكرين الكبار في ذلك الوقت ـ وكان المحاضر مسترسلاً في إلقائه، أمام جمهور من الناس.

ودون قصد مني نظرت في الساعة، وإذا عينه علي، وكانت بيني وبينه مودة، فلما انتهت المحاضرة نهرني، وغضب علي، وقال: لولا ما بيني وبينك من سالف الود لعاتبتك أثناء المحاضرة أمام الملأ».

يقول محدثي: «ومنذ ذلك اليوم لم ألبس الساعة».

الرابعة والعشرون: استخدام الضيف

فمن الناس من إذا زاره ضيف أخذ يأمره، وينهاه، ويكلفه ببعض الأعمال.

وبعضهم إذا كان ضيفه ذا صَنْعَةٍ معينة اغتنم وجوده عنده، فتراه -ربما يُصنع الطعام- يكلّفه بإصلاح فاسد، أو بعمل ما يحتاج إليه المنزل من إصلاح الماء، أو الكهرباء، أو حديقة المنزل بحسب ما يجيده ذلك الضيف.

وهذا الصنيع ليس من المروءة في شيء؛ إذ المروءة تقتضي القيام بخدمة الضيف، والمبالغة في إكرامه.

قال ابن حبان رحمه الله: «ومن إكرام الضيف طيب الكلام، وطلاقة الوجه، والخدمة بالنفس؛ فإنه لا يذل من خدم أضيافه، كما لا يعز من استخدمهم، أو طلب لقراه أجراً»[1].

ومن الاحتفاظ بالمروءة أن يتجنب الرجل تكليف زائريه ولو بعمل خفيف، كأن يكون بالقرب من الزائر كتاب فيطلب منه مناولته إياه، أو أن يكون بجانبه الزر الكهربائي فيشير إليه بالضغط عليه؛ لإنارة المنزل.

أو أن يأمره بإدارة أقداح الشاي على الضيوف، أو نحو ذلك[2].

قال عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز: «قال لي رجاء بن حيوة: ما رأيت رجلاً أكمل أدباً، ولا أجمل عِشرة من أبيك؛ وذلك أني سهرت معه ليلة، فبينما نحن نتحدث إذ غشي المصباح، وقد نام الغلام، فقلت له: يا أمير المؤمنين، قد غشي المصباح، أفنوقظ الغلام؛ ليصلح المصباح؟

---

(١) روضة العقلاء ص٢٦١.

(٢) انظر رسائل الإصلاح للشيخ محمد الخضر حسين ١/٢١١.

قال: لا تفعل.

فقلت: أفتأذن لي ان أصلحه؟

قال: لا؛ لأنه ليس من المروءة أن يستخدم الإنسان ضيفه، ثم قام هو بنفسه، وحط رداءه عن منكبيه، وأتى إلى المصباح فأصلحه، وجعل فيه الزيت، وأشخص الفتيل، ثم رجع وأخذ رداءه، وجلس، ثم قال: قمت وأنا عمر بن عبدالعزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبدالعزيز»[١].

أما إذا قام الزائر وتكرَّم بخدمة مزوره فلا بأس في ذلك، خصوصاً إذا كان المزور له حق، أو كان من أهل الفضل والعلم والتقى.

وإلا فإن الأصل أن يقوم المضيِّف بخدمة الضيف على كل حال.

وكرام الناس يبالغون في إكرام الضيف، وخدمته مهما علت أقدارهم، ومهما نزلت مكانة الضيف.

قال المقنع الكندي:

وإني لَعَبْدُ الضيفِ ما دام نازلاً وما شيمةٌ لي غيرها تشبه العبدا[٢]

ولهذا جعلوا خدمة الضيف شرفاً لا يأباه أحد مهما كانت منزلته؛ فقالوا: أربع لا يأنف منهن أحد، ولا ينبغي للشريف أن يأنف منهن، وإن كان أميراً: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته للعالِم يتعلم منه، والسؤال عما لا يعلم مما هو أعلم منه، وخدمته الضيف بنفسه؛ إكراماً له[٣].

---

(١) عين الأدب والسياسة ص١٢٤.

(٢) بهجة المجالس ٢/٧٨٥.

(٣) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ٣/٤.

وينسب لعبدالملك بن مروان قوله: أربعة لا يُستحى من خدمتهم: السلطان، والوالد، والضيف، والدابة[١].

وسئل مجاهد رحمه الله عن قول الله -تعالى-: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] قال: «خِدْمته إياهم بنفسه»[٢].

وأعرف كريماً مضيافاً له جلال القدر، والسن، والوجاهة يخدم أضيافه خدمة لا تكاد تصدق.

ولا يختص بتلك الخدمة كبيراً دون صغيراً، أو وجيهاً دون غيره، فمنذ أن يقدم عليه الضيف وهو في خدمته إلى أن يغادر.

وله في ذلك أحوال، وأخبار يطول وصفها، وأذكر منها: أنه كان في مجلسه ضيوف كالعادة؛ فَقَدِم أخ لصاحب المكان؛ فنهض أحد الضيوف؛ لِيسلِّم على القادم؛ فانخلع جوربه؛ فقام صاحب الضيافة من ورائه وألبسه إياه دون أن يشعر به؛ فلما التفت وجد أن صاحب الضيافة هو الذي ألبسه إياه؛ فتعجب الضيف من ذلك الصنيع مع أن الضيف في سن أحد أولاد ذلك المضيِّف.

والحاصل أن خدمة المضيِّف لضيفه دليل كرمه، وأن من تمام إكرامه ألا يكلفه بشيء.

ولكن ذلك لا يعني أن يكون قاعدة لا يستثنى منها شيء؛ إذ قد يتكرم الضيف بخدمة مضيِّفه، أو قد يكون بين المضيف والضيف دالّةٌ وتركُ كُلْفَةٍ؛ كأن يكون الضيف تلميذاً للمضيِّف، أو قريباً منه جداً، أو يصغره بسنين، أو أن يكون الضيف ممن اعتاد التردد على مضيِّفه، وغشيان مجلسه؛ فإذا احتاج المضيِّف -في مثل تلك الأحوال- أن يأمر ضيفه، ويكلفه ببعض الأمور - فلا بأس.

---

(١) المقتطف من أزهار الطُرف لعلي بن سعيد الأندلسي ص٢١٣.

(٢) انظر جامع البيان للطبري ١٢٨/٢٦.

الخامسة والعشرون: موقف المضيِّف من جفاء بعض الضيوف، وحماقتهم

فالناس يتفاوتون ذوقاً، وأدباً، وتربية، وأخلاقاً، ومن الناس من هو بليدُ الطبع، كثيف النفس، لا يبالي أن يسيء، ولا أن يراه الناس مسيئاً؛ فإذا حضر ضيافة ألقى عليها كُثْبةً من بلادة طبعة وكثافة نفسه؛ فتراه -على سبيل المثال- يكثر النظر فيما يخص المضيّف، وربما وجد أوراقاً خاصة في مكان مرفوع في مجلس المضيّف، فأخذ يقلبها، وينظر فيها.

وقد يتصرف في نظام مجلس الضيافة، أو يجتهد في تقديم طعام، أو شراب قبل وقته دون إذن المضيِّف أو علمه.

وقد يقطع أحاديث الحاضرين بمكالماته عبر الجوال وهو رافعٌ صَوْتَه، وقد يرمي بالكلمات المؤذية على صاحب الضيافة دون أن يحسب له أي حساب.

وقد يؤذي بكثرة أوامره، وتدبيره، ونهره لمن يقومون على خدمة الضيوف، وقد لا يراعي نظام الكلام، والأكل في الضيافة.

وقد يوجد من الضيوف من ينهر بعض الضيوف إذا رأى منه ما لا يعجبه.

إلى غير ذلك **من صور الجفاء، والحماقة** التي تكون من بعض الضيوف.

وهذه الأمور، وأمثالها مما يثير حفيظة المضيِّف، ويحرِّك كوامن غضبه.

وإن من **تمام الإكرام أن يُوسِّع المضيِّف** صَدْرَه لمثل هؤلاء الذين لا تكاد تخلو منهم مناسبة؛ فإذا بلي بمثل ذلك فليلزم الصبر، والتغاضي حتى ينتهي وقت الضيافة؛ فذلك مما يُحمد عليه، ويرفع من قدره، ويُرَغِّب في مجلسه، وضيافته.

والحكماء، والشعراء يوصون بهذه الخصال، ويُعجبون بمن يأخذ بها، ويوطن نفسه عليها.

قال أكثم بن صيفي: «من تراخى تألَّف، ومن تشدَّد نفَّر، والشرف: التغافل»[١].

وقال حاتم: «العاقل فطن متغافل»[٢].

ووصف أعرابي رجلاً، فقال: «كان ـ والله ـ يتحسى مرار الإخوان، ويسقيهم عَذْبه»[٣].

وقال أعرابي في وصف كريم صبور:

أخٌ لك ما تراه الدهر إلا ... على العِلات[٤] بسَّاماً جوادا
سألناه الجزيل فما تلكَّا ... فأعطى فوق مُنْيتنا وزادا
فأحسن ثم أحسن ثم عُدْنا ... فأحسن ثم عدت له فعادا
مراراً لا أعود إليه إلا ... تبسَّم ضاحكاً وثنى الوسادا[٥]

ويحدثني الشيخ محمد الموسى مدير مكتب الشيخ ابن باز ـ رحمهما الله ـ: أن الشيخ كان يراعي مشاعر ضيوفه، ويصبر على جفائهم، بل ولا يرضى أن يهانوا بحضرته.

يذكر الشيخ محمد مثالاً على ذلك فيقول: «ومما يذكر في هذا الصدد أن أحد المرافقين لسماحة الشيخ رأى شخصاً لا يحسن الأكل، ولا أدب الجلوس على

---

(١) عيون الأخبار ٥/٣.

(٢) المرجع السابق ٥/٣.

(٣) المرجع السابق ٦/٣.

(٤) قوله: (على العلات): أي على كل حال.

(٥) عيون الأخبار ٦/٣ـ٧.

المائدة، فنهره، وقال: تأدب في أكلك، وكل مما يليك، وتكلم عليه كلاماً نحو هذا، فرد عليه ذلك الشخص، وقال: أنا على مائدة سماحة الشيخ، ولم آتِ إليك.

فلما سمع سماحة الشيخ بعض كلامهما سأل عن السبب، فأُخْبِرَ بذلك، فقال سماحته: أنا لا أرضى لأحد أن ينتقص أحداً من ضيوفي، أو ينال منهم؛ فالذي يرضى أن يجلس معنا على هذا الوضع، وإلا فنحن نسمح له بأن يذهب إلى من يريد، وهذا بيتي، وهؤلاء أتوا إلي»[1].

هذا وإن من أعظم الصبر على جفاء الضيوف وحماقاتهم ـ ما يكون من بعضهم من إساءة متكررة، واحتقار للمضيِّف ما بين الفينة والأخرى، وما يكون منهم من حسدٍ له، أو قلةِ اعترافٍ بفضله.

ويزداد ذلك إذا كان على مرأى، ومسمع من المضيِّف.

وإذا صدر ذلك ممن اعتادوا ضيافته، وغشيان مجلسه، والنيل من عطائه، وبره، وإحسانه ـ فذلك مما يشتد به الألم، وتعظم به الحسرة.

وهو ـفي الوقت نفسهـ مما يتعاظم به أجر المضيِّف، وتزداد وتتضاعف به مثوبته، ومما يدل على سؤدد من يصبر على تلك السفاهات المتكررة.

وأذكر في هذا السياق رجلاً كريماً، مضيافاً، بَراً، واصلاً لأرحامه، مُكْرِماً لأضيافه، ذا نبل، وشهامة خاطر، وتَدَفُّعٍ لخدمة البعيد والقريب.

وكان من شأنه كثرةُ استضافته لأقاربه، وجيرانه، وغيرهم.

---

(١) جوانب من سيرة الإمام عبدالعزيز بن باز ص١٨٩.

وبعض أقاربه يعلمون تلك الصفات السالفة عنه، ويدركون أنهم لا يستطيعون مجاراته في ذلك.

ولكنهم لا يعترفون له بالفضل، بل يحسدونه، ويحتقرونه حتى في مجلسه.

وكان من سوء صنيعهم معه أنه إذا أورد قصةً نظر بعضهم إلى بعض، وأشاروا إلى أنه كاذب فيما يقول، وأنه مبالغ فيما يروي، وربما واجهوه في ذلك.

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً ... لمن بات في نعمائه يتقلب[1]

وهو -مع ذلك- يبالغ في إكرامهم، وإعزازهم، ويتغاضى عن تلك القوارص، ولا يمنعه ذلك من الاستمرار على جميل صنيعه معهم.

وإذا قيل له في ذلك قال: أعلم ما يصدر منهم، ولكن ماذا تريدون أن أصنع؟ هؤلاء أقارب، وأصحاب، ولهم حقٌّ علي؛ فلا أريد أن أوسع جرحي بمقابلة إساءتهم بمثل أو أشد، ولا أريد أن أقطع رحمي بقلة صبري.

ولقد استمر على تلك الحال حتى مات رحمه الله ولسان حاله كما يقول أسامة ابن منقذ:

وما أشكو تلَوُّنَ أهلِ وُدّي ... ولو أجْدَتْ شَكِيَّتهم شكوتُ

مَلِلْتُ عتابَهم ويئستُ منهُم ... فما أرجوهُمُ فيمن رَجوتُ

إذا أدْمَتْ قَوارِصُهُم فؤادي ... كَظَمتُ على أذاهم وانطويْتُ

ورُحتُ عليهِمُ طَلْقَ المُحَيَّا ... كأني ما سمِعتُ ولا رأيتُ

تجَنَّوْا لِي ذُنوباً ما جنتْها ... يَدايَ ولا أمرتُ ولا نَهيتُ

ولا واللّهِ ما أضمرتُ غدْراً ... كما قد أظهَروهُ ولا نَويتُ

---

(١) ديوان المتنبي ١/١٨٥.

ويـــومُ الحشـــرِ موعـــدُنا وتَبـــدُو صـــحيفةُ مـــا جنَـــوْهُ ومـــا جنيـــتُ

ولقد قدِّر لي أن أحضر بعض ضيافاته، فرأيت من سفه بعض أقاربه، وجهلهم عليه ما يجعلني أتميَّز من الغيظ، وصاحبُنا لا تبدر منه بادرةٌ نحوهم، وما زاده ذلك إلا رفعة، وعزاً.

ولا ريب أن مثل تلك الأحوال لا يطيقها كل أحدٍ، ولكنها ـ ولله الحمد ـ حاضرة موجودة عند أولئك الأخيار الكرام.

وإن مـن السـادات مـن لـو أطعتـه لألقـاك في نـار يفـوح سـعيرها

هذا وسيأتي مزيد بيان لذلك عند الكلام على آداب مجلس الضيافة.

السادسة والعشرون: الإلحاح الشديد في الدعوة إلى الضيافة

فمن آفات بعض الكرام إذا أراد دعوة أحد لضيافته أن يلح إلحاحاً شديداً مزعجاً، مؤذياً دون أن يَقْبَل من المدعوّ عدلاً ولا صرفاً، ولو اعتذر بأشد الأعذار.

وإذا أصر المدعو على ألا يحضر غضب عليه، وتكدَّر، وربما رماه بالقول السيِّئ؛ واتهمه بالكبر، والتعالي عن إجابة الدعوة.

وربما أصرَّ على معرفة عذر المعتذر مما قد يضطر المدعو إلى مقابلة تلك الشدة بِشِدَّة مثلها في الرفض الذي قد يصل إلى قطع العلاقة.

وما هكذا تكون الدعوة إلى الضيافة؛ فهي كرامة لا إهانة.

نعم من حق المضيِّف، ومما يدل على كرمه أن يظهر الرغبةَ الشديدة، والحرص الأكيد على أن تجاب دعوته، لا أن يكون عرْضُه سابرياً[1] رخواً.

ولكن ذلك لا يعني التشدد، وإلحاق الأذى بالمدعو؛ فإما أن يستجيب للدعوة؛ فيكون الحبيبَ المقربَ، وإما أن يعتذر؛ فيكون البغيضَ البعيدَ.

---

(١) العرض السابريّ يضرب هذا مثلاً لمن يعرض عليك ما أنت عنه غني كالرجل يعلم أنك نزلت دار رجل ضيفاً، فيعرض عليك القِرَى.

وفي أساس البلاغة للزمخشري ص٢٢٦: (عرض عليَّ الأمر سوم عالّة) أي: عرضاً سابرياً كما تسامُ العالة على الشرب لا يستقصى في ذلك لأنها رويت بالنهل.

السابري: نسبة إلى سابور وهي كورة بفارس.

ومنه المثل: (عرض سابري) يقوله من يعرض عليه شيء عرضاً لا يبالغ فيه؛ لأن السابري من أجود الثياب يرغب فيه بأدنى عرض.

ومعنى العَلَل: الشرب الثاني، والنَّهل: الشرب الأول.

وهذه الآفة مما تفرقت بسببها القلوب، وتقطعت بها كثير من الأرحام.

يحدثني أحد الأصدقاء قائلاً: «إنني آتي ما بين الفينة والأخرى إلى بلد لزيارة صديق عزيز لديّ، فألتقي في تلك الزيارات بعض معارفي عند ذلك الصديق.

ومن بين هؤلاء رجلٌ فاضلٌ كريمٌ يدعوني في كل زيارة إلى منزلة؛ فكنت أعتذر منه بضيق الوقت، وهو يعلم ذلك، ولكنه يكرر الدعوة، وأنا مقدِّر له تلك الدعوات المتكررة، وهو كذلك يعذرني بأنني آتٍ من مكان بعيد، ولا أستطيع أن ألبي دعوته، بل ولا كثير من دعوات غيره، وأقول له: إننا نلتقي عند صديقنا الذي جئت من أجله، ويكفي، ولعل الله ييسر فرصة أخرى أوسع.

وليست المشكلة في ذلك، وإنما لكونه في كل مرة ألتقيه يعرض عليه زيارته، ثم يلحق ذلك بقوله: أنا أعرض عليك، وأنا متأكد أنك لن تأتي، بل إنه إذا سمع أحداً من المعارف الآخرين يعرضون علي الدعوة قال لهم: لا تتعبوا أنفسكم؛ لن يأتيكم فلان.

والحقيقة أنني ضقت به ذرعاً، بل تأذيت منه كثيراً، وصرت أفكر بأن أزوره مرة، وأقول له: ها أنا قد زرتك؛ فهل ارتحت وطابت نفسك؟

فإذا قال: نعم، فسأقول له: ولكني لم أَرتح؛ بسبب أذيتك، وكثرة إلحاحك. ا.هـ.

والحاصل أن الدعوة إلى الضيافة تَنِمُ عن محبة، وحرص، وأن عرضها هكذا بدون رغبة قوية قد لا تدل على حرصك على زيارة صاحبك لك.

كما أن الإلحاح الشديد قد يؤذي، ويقطع حبال الصلة بينك وبين أحبتك؛ فلابد -إذاً- أن تكون الدعوة إلى الضيافة مصحوبة برغبة قوية، مُغَلَّفَة بأدب عالٍ، وذوق رفيع؛ لِيَشْعُرَ صاحبَك أنك محب عاذر، لا عاتب عاذل.

السابعة والعشرون: التعامل مع من دعي إلى الضيافة ولم يحضر

فالكرام تكثر مناسباتهم، ودعواتهم، وقد تُلبَّى دعواتهم كثيراً، فيأتيهم الأحبة من قريب ومن بعيد.

وقد يحصل في مناسبات عدة أن يُدْعَى بعضُ الناس؛ فيبدي الموافقة ثم لا يحضر، ولا يعتذر قبل المناسبة، ولا بعدها.

فههنا يقع المضيِّف في الحرج، وربما ساورته الظنون بأن صاحبه زاهد به، غير مبالٍ بإجابة دعوته ـ خصوصاً إذا تكرر ذلك ـ.

وتلك سبيل إلى التقاطع والتدابر، وميدان فسيح لإساءة الظن.

والذي **تقتضيه الحكمة، والعقل** أن يحسن المضيِّف التعامل مع تلك الأحوال خصوصاً إذا كان مضيافاً؛ فإذا دَعَى أحداً لمناسبة، واعتذر فليقبل عذره، وإذا وافق على المجيء، ولم يأت، ولم يعتذر بعد ذلك عن عدم مجيئه ـ فليوسع الصدرَ، وليصبر على ما حصل.

ولا بأس بأن يتصل؛ ليطمئن، فقد يكون له عذر، ولم يتمكن من إبدائه، أو أنه نسي، أو قد يكون بحالة تمنعه من الحضور ولا يريد إبداءها.

وربما تمرّ به جفوة عارضة؛ فإذا صبر المضيِّف على ذلك كانت العاقبة حميدة له، ولصاحبه، وإذا استعجل بالعتاب الشديد، واللوم المبالغ فيه كانت النتيجة عكس ما أراد؛ إذ قد يسمع من صاحبه ما لا يريد سماعه من الجفاء والقطيعة؛ فإذا كان صاحبك محباً فلا داعي لتقريعه، وكثرة لومه؛ وإن لم تحصل على مزيد محبته فلا تخسره البتة.

ولهذا قالت الحكماء: المعاتبة تبعث التجني، والتجني وافد الصَّرم[١].

وإن كان زاهداً في الصحبة، منصرفاً عن المودة فليس العتاب الشديد بجالب لذلك، وعلى هذا ينزّل قول الحكيم العربي:

أقْلِل عتاب من استربت بودِّه ليست تُنال مودّةً بعتاب

والناس في ذلك يختلفون باختلاف أذواقهم، وحسن تَأَتِّيهم.

وأذكر في هذه المناسبة **حوادثَ كثيرةً** من هذا القبيل، وقد تنتهي بسببها علاقة قائمة، أو -في الأقل- تتكدر، ويصيبها فتور.

وقد تنتهي بزيادة المحبة، وتوثيق عرى الصلة.

والسبب في ذلك سوء التعامل، أو حسنه في مثل تلك الأحوال.

قال بعضهم: من لم يؤاخِ من الإخوان إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقُه، ولم يرضَ من صديقه إلا بإيثاره إياه على نفسه دام سخطه، ومن عاتب على غير ذلك كثر عدوّه.

وكان يقال: أعجز الناس من فَرَّط في طلب الإخوان، وأعجز منه من فرط فيمن كسبه منهم.

وقال الشاعر في مثله:

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ولكن إخوانَ الثقاتِ

ومما يحضرني في هذا الشأن ما يُحَدِّثُ به أحد الناس قائلاً: «كان لي صديق في أحد البلدان، وكان كريماً مضيافاً، وقد زرتُه أكثر من مرة، وكان يحب أن يزار.

---

(١) انظر عيون الأخبار ٣/ ٣٠، و٣٨.

(٢) انظر المحاسن والأضداد للجاحظ ص٦١.

ولما أردت زيارة بلده اتصل عليه، وقلت: إنني قادم إلى بلدكم لغرض معين، وسآتيك غداً للغداء.

ونظراً لبعد المسافة بيني وبين بلد صاحبي خرجت من بلدي في الصباح مبكراً، وبعد أن سرت قليلاً عرض لي عارض لم أتمكن معه من مواصلة السير، وأدركت أنني لن أصل إليه إلا في الليل، وكنت قد اتفقت معه على الغداء، فاتصلت عليه، وقلت: قد لا أستطيع الوصول إليك إلا ليلاً، فقال: لعلك تحاول، فقلت: ليس الأمر بيدي، وإذا وصلت ليلاً فعندي موعد آخر.

فصار يتصل علي بين الفينة، والأخرى، وأنا أقول له ما قلت في البداية، ولكنه أصرّ على أنني سأصل ولو بعد العصر، فصار ينتظرني.

وهكذا استمررت في السير، ولم أصل إلى ذلك البلد إلا بعد العشاء، مع أني طيلة تلك الرحلة على اتصال مستمر معه، حتى سلم للأمر والواقع، ولم يَعُدْ ينتظرني.

ولما وصلت إلى ذلك البلد، وذهبت إلى موعد سابق آخر صار يتصل، ويعتب، ثم لقيني مرة أخرى، وصار يعرّض بي في عدد من المجالس، وأنا أعتذر منه، وأتودد له، وهو يقول: أعلم أنك تريد أن أسامحك، لقد سامحتك، ثم يرجع مرة أخرى إلى التعريض، واللوم حتى رجعت إلى بلدي، وأنا ضائق الصدر، كاسف البال، متمنياً أنني لم أَعِدْهُ بتلك الزيارة».

وفي مقابل ذلك يحدِّث أحدهم مما تكون عنده مناسبات كبيرة كثيرة أنه كان يدعو أصدقاءه، وأقرباءه، ومحبيه، وأساتذته، وطلابه إلى تلك المناسبات.

وحصل أن أحد هؤلاء ـ وكان أثيراً، مقرباً محبباً لصاحب المناسبة ـ كان يدعوه؛ فيلبي الدعوة، ويأتي.

ثم فجأة صار يدعوه فلا يعتذر، ولا يأتي، وتكرر ذلك مراراً.

يقول صاحبنا: «وفي يوم من الأيام أرسلت له دعوة لإحدى المناسبات، ثم عقَّبت عليها بالاتصال به مباشرة، فوافق على الحضور، ولكنه لم يحضر.

وفي أثناء تلك المناسبة اتصلت عليه، وقلت له: لقد تأخرت، ونحن بانتظارك، فقال: لن آتي، وقد ذهبت إلى فلان من الناس من أقاربي.

فَكَبُرَ ذلك في نفسي، وقلت له: لقد كلمتك مبكراً، ودعوتك للحضور قبل أيام، أليس كذلك؟

قال: بلى، ولكن هذا الذي حصل، فاعذرني، وبالغ في الاعتذار، فقلت له: قد حصل ذلك مراراً، قال: نعم، آمل أن تعذرني، ثم ودعته، وفي نفسي شيء من أن أكون قد عاتبته، أو أغضبته، وتمنيت أن لو لم أكن كلمته في ذلك.

وبعد يومين أرسل لي رسالة هاتفية مكتوبة، وفي مقدمتها تلطف بالغ واعتذار شديد؛ وقبل أن أُكْمِلَها بادرت بالاتصال عليه، وقلت له: مثلك لا يعتذر، وأنت الحبيب الودود؛ ثم تجاذبنا أطراف الحديث.

وفي تلك الأثناء صرت أقرأ باقي رسالته في هاتفي الآخر الذي أرسلها من خلاله، وإذا فيها -مع الاعتذار- كلام يقول فيه: أعتذر عما مضى من التخلف عن المجيء، وآمل ألا تدعوني مرة أخرى؛ حتى لا أُوْقِعَك ونفسي في الحرج؛ فكانت صدمة عنيفة لي.

ثم قلت له: لقد ذكرت في رسالتك كذا وكذا، فقال: نعم، لقد فكرت في ذلك ملياً، فأرجو أن تقبل مني، وتعذرني.

فقلت له: هل هذا آخر كلام لديك؟ قال: نعم، فأنا لديَّ أعمال، وارتباطات كثيرة، فقلت في نفسي: معناه أنه يريد قطع الصلة، فكيف يكون

ذلك، وهو الحبيب اللطيف، ذو الذوق المرهف، والنفس الزكية؛ فلعله يمر بشأنٍ عارض، وقد غلب عليه، فأصابني في تلك اللحظة همّ، وغم، وفكّرتُ في أن أودِّعَه بعد ذلك.

ولكن قلت في حينها -ولا أدري كيف طرأ ذلك ببالي-: وهل أنت حُرٌّ في ذلك؟ وهل تظن أن قيمتك رخيصة إلى هذا الحد؟ وهل يخطر ببالك أن تكون عندي مناسبة دون أن تكون أول المدعوين؟

إن كنت تظن ذلك أو تريده فأنت مخطئ تماماً، بل ستكون -كالعادة- أولَ المدعوين سواء كان ذلك عبر رسالة، أو عبر مكالمة مباشرة.

وبعد ذلك أنت حُرٌّ في المجيء من عدمه؛ فإن كان الوقت يساعفك، والحال مناسبة لمجيئك فأهلاً وسهلاً وعلى الرحب والسعة تأتي أنت، ومن تحب.

وإن لم يكن الأمر كذلك فعذرك مقبول من الآن، ولا داعي أن تعتذر مستقبلاً؛ فمحلك في الذروة، والسنام، وأنا قَدَّرْتُ اعتذارك عن المجيء، وأنه إنما كان نابعاً عن صدق مودتك، وطيب قلبك، ولم يكن عن زهدٍ في الصحبة، ولا ميلٍ عنها، ولا رغبة في قطع الصلة.

وعندما سمع ذلك الكلام كاد أن ينفجر باكياً، ثم قال: أستغفر الله، وأعتذِرُ أشد الاعتذار، والله لقد أخطأت في الأولى، وفي الثانية، والله إني لا أستحق ذلك أبداً، فأنا أقل من أن تهتم بشأني، وتصبر على جفائي، ثم ختم المكالمة بعبارات الندم، وعبرات الأسف».

يقول صاحبنا: «وبعد أيام التقيته، فتعانقنا طويلاً، وأبدى حياءً، واعتذاراً خجلت منه.

وفي أقرب مناسبة عندي كان من أوائل المدعوين، وأوائل الحاضرين».

والحقيقة أنني تأثرت بتلك الحادثة كثيراً، وأدركت أن أحباب الإنسان، وأصدقاءه رأس ماله، فإذا لم يزدد منهم ربحاً فلا ينبغي له أن يخسرهم، وأن الأحبة ينبغي أن يصبر بعضهم على بعض، خصوصاً في الدعوات إلى المناسبات، وما يتخللها من الاعتذارات، ونحوها؛ فإن الصبر، والتماس العذر، مما يزيد العلاقة وثاقة، والمحبة قوة إلى قوة؛ فإن جاء صاحبك إلى ضيافتك جاءه يحدوه الشوق، وصادق الود، وإن تخلف عن المجيء لم يَكْبُر ذلك في نفسه، ولا في نفسك؛ ثقةً بالود السالف، واطمئناناً لما في القلوب من قوة العلاقة، وحسن الظن، والتماس العذر.

ولا ريب أن توطين النفس على تلك المعاني يحتاج إلى صبر، ومراوضة، وحسن ظنٍّ، وتدبُّر للعواقب، واحتساب للأجر، وحرص على المحافظة على المكاسب.

الثامنة والعشرون: دعوة الصاحب الهاجر

فقد يكون عند الإنسان مناسبة، وقد يكون له صاحب، أو قريب، أو زميل بينه وبينه مودة سالفة، ثم شابها ما شابها من العوارض إما بسبب خصومة، أو وشاية، أو جفوة، أو نحو ذلك مما يحدث بين الأحبة، والأقارب.

فهل يُتْرَك ذلك الصاحبُ الهاجر دون دعوة؛ خشية ألا يأتي، ومن ثَمَّ تكبر العداوة، وتزداد ضراوتها، ويصعب الوئام بعد ذلك؟

وإذا دعاه؛ فما شأن المدعوِّ هل يجيب، أو يَدَعُ إجابة الدعوة؛ بسبب ما بينهما من الجفاء، والخصومة؟

الحقيقة أن تلك معضلة تقع لكثيرين؛ فيحارون في ذلك.

والذي يقتضيه أدب الإسلام، ومروءة الكرم ـ أن يدعو صاحبُ المناسبة مَنْ بينه وبينه خصومة، أو جفوة؛ خصوصاً إذا كانت مناسبة عامة، وكان صاحبه ذا طبع كريم، وكان من عادته أن يدعوه لمثلها؛ إذ من شأن تلك الدعوة أن تطفئ لهيب الخصومة، والقطيعة؛ فقد يجيب، وربما كانت إجابته سبباً لإنهاء ما بينهما بِرُمَّتِه.

وإذا لم يجب فإنك أيها الداعي قد قمت بما تقتضيه الحكمة، والديانة، والمروءة، وخفَّفت من شدة الجفاء والخصومة؛ فالنار إنما تُذكى بالعودين.

وأنت أيها المدعوُّ إذا دعيت فأجب، ولو كانت الخصومة، أو الجفوة قائمة؛ فإجابة الدعوة واجبة، وكل سبيل إلى الصلح أو محاولة إليه هو خير.

ثم إذا أجاب المدعوُّ دعوة صاحبه فينبغي لصاحب المناسبة أن يَقْدُرَ تلك الإجابة قَدْرَها، فَيَفْرَحَ بهذا الذي غلب نفسه، وأجاب دعوة صاحبة، وليحسن

استقباله، بل يزيد في حفاوته؛ فإن ذلك من جميل الفعال، ومحمود الخصال، وهو مما يفرح أحبابهما، ويغيظ من يحبون إشعال الفتنة، وتفريق الأحبة.

وكم حصل بسبب حسن التعامل مع مثل تلك الأحوال من الخير العظيم.

قال ابن قتيبة في عيون الأخبار: «روى الزبير بن بكار عن عمه قال: كان الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة يجلس وعمرو بن عبيدالله بن صفوان ما يكادان يفترقان، وكان عمرو يبعث إلى الحارث في كل يوم بقربةٍ من ألبان إبله، فاختلف ما بينهما؛ فأتى عمرٌو أهله، فقال: لا تبعثوا للحارث باللبن؛ فإنا لا نأمن أن يرده علينا، وانقلب الحارث إلى أهله فقال: هل أتاكم اللبن؟

قالوا: لا؛ فلما راح الحارث بعمرٍو قال: يا هذا! لا تجمعَنَّ علينا الهجرَ وحَبْسَ اللبنِ؛ قال: أمَّا إذا قُلتَ هذا فلا يحملها إليك غيري؛ فحملها من رَدْمِ بني جُمَحٍ إلى أجياد»[1].

ولقد ذكرت في كتابي (مروءات معاصرة) شيئاً من هذا القبيل، ومما يناسب ذكره في هذا المقام، حادثة عنوانها: **خصومة شريفة بين وجيهين**؛ فإليكموها، وما تحمله من عبر:

الخصومة الشريفة هي التي تكون بين فارسين نبيلين يستدعيها سبب معقول؛ فإذا قُدّر لهما أن يتخاصما ـ كانت معركتهما شريفة سامية تُتبادل فيها الحجج والبراهين بصورة مكشوفة، ويترفعان فيها عن أساليب المهاترة والإسفاف والتربص والدناءة؛ فإذا انتهت المعركة انتهى كل شيء معها.

---

(١) عيون الأخبار ٣/٣٥.

ومما يحضرني في ذلك القبيل قصة ذكرها لي أحد أكابر الوجهاء في إحدى دول الخليج، وهو من أهل الزلفي في الأصل، وممن اشتهر بالكرم، وحسن المعشر، وطلاقة المحيا، وحلاوة المنطق.

يحدثني ذلك الوجيه قائلاً: حصلت خصومة عندنا بين اثنين من أكابر الوجهاء والأغنياء حول مسألةٍ مّا، فثار حولها منازعات شديدة وصلت إلى المحاكم، وصارت حديث الناس، وانزعج لها محبو الطرفين.

وفي يوم من الأيام كانت مناسبة عند أحدهما، وكان لابد له ـ كما جرت العادة ـ من دعوة صاحبه الذي وقعت بينه وبينه تلك الخصومة؛ فصار الناس عندنا يترقبون ما سيسفر عنه الأمر، هل سيدعو صاحبه للمناسبة؟ وإذا دعاه فهل سيجيب ذلك الصاحب دعوة صاحبه؟ وإذا أجابه أو لم يجبه فماذا سيكون؟ أسئلة ظل الناس في شأنها يدوكون.

والذي حصل أن صاحب تلك المناسبة وجَّه الدعوة إلى صاحبه، وعلم الناس بذلك، وصاروا يترقبون موعد المناسبة على أحرَّ من الجمر؛ ليروا هل سيأتي ذلك الصاحب المدعو أوْ لا؟

فما إن جاء موعد المناسبة، وتوالى حضور المدعوين إليها، وامتلأ بهم المكانُ المعدُّ لاستقبالهم ـ إلا وفوجئوا بذلك الصاحب الخصم المدعوِّ للمناسبة يُقْبل إلى صدر المجلس؛ كي يسلم على صاحبه الداعي، ثم يأخذ مكانه في ذلك المجلس؛ فلما رآه صاحبهُ صاحبُ الدعوة نهض من مكانه مسرعاً، واستقبله في وسط المجلس، ولم ينتظره حتى يصل إليه، فعانقه عناقاً طويلاً حاراً، ثم أخذ بيده ـ والناس شاخصة أبصارهم لذلك المشهد الرائع ـ وأجلسه في مكانه في صدر المجلس، وصارا يتجاذبان أطراف الحديث بكل ودٍّ، وسكينة.

ولما انتهى الترحيب بالضيف القادم قال له صاحبه: أشكر لك إجابة الدعوة، فقال له ضيفه: بل أنا أشكر لك توجيه الدعوة إلي، فقال له صاحبه: هذا حقك، فقال له الضيف: وهذا -أيضا- أقل حقوقك؛ فقال له صاحب المكان: إذاً اسمع منِّي؛ القضية التي بيننا أنت خصمها وأنت حكمها، وهي بين يديك؛ فاحكم فيها بما ترى.

فقال له صاحبه: بل الأمر إليك أنت؛ فاحكم بما ترى، فصار كل واحد منهما يضع القضية عند صاحبه؛ ليحكم فيها؛ فصارت قضية أخرى؛ حيث انقلبت من خصومةٍ باعثُها الأثرةُ إلى قضية أخرى باعثُها الإيثار؛ وما انْفَضَّ ذلك السامرُ إلا وعادت المياه إلى مجاريها، ورجع ودُّهما السالفُ إلى أحسن مما كان عليه.

وكان ذلك الموقفُ مثارَ إعجاب الحاضرين، ومن سمعوا به.

بل صار من جملة مناقب ذينك الصاحبين النبيلين اللذينِ أبانا عن فروسية كامنة، ومروءة صادقة.

فهذا -حقيقة- هو النصر، الذي يفاخر الإنسان به؛ حيث انتصر على نوازعه، ورعوناته، وحقق به معنى قوله - تعالى - : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وأجاب دعوة الحكيم الناصح إذ قال:

يـــا مـــن تضـــايقه الفعـــا ... ل مـــن الـــذي ومـــن الـــتي

ادفـــع - فـــديتك - بـــالتي ... حتـــى تـــرى فـــإذا الـــذي

التاسعة والعشرون: تأخر الضيف عن المجيء بلا داع

وهذا دأب بعض الناس؛ فتراه يتأخر عن المجيء إلى الضيافة دون عذر، أو سبب؛ فقد يدعى إلى مناسبةٍ ما؛ ويُحَدَّد له موعد المجيء، فيوافق عليه، وقد يكون ممن دعي الناس على شرفه، ثم تراه -بعد ذلك- يتأخر كثيراً عن المجيء دون أن يكون له أي عذر، ودون أن يبديَ أيَّ مسوغ، وإنما كان ذلك عن برود طبع، أو قلة اهتمام.

ويترتب على ذلك حبس الناس، وقطعهم عن أعمالهم، وإيقاع المضيِّف في الحرج.

وربما ترتب على ذلك أن لا يكون الطعام المعد على الهيئة المطلوبة، من ناحية نقص حرارته، أو برودته.

وقد لا يستطاع تلافي ذلك إذا كانت المناسبة في بَرِّيَّة.

وقد يتسبب ذلك التصرف في انصراف الناس عن حضور المناسبات التي يكون ذلك المتأخر ضيفاً فيها.

فاللائق بالضيف أن يراعي مثل تلك الأحوال، وأن ينأى بنفسه عن زراية الآخرين به.

ولقد كان من دأب شيخنا الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله إذا دُعي إلى مناسبة أن يكون أول الحاضرين إلى تلك المناسبة، حتى إن من دونه بكثير -في السنِّ والقدر- يأتون بعده، وربما تأخروا كثيراً عنه.

الثلاثون: التبكير الزائد عن وقت الضيافة

فكما أن التأخر عن المجيء للضيافة آفة من آفات الضيافة، فكذلك التبكير الزائد؛ فقد يُدْعى بعض الناس لمناسبة بعد صلاة الظهر مثلاً؛ فيأتي قبل صلاة الظهر، أو يدعى بعد صلاة العشاء، فيأتي قبل الصلاة.

وهذا مما قد يوقع في الحرج؛ فربما لم يكن المكان مهيئاً، وربما كان عند المضيِّف ضيوف آخرون ليس لهم ارتباط بالضيوف الذين أتوا مبكرين.

وربما يكون المضيِّف مشغولاً في ذلك الوقت، إلى غير ذلك مما قد ينتج عن التبكير عن الموعد المحدد من حرج.

أما إذا كان المضيِّف ينتظر الضيوف قبل موعد مجيئهم بوقت طويل، أو أن يكون في مكان الضيافة أصلاً، ولا شغل لديه سوى انتظارهم، أو أن يعلموا أنهم إذا بكَّروا كان أسعد له ـ فلا بأس في التبكير، والحال هذه، بل قد يكون من الحزم، وذلك خير من التأخر عن المجيء.

الحادية والثلاثون: سؤال المدْعوِّ المضيفَ عمن عنده

وذلك كحال بعض الناس إذا دعاه المضيِّف إلى مناسبةٍ ما ـ سأله ـ قبل أن يجيبه إلى الدعوة ـ: من عندك؟

فإذا قال عندي فلان، وفلان ممن له مكانة أو وجاهة استبشر وأجاب الدعوة، وإذا قال: عندي فلان، وفلان ممن ليسوا كذلك اعتذر، أو سوّف، ووضع العراقيل، وقال: ربما آتي، أو لا آتي.

وتلك آفة قبيحة لا يحسب لها بعض الناس حساباً.

فالمضيِّف دعاك، وأكرمك بتلك الدعوة، **فاللائق بك أن تجيب الدعوة**؛ إكراماً له؛ فإذا أخبرك بمن عنده فبها ونعمت، وإن لم يخبرك فلا ضير عليك.

وبعد أن تجيب الدعوة، أو تعتذر عن المجيء لا مانع من أن تسأله عمن عنده؛ فإن كانوا ممن ترغب فيهم، وتأنس بهم، ولا غضاضة عليك بالحضور معهم ـ فنور على نور.

وإن كان ثَمَّ مانعٌ، أو مسوغٌ لعدم حضورك اعتذرت منه، وبيَّنت له وجه العذر؛ فحينئذ يشكر لك إجابة الدعوة، ويقبل عذرك إذا اعتذرت عن المجيء.

هذا وإن كرام الناس يجيبون الدعوة من أي أحد، ولو عَلَت أقدارهم، ولو كان الداعي ممن لا يؤبه له؛ تواضعاً لمن دونهم، وتقديراً لمن أكرمهم بالدعوة إلى الضيافة.

قال الطبراني في مكارم الأخلاق: «حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي، ثنا سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: «مَرَّ عليٌّ بن الحسين

-وهو راكب- على مساكين يأكلون كِسَراً لهم؛ فسلم عليهم؛ فدعوه إلى طعامهم؛ فتلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[القصص:٨٣] ثم نزل؛ فأكل معهم، ثم قال: قد أجبتكم؛ فأجيبوني؛ فحملهم إلى منزله؛ فأطعمهم، وكساهم، وصرفهم»[١].

وكان شيخنا ابن باز رحمه الله يجيب دعوة من دعاه إلى ضيافة، أو وليمة زواج، أو نحوها، ولا يكاد يرد أحداً إذا دعاه مهما كان ذلك الداعي كبيراً، أو صغيراً، غنيًّا، أو فقيراً، وسواء أكان من عِلية الناس، أو من عامتهم.

وقد ذكر الشيخ محمد الموسى رحمه الله مثالاً يؤكد ذلك، وهو رصد للمناسبات، والدعوات التي دُعي إليها سماحة الشيخ، وحضرها في آخر سنة من عمره، وهو عام ١٤١٩هـ.

وقد بَلَغَت - كما في البيان المسجل لذلك العام - سبعة وسبعين مناسبة[٢].

وكان الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله مضرب المثل في إجابة دعوات عامة الناس؛ بل لا يكاد يمر عليه يوم إلا وقد لبَّى ما لبَّى من تلك الدعوات، ولو كانت من أطفال.

وله في ذلك قصص، وأخبار يطول ذكرها[٣].

---

(١) مكارم الأخلاق للطبراني (١٧٣).

(٢) انظرها مفصلة بأسماء الداعين والمناسبات في كتاب: جوانب من سيرة الإمام عبدالعزيز بن باز ص٤٩٦-٥٠٥.

(٣) انظر تفصيل ذلك في ترجمته في كتاب تراجم لتسعة من الأعلام.

والحاصل أن التفريط في هذا الشأن ـ أعني سؤال المدعوِّ المضيفَ عمن عنده ـ ثم ما يترتب على ذلك من موافقة، أو اعتذار ـ هو مما يولد التنافر، والتدابر؛ إذ قد يزهد المضيف بدعوة من كان كذلك، وقد يظن أن المدعوَّ لا يراه أهلاً لإجابة دعوته إلى غير ذلك من الظنون التي تساور المضيف في مثل تلك الأحوال.

الثانية والثلاثون: الاعتذار عن المجيء إذا لم يتسنَّ

فقد يُدعى الإنسان إلى مناسبة، ويبدي الموافقة التامة، ثم بعد ذلك يطرأ له ما يطرأ من الأحوال، التي تحول بينه وبين الحضور إلى دعوة المضيِّف؛ فينبغي له -والحالة هذه- أن يُقَدِّم العذر بوقت كافٍ حتى يأخذ المضيِّف حسابه.

وإذا تعذر الحضور قبل وقت المناسبة بقليل فليخبر صاحبه بذلك.

وإذا نسي، أو حيل بينه وبين الاعتذار مسبقاً فليعتذر فيما بعد، وليسع جهده في تطييب نفس الداعي خصوصاً إذا كان من ذوي الإحساسات المرهفة.

أما التخلف عن المجيء بعد الموافقة دون اعتذار فذلك شأن أهل الغفلة، أو البلادة، أو قد يكون شأن أهل الدالّةِ ممن ترفع بينهم وبين الداعي الكلفة.

وترك الاعتذار بعد الموافقة مما يوقع المضيف في الحرج؛ إذ قد يكون دعا نفراً قليلاً، ولم يدعُ غيرهم، وربما كان في باله آخرون يود دعوتهم، ولكن المكان، أو ملائمة الحاضرين لبعض تمنعه من دعوتهم؛ فإذا اعتذر أحد المدعوين كان المضيِّف في سعة من أمره أن يدعو من يريد دعوته، أو أن يؤجل الضيافة إلى غير ذلك مما يترتب على الاعتذار المبكر.

الثالثة والثلاثون: اصطحاب الضيف معه من لم يُدْعَ إلى الضيافة

وهذا الأمر يحتاج **إلى تفصيل**؛ فالأصل أن الإنسان إذا دعي إلى مناسبة أن يأتي وحده، وألا يخبر أحداً؛ خصوصاً إذا كانت المناسبة خاصة جداً، ولم يُدْع إليها إلا قلة.

وبعض الناس إذا دعي إلى مثل تلك المناسبات حضر ومعه شخص، أو أكثر؛ فيوقع المضيِّف في الحرج الشديد؛ إذ قد يكون المكان ضيِّقاً لا يتسع إلا للمدعوين دعوةً خاصةً فحسب؛ إذ لو أتى كلُّ واحدٍ من المدعوين بواحدٍ أو أكثر لما اتسع لهم المكان.

ثم إن الداعي قد يكون متعمداً ألا يحضر إلا من يلائمون ذلك المجلس، أو قد يكون بين المدعوين أمر يريدون تداوله وحدهم.

وقد يكون الداعي ناسياً ذلك الذي جاء بصحبة المدعو، أو أنه لم يُرِدْ أن يأتي في الأصل؛ فإذا حضر كان في ذلك حرج شديد، وتخجيل بالغ للمضيف، وربما وقعت بينهما مشكلة، أو عداوة؛ ببركة ذلك المدعوِّ الثقيل[1].

وعلى هذا يحمل قول بكر المزني رحمه الله: «أحوج الناس إلى لطمة من دعي إلى وليمة؛ فذهب بآخر معه»[2].

ومثل ذلك من إذا دعي إلى مناسبة خاصة أخبر غيره من معارف ذلك الداعي، فيقول لهم إما عن حسن نيةٍ، أو عن سوء طويةٍ: هل دعاكم فلان؟ أو هل ستذهبون إلى فلان؟

---

(١) انظر أخبار الثقلاء والمستثقلين للزمزمي ص١٨.

(٢) المرجع السابق ص١٨.

فإذا كانوا ممن لم يَدْعوا وقع الحرج، وربما حضر سوء الظن، وقامت سوق العداوة.

لذا يجب على من دعي إلى مناسبة أن يتفطّن لهذا الأمر، وأن يأتي وحده دون أن يصطحب معه أحد ولو كان أقرب الأقربين؛ فذلك هو الأصل، والواجب.

وإذا رغب في حضور أحد معه فليستأذن صاحب الضيافة.

ولهذا عقد الخطيب البغدادي في كتابه التطفيل باباً قال فيه: «باب فيمن دعي إلى طعام فأراد أن يستصحب معه غيره»[١].

ثم قال بعد ذلك: «إن السنة استئذان الداعي له في ذلك»[٢].

ثم ساق تحته خمسة من الأحاديث في هذا الباب[٣].

وأما إذا كانت المناسبة كبيرة، أو عامة، أو كان المدعوُّ يعلم أن صاحب الضيافة لا يمانع من إحضار من لم يُدْع، أو كان يرغب في ذلك، ويُسَرُّ به ـ فلا بأس من اصطحاب من لم يُدْع، بل قد يستحب، ويكون سبباً في إفراح الداعي خصوصاً إذا كان ذلك الذي حضر من غير دعوة من أحباب الداعي، وممن انقطعتْ عنه أخباره، أو أن يكون قادماً من سفر، أو أن يكون ممن يسمع عنه ولم يره من قبل؛ فمثل هذه المسوغات لا يُمنع معها اصطحاب المدعوِّ مَنْ لم يُدْعَ.

---

(١) كتاب التطفيل وحكايات الطفيليين، وأخبارهم، ونوادر كلامهم وأشعارهم، للخطيب البغدادي، حققه وكتب الدراسة، وعلق عليه د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان ص٦٧.

(٢) انظر المرجع السابق ص٦٧.

(٣) انظر المرجع السابق ص٦٧ـ٦٩.

ومثل ذلك أن يرد على الضيف المدعوِّ ضيفٌ طارئ لم يكن في حسبانه، فيحار الضيفُ المدعوُّ؛ هل يعتذر من داعيه؟ أو يصحب ذلك الضيف الطارئ إلى ضيافة داعيه؟

والحقيقة أن ذلك مما تختلف فيه الأنظار، ويراعى فيه مقتضيات الأحوال.

وذلك راجع إلى ألمعية الإنسان، وحسن نظره، وتقديره للأمور؛ فينزل كل حالة ما يناسبها.

الرابعة والثلاثون: حضور من لم يُدْعَ أصلاً

وهذا قريب مما جاء في الفقرة الماضية، ولكن الأول جاء بصحبة مدعوٍ، والآخر جاء من غير دعوة أصلاً، وإنما لسماعه، أو علمه بتلك المناسبة.

والأمر في هذا يحتاج إلى تفصيل؛ فلا يذم مطلقاً، ولا يمدح مطلقاً؛ فقد يكون مذموماً كحال من يتطفل[1] بالمجيء إلى مكان الضيافة، أو أن ينتظر قريباً من مكان الضيافة، فإذا تكامل عدد المدعوِّين هجم عليهم هجوم الليل إذا يغشى.

ومن هنا قد يوقع صاحب الدعوة والمدعوين في الحرج الشديد؛ إذ قد يكون ثقيلاً غير مرغوب فيه، وقد يقطع عليهم ما هم بصدده، مما اجتمعوا من أجله، وقد يحصل سوء الظن من المضيِّف وأضيافه ـ خصوصاً إذا كانت المناسبة محصورة ـ حيث يظن المضيِّف أن أضيافه، أو أحدهم دعا ذلك الشخص، وهم يظنون أن المضيِّف هو الذي دعاه، ومن هنا يقع سوء الظن، ويتكدر المجلس ببركة ذلك الثقيل البارد الطبع؛ فهذا الحضور، وأمثاله داخل في قبيل الذم.

وقد عقد الخطيب البغدادي في كتابه (التطفيل) باباً سماه: (باب التغليظ على من أتى طعاماً لم يُدْعَ إليه) وساق تحته جملة من الآثار في هذا السياق[2].

---

(١) يتطفل: من التطفيل، والكلام في ذلك عن أئمة اللغة يطول، وحاصله: أن المتطفل: هو الطفيلي: وهو الداخل على القوم من غير أن يُدعى؛ مأخوذ من الطفيل، وهو إقبال الليل على النهار بظلمته؛ فسمي الجائي بدون دعوة طفيلي؛ لأن أمره يُظْلِم على القوم؛ فلا يدرون من دعاه، ولا كيف دخل إليهم، وسمي بهذا الاسم ـ أيضاً ـ نسبةً إلى رجل من الكوفة يقال له: طفيل العرائس.

أما أول من طفّل فهو الطّفيل بن زلال. انظر كتاب التطفيل ص٢٨ـ٢٩، و٦١ـ٦٣.

(٢) انظر كتاب التطفيل ص٧٥ـ٨٣.

وعقد باباً آخر (فيمن ذم التطفيل وأصحابه، وهجا به غيره وعابه)[١].

أما إذا كانت المناسبة عامة، أو كان مجلس المضيِّف مفتوحاً لكل ضيفٍ قادم، أو كان الجائي بغير دعوةٍ ممن يُفرح بمقدمه، وحضوره، وهو يعلم ذلك تماماً، ويثق بأن حضوره سيفرح المضيِّف، والأضياف، وأنه سيضفي على المجلس أنساً وسروراً ـ فلا بأس أن يأتي، ولو لم يَدْع.

بل قد يكون حضوره ـ والحالة هذه ـ أبلغ في تواضعه، وحسن صلته.

وإذا حضر مثل هذا فعلى المضيِّف أن يظهر الفرح به، والشُّكْرَ له، وأن يشعره بموقع ذلك الحضور عنده؛ حتى ينفي عنه الوحشةَ، والشعورَ بالثقل.

ومما يذكر في هذا ما رواه الخطيب في كتابه التطفيل أن عبدالله بن جعفر ـ وهو من الأجواد المعروفين ـ مَرَّ ومعه عدة من أصحابه بمنزل رجل قد أعرس، وإذا مغنيته تقول:

قل لكرام ببابنا يَلِجُوا ... ما في التصابي على الفتى حرجُ

فقال عبدالله لأصحابه: لِجُوا؛ فقد أذن لنا القوم؛ فنزل، ونزلوا، فدخلوا؛ فلما رآه صاحب المنزل تلقَّاه، وأجلسه على الفراش، فقال للرجل: كم أنفقت على وليمتك؟

قال: مائتي دينار.

قال: فكم مهر امرأتك؟ قال: كذا، وكذا؛ فأمر له بمائتي دينار، ومهر امرأته، وبمائة دينار بعد ذلك معونة، واعتذر إليه، وانصرف[٢].

وذكر الخطيب بعد ذلك جملة من الأخبار في هذا الباب[٣].

---

(١) انظر كتاب التطفيل ص ٨٥ـ٩٢.

(٢) كتاب التطفيل ص٩٧.

(٣) انظر المرجع السابق ص٩٧ـ١١٣.

الخامسة والثلاثون: إحراج المضيِّف بكثرة الأسئلة، وفضولها

فبعض الضيوف لا يأنف من ذلك؛ لثقل طبعه، وكزازة خُلقه؛ فتراه إذا حضر مناسبة أمطر على المضيِّف وابلاً من الأسئلة التي لا داعي لها؛ فربما سأله عن بيته متى بناه، وعن مجلسه كيف عمِله، وعن طعامه كيف صنعه.

وأقبح ما في ذلك أن يسأله: هل دعوت فلاناً إلى هذه المناسبة؟ أو لماذا لم تدْعُ فلاناً؟ وهل بينك وبينه شيء؟

أو أن يقول: هل أتصل على فلان لأدعوه إلى المناسبة؟

فإن قال المضيف: لا، وقع في الحرج، وإن قال: نعم فقد يقولها مجاملة، وهو غير راغب في مجيء ذلك الشخص الذي اقترحه ذلك الضيف الثقيل.

وقد «حكي أن ثقيلاً دخل على بعضهم، فرأى عنده قصعةً مغطاةً بمنديل؛ فسأله: عما فيها؟ فقال له الرجل: ولماذا غطَّيتُها؟!»[(١)].

ولا ريب أن ذلك فضول قبيح، وثقل بارد؛ ودخول فيما لا يعني، وقد قال -عليه الصلاة والسلام-: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[(٢)].

ولا يعني ذلك ألا يسأل الضيفُ مضيِّفه عن أي شيء؛ إذ إن ذلك نوع جفاء.

وإنما المقصود أن تكون أسئلته لطيفة، خفيفة على النفس لا تحرك كامناً، ولا تذكي عداوة، ولا تثير غضباً؛ فالسؤال دليل على عقل صاحبه، وذوقه، وعلمه، كما مر عند الكلام على مراعاة الضيف لذوق السؤال.

---

(١) أخبار الثقلاء والمستثقلين ص١٣.

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧) وابن ماجه (٣٩٧٦).

السادسة والثلاثون: أدب مجلس الضيافة

وذلك باب واسع، والكلام فيه يبدأ، ولا يكاد ينتهي، ولو أُفرد الكلام عليه برأسه في مؤلف واحد لكان جديراً به[١].

والكلام فيه **شامل لأدب** المضيف، والضيف، وسائر المدعوين ممن يكونون في مجلس الضيافة؛ إذ هو يضمهم جميعاً، وتدور فيه حواراتهم، وسائر أحاديثهم.

لذا كان **للمجالس عند العرب** في الجاهلية والإسلام مكانة سامية؛ فهي منابع الحكمة، وميادين المكارم، والمروءات.

وقد أعرب كثير من الشعراء عما كان في مجالس العرب من سكينة، ووقار وحسن أدب، ومحادثات تعود على الإنسان بما فيه سعادته، وصلاح أمره[٢].

ومن ذلك ما أشار إليه زهير بن أبي سُلْمى في مدحه لآل سنان، حيث قال في وصف مجالسهم، وما كانت عليه من الجلال، والجمال:

وفيهم مقاماتٌ[٣] حِسانٌ وجوهُهُم ... وأنديةٌ ينتابها[٤] القولُ والفعلُ

وإن جئتهم ألفيتَ حولَ بيوتهم ... مجالسَ قد يشفى بأحلامها الجهلُ

ثم يبين أن ذلك مما ورثوه كابراً عن كابر، فيقول:

---

(١) وقد يسر الله لي أن كتبت في ذلك كتاباً عنوانه: (أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة) وقد صدر عام ١٤١٦هـ، ثم استجد لي أمور كثيرة في ذلك.

(٢) انظر عادات عربية ص١٠٨.

(٣) المقامات: المجالس.

(٤) ينتابها: يقصدها.

وما كان من فضل أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل

ثم يبين أن الشيء من معدنه لا يستغرب، فيقول:

وهل ينبت الخطيُّ إلا وشيجُه وتغرس إلا في مواطنها النخل[١]

يعني أن النخل لا يغرس إلا بحيث ينبت ويصلح، وكذلك الكرام لا يولدون، ولا يَنْشَؤُون إلا في موضع كريم.

وقال طرفة بن العبد يمدح قوماً:

يَزَعُون الجهل في مجلسهم وهمُ أنصار ذي الحلم الصمد[٢]

ومعنى: (يَزَعُون): يكفُّون، و (الجهل): السفه.

يعني أن مجالسهم لا يُتكلم فيها بالكلام المنافي للآداب.

وقوله: (وهم أنصار ذي الحلم الصمد): أي السيد الذي يُصمد إليه في الحوائج، أي يُقصد، يعني أنهم يعينون ذا المروءة على مروءته.

وقال طرفة -أيضاً- واصفاً مجلس قومه:

نَزَعُ الجاهل في مجلسنا فترى المجلس فينا كالحرم[٣]

أي لا يتكلم فيه بأذى، ولا بخناً، وقوله (كالحرم): أي كحرم مكة زادها الله تشريفاً[٤].

وقال عمرو بن الإطنابة، وهو أحد مَنْ ملك الحجاز في الجاهلية:

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٦٢-٦٣.

(٢) ديوان طرفة بن العبد ص ٤٣.

(٣) ديوان طرفة ٩١.

(٤) انظر عادات عربية ص١٠٨.

إنـي مـن القـوم الـذين إذا انتـدوا بـدأوا بحـق الله ثـم السـائل
القـائلين فـلا يعـاب كلامهـم يـوم المقامـة بـالكلام الفاصـل

قوله (إذا انتدوا): أي جلسوا في ناديهم.

و(المقامة): المجلس؛ يريد أن قومه إذا تكلموا في مجلس فَصَلُوا بين الحق والباطل[1].

فهذا شيء من وصف مجالس العرب، التي يعدونها من مفاخرهم.

أما مجلس رسول الله ﷺ فهو خير مجلس، وأعظم مجلس عرفته البشرية؛ فقد جمع الآداب من أطرافها.

وكيف لا يكون مجلس يحتلُّه رسول الله ﷺ ميداناً تتسابق الآداب فيه إلى غاياتها، وجوًّا ترفرف فيه الكمالات راقية إلى سماواتها؛ فإن صاحبه هو الذي أدَّبه ربه بأحسن تأديب، وجلساءه هم أولئك الغر المناجيب؟[2].

هذا وسيتضح في فقرات قادمة جملة من آداب المجلس الرسولي، وآداب مجالس الضيافة عموماً، وما يعتريها من آفات.

---

(١) انظر المرجع السابق ص١٠٩.

(٢) انظر مقال مجلس رسول الله ﷺ للطاهر بن عاشور في الهداية في الإسلام ١٠/٥٩٥.

السابعة والثلاثون: التفسح في مجلس الضيافة

فالتفسح في المجلس أدب قرآني عظيم، وهو دليل على سعة النفس، وكرم السجية، والبعد عن الأثرة.

قال الله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحْ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المجادلة: ١١).

قال غير واحدٍ من المفسرين عن مقاتلٍ وقتادةَ وزيدِ بنِ أسلم: كان النبيﷺ يجلس في المسجد فجلس يوماً وكان في المجلس ضيق؛ إذ كان الناس يتنافسون في القرب من رسول الله ﷺ وفي سماع كلامه، والنظر إليه، وكان رسول اللهﷺ يكرم أهل بدر، فجاء أناس من أهل بدر، فلم يجدوا مكاناً في المجلس، فقاموا وجَاءَ النبي ﷺ على أرجلهم يرجون أن يوسع الناس لهم، فلم يوسع لهم أحد، فأقام رسول الله ﷺ أناساً بقدر من جاء من النفر البدريين، فعرف رسول اللهﷺ الكراهية في وجوه الذين أقامهم، فنزلت الآية.

فقوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾: فيما إذا كان في المجلس ضيق؛ فيتفسح الناس بدون أن يقوم أحد.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾: أي إذا قيل لكم ارتفعوا، وقوموا عن المجلس فافعلوا؛ أي إذا أمركم الرسول ﷺ في مجلسه بالقيام فلا تتحرجوا، وهو ضرب من التفسح.

وقيل: التفسح يكون بالتوسعة من قعود أو من قيام، فهما داخلان في قوله: (تفسحوا).

والنشوز هو أن يؤمروا بالانفضاض عن المجلس، فإذا أمروا بذلك فلا يتحرجوا؛ لأن رسول الله ﷺ يحب ـ أحياناً ـ الانفرادَ بأمور المسلمين؛ فربما جلس إليه القوم، فأطالوا؛ لأن كل أحد يحب أن يكون آخر الناس عهداً بالنبي ﷺ وكل ذلك من فرط محبتهم إياه، وحرصهم على تلقي هداه[1].

هذا وإن من الآفات التي تعتري المجالس قلةَ التفسح فيها؛ فهناك من إذا جلس مجلساً أخذ فيه مكاناً واسعاً؛ لأجل أن ينعم بالراحة، ويسلم من المضايقة.

فقلة التفسح في المجالس خلق ذميم، ومسلك شائن، فهو ناتج عن ضيق في النفس، وقلة مبالاة في الآخرين.

بل إن بعضهم قد يُوسَّع له في المجلس، فيأتي، ويتربَّع، ويأخذ مساحة واسعة في المجلس، بل ربما لا يرضى أن يأتي أحدٌ بعد ذلك بجانبه.

قال بعض الحكماء: «رجلان ظالمان يأخذان غير حقهما: رجل وُسِّعَ له في مجلس ضَيِّقٍ؛ فَتربَّع، وتفتّح، ورجل أهديت له نصيحة فجعلها ذَنْباً»[2].

ولهذا أدبنا الله ـعز وجلـ بأن نتفسح في المجالس؛ لما في ذلك من زرع للمحبة، وتوثيق لعرى الأخوة، وتَخَلُّصٍ من الأخلاق الذميمة، كما جاء في الآية السابقة، وهي قوله ـتعالىـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ (المجادلة: ١١).

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسيره هذه الآية: «هذا أدب من

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير ٢٧/٣٦ـ٤٢، والهداية الإسلامية ١٠/٥٩٤ـ٥٩٥.

(٢) بهجة المجالس ١/٤٧.

الله لعباده إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم، أو بعض القادمين للتفسح له في المجلس ـ فإن من الأدب أن يفسحوا له؛ تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للفاسح شيئاً، فيحل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه.

والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح لأخيه فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه»[(١)].

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «مما يُصَفِّي لك ودَّ أخيك أن تبدأه بالسلام إذا لقيته، وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه، وأن توسع له في المجلس»[(٢)].

وقال الأصمعي: «كان الأحنف إذا أتاه إنسان وسَّعَ له، فإن لم يجد موضعاً تحرك؛ ليريه أنه يوسع له»[(٣)].

ومن التفسح في المجلس إذا ضاق، ولم يجد القادم ما يجلس فيه ـ أن يتنازل بعض الجالسين عن بعض ما يتَّكِؤون عليه؛ ليجد القادم مكاناً يجلس فيه.

ومن ذلك أن يلتم بعضهم إلى بعض؛ حتى يتسع المجلس لأكبر عدد ممكن.

بل من التفسح الجميل ما كان مقروناً بالإيثار؛ كأن يَقْدُم ذا مكانة إلى مجلس، فلا يجد مكاناً؛ فيقوم أحد الحاضرين بنفس راضية، وجبين مشرق، وكلمات عذبة؛ فيعزم عليه أن يجلس في مكانه.

وهذا الصنيع مما يزيد في المودة، ويفعل فِعْلَه في نفوس من يقدرون المكارم قدرها.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣١٦/٧.

(٢) أدب المجالسة ص٣١.

(٣) عيون الأخبار ٣٠٦/١، وبهجة المجالس ٤٨/١.

قال الطبراني في مكارم الأخلاق: «حدثنا عبدالله بن الحسين المِصِّيصي، ثنا الحسين بن محمد المرُّوذي، ثنا سليمان بن قرم عن رشدين بن كريب عن أبيه عن ابن عباس قال: «(ثلاثة لا أقْدِر على مكافأتهم، ورابع لا يكافيه عني إلا الله -عز وجل- فأما الذي لا أكافئهم فَرَجُلٌ وسع لي في مجلسه، ورجل سقاني على ظمأ، ورجل اغبرَّت قدماه في الاختلاف على بابي.

وأما الرابع الذي لا يكافئه عني إلا الله فَرَجُلٌ عرضت له حاجة؛ فظل ساهراً متعكراً بمن ينزل حاجته؛ فأصبح، فرآني موضعاً لحاجته؛ فهذا لا يكافئه عني إلا الله -عز وجل- وإني لأستحي من الرجل أن يطأ بساطي ثلاثاً لا يُرى عليه أثرٌ من أثري»[1].

وأذكر أن أحد أهل الفضل ممن له جلال السن، والعلم جاء إلى مجلس ضيافة، فوجده مكتظاً، وأكثرُ الحاضرين لا يعرفونه؛ فقام بعض من يعرفه؛ ليجلس مكانه؛ وسبقهم إليه صاحب الضيافة، وأجلسه في مكانه في صدر المجلس، وجلس -أي صاحب الضيافة- في أحد أطراف المجلس.

فلما انفض السامر اتصل ذلك الضيف العالم، وقال للمضيِّف: ما ذا صنعتَ بي؟

فقال: لا أدري؛ فقال: لا أنساها لك ما حييت؛ كيف تقوم من مكانك الخاص، ثم تؤثرني به؟!

---

(١) مكارم الأخلاق (١٩٠).

الثامنة والثلاثون: الرزانة في مجلس الضيافة

فمن أعظم آداب مجلس الضيافة رزانة أصحابه، ووقارهم، وحفظهم لكرامة الجليس، وترفعهم عما ينافي أدب المجلس من طيش، وحماقة، ورفعِ أصواتٍ بلا داع، ونهش لأعراض الناس، وانتهاك لحرماتهم، وثِقَلٍ على الآخرين، وتتبع لزلاتهم؛ فذلك دليل العقل، والديانة، والمروءة.

ولقد **كان من آداب مجلس نبينا محمد** ﷺ أن أصحابه يكونون فيه على غاية التؤدة والسكينة؛ فقد روى أبو داود في سننه عن أسامة بن شريك قال: «أتيت النبيﷺ وأصحابُه **كأنما على رؤوسهم الطير**»[1].

ومعنى «كأنما على رؤوسهم الطير»: أي أنهم في حالة السكون؛ لأن الطائر ينفر من أدنى تحرك، فقد جاء في وصف مجلسه -عليه الصلاة والسلام- أنه مجلس وقار، وحلم، وحياء، وخير، وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرَمُ، ولا تثنى فلتاته.

ومعنى: (لا تؤبن فيه الحُرَم): أي لا تذكر فيه حرمات الناس بسوء، يقال: أَبَنَهُ إذا ذكره بسوء.

والمراد بالحرم هنا: أعراض الناس، وما يحرِّمون تناوله منهم.

ومعنى: (لا تثنى فلتاته): لا تعاد، مأخوذٌ من التثنية وهي الإعادة.

والفلتات جمع فلتة، وهي الزلة من القول والفعل إذا جرت على غير قصد بغتةً؛ يعني أن أهل ذلك المجلس أهلُ حفظ للسر، وإعراضٍ عن اللغو، فلو صدرت من أحد فلتة لم يتناقلها جلساؤه بالتسميع والتشنيع.

---

(١) أبو داود (٣٨٥٥).

وهذا أدب عربي رفيع، وفي هذا المعنى قال ودَّاك بن ثميل من شعراء الحماسة:

وأحلامُ عادٍ لا يخاف جليسهم ... إذا نطق العوراءَ غربُ لسان

إذا حُدِّثوا لم يخشُ سوء استماعهم ... وإن حَدَّثوا أدّوا بحسن بيان[1]

وقال آخر في وصف جليس:

جليس لي أخا ثِقَةٍ ... كأن حديثَه خَبره

يَسُرُّك حسن ظاهره ... وتحمد منه مُختبره

ويستر عيبَ صاحبه ... ويستر أنه سَتَرَه[2]

ومن آداب ذلك المجلس أن أصحابه لا يقاطعون الرسولﷺ إذا تكلم، وإذا سكت تكلموا، وإذا تحدثوا عنده لم يختلفوا، ولم يتخاصموا، وإن تخاصموا لم يطل وقت الخصام.

ومن أراد الكلام أنصتوا، واستمعوا له حتى يفرغ من كلامه.

وكان آخر من يتكلم عند النبيﷺ له نفس حظ أول المتكلمين من الإنصات والاهتمام.

وكان -عليه الصلاة والسلام- يضحك مما يضحكون، ويعجب مما يعجبون إذا كان في حدود الأدب.

وكان يصبر على الغريب إذا جفاه في مقاله وسؤاله، حتى إن أصحابه قد لا يرضون ذلك، ولكنهم لا يتقدمون بين يديه -عليه الصلاة والسلام- ولا يتجاوزون ما علمهم من الصبر، والرحمة، وإعانة طالب الحاجة على طلبه.

---

(١) المنتقى من مكارم الأخلاق للخرائطي، انتقاء أبي الطاهر السلفي ص١٤٨.

(٢) بهجة المجالس ١/٤٥.

ولهذا كان جلساؤه يتواصون بالتقوى، ويحفظون المروءات في مجلسه، فيوقِّرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويتعَطَّفون على الغريب، ويحتملون جفوته، بل ربما علموه بعض آداب ذلك المجلس قبل دخولهم فيه.[١]

يقول الشيخ عبدالحي الكتاني رحمه الله في كتابه التراتيب الإدارية: «وفي تفسير المولى أبي السعود الحنفي: كان أبو بكر رضي الله عنه إذا قدم على رسول الله ﷺ الوفود أرسل من يعلمهم كيف يسلمون، ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ» اهـ.

قلت -أي الكتاني-: وهذا يُفْهِمُنا -أيضاً- أن أبا بكر يشغل -أيضاً- وظيفة مدير التشريفات».[٢]

وهكذا كانت مجالس الأكابر التي يُتَمَدح، ويُفَاخر بها، قال أحد الشعراء يصف مجالس بعض الرؤساء:

إذا انتدى واحتبى بالسيف دان له ... شوس الرجال خضوع الجرب للطالي

كأنما الطير منهم فوق هامتهم ... لا خوف ظلم ولكن خوف إجلالِ[٣]

أراد أن مجالسهم مهيبةً، وأن حاضريها يتوقَّرون، ويسكنون؛ فكأن على رؤوسهم الطير.

---

(١) انظر أوصاف النبي ﷺ للترمذي ص٢٨٠-٢٨٢، والشفا ١/٢٠٦، وشرح الشفا ١/٢٧٢، وأخلاق النبي ﷺ للأصبهاني ص٢٣-٢٧، والهداية الإسلامية ١٠/٥٩٦-٥٩٧.

(٢) نظام الحكومة النبوية المسمى: التراتيب الإدارية للكتاني ١/٣٩.

(٣) انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/٢٨٥.

وقال الآخر يمدح رجلاً بالكرم والاحتفاء بكرامة جلسائه، وتوقير مجلسهم:

فتى مثل ضوء الماء ليس بباخل ... بخير ولا مهدٍ ملاماً لباخل

ولا قائلٌ عوراءَ تؤذي جليسه ... ولا رافعٌ رأساً بعوراءِ قائل

ويعني بالعوراء: الكلمة القبيحة، أراد أنه لا يؤذي من يجلس إليه، ولا يُسْمِعُه ما يكره.

ولا مظهرٍ أحدوثةَ السوءِ مُعْجَباً ... بإعلانها في المجلس المتقابل

والأحدوثة: ما يُتحدث به؛ يعني أن ممدوحه إذا جلس مع قوم راعى مجالسهم؛ فلا يحدِّثهم بحديث سَيِّئ؛ كغيبة، أو نميمة، أو غير ذلك من الكلام المنافي للآداب والحشمة[١].

وكان كليب إذا جلس في ناديه لم يرفع أحدٌ طرفه، ولا ينطق بكلمة؛ إجلالاً له[٢].

ومدح رجلٌ رجلاً، فقال: «له نفس عن العوراء محظورة، وعلى الموالي مقصورة»[٣].

وقال كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار:

حبيب إلى الزُّوَّار غِشْيانُ بيته ... جميل المحيا شبٌّ وهو أديب

إذا ما تراءاه الرجال تحفظوا ... فلم تُنْطَقِ العوراءُ وهو قريب[٤]

---

(١) انظر عادات عربية ص١٠٩.

(٢) انظر جمع الجواهر ص٧٩.

(٣) المنتخب والمختار في النوادر والأشعار لابن منظور ص١٤٩.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٦٨.

وقال كثير عزة يمدح عبدالعزيز بن مروان، ويذكر نزاهة مجلسه، وما كان فيه من هيبةٍ ووقار:

وما صحبتي عبدَالعزيزِ ومِدْحتي ... بعاريةٍ يرتدُّها من يُعِيرها

فلا هاجراتُ القول يُؤثَرْنَ عنده ... ولا كلماتُ النُّصح مُقْصىً مُشِيرُها[1]

وقال الفرزدق يصف مجالس قومه:

وما حُل من جهل حُبى[2] حلماتنا ... ولا قائلٌ بالعُرف فينا يُعَنَّف

وما قام منا قائم في نَدِيِّنا ... فينطق إلا بالتي هي أعرف[3]

أي إذا نطق منا ناطق في مجلس جماعة عُرِفَ صوابُ قولِه؛ فلم تردَّ مقالته[4].

وقال أبو فراس الحمداني يصف مجلس قومه:

إذا مررت بواد جاش غاربه ... فاعقل قلوصك وانزل ذاك وادينا

وإن عَبَرْتَ بنادٍ لا تطيف به ... أهل السفاهة فاجلس ذاك نادينا[5]

---

(١) عادات عربية ص١٠٩-١١٠.

(٢) الحُبى: جمع حُبوة بكسر الحاء وضمها، من الاحتباء: وهو أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره، ويشد عليها، وقد يكون الاحتباء بالعمامة أو اليدين عوض الثوب، ويقال: احتبى الرجل إذا جمع ظهره وساقيه بثوبه، أو يديه، أو عمامته؛ فإذا قام قالوا: حَلَّ حُبوته. انظر: لسان العرب ١٦١/١٤.

وكان الاحتباء أكثر جلوس العرب، قال كعب بن سعد الغنوي في رثاء أخيه أبي المغوار:

لقد كان أما حِلْمُه فمروَّحٌ ... علينا وأما جهله ففزيب

حليمٌ إذا ما سورةُ الجهلِ أطلقت ... حُبى الشَّيْب للنفس اللجوج غلوبُ

(٣) ديوان الفرزدق، دار بيروت ٢٩/٢.

(٤) انظر عادات عربية ص١١٠.

(٥) شرح ديوان أبي فراس الحمداني ص١٠٥.

يعني أن مجالسهم لا يُلِم بها أهل السفه، والطيش، ولا يقربونها؛ فلا غرو -إذاً- أن كانت تلك المجالس مدارس يتلقى فيها العلم، والحلم، وسائر المروءات.

فهذا الأحنف بن قيس -وهو سيد من سادات الحلم، والفضل، والرأي- يقول مبيناً كيف تعلم الحلم: «كنا نختلف إلى قيس بن عاصم نتعلم منه الحلم، كما نتعلم منه الفقه»[1].

وما ذلك إذا لرزانة قيس بن عاصم ﷺ وحلمه، وسكينة نفسه.

وقد ذكر ابن قتيبة رحمه الله أن الأحنف شهد موقفاً من تلك المواقف التي تعلمها من مجلس قيس بن عاصم؛ حيث قال: «قيل للأحنف بن قيس: ما أحلمك!

قال: تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقري، بينا هو قاعدٌ بفنائه، محتبٍ بكسائه أتته جماعة فيهم مقتول، ومكتوف، وقيل له: هذا ابنك قتله ابنُ أخيك!

فوالله ما حل حُبوته حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابن له في المجلس، فقال له: قم فأطلق عن ابن عمك، ووارِ أخاك، واحمل إلى أمه مائة من الإبل، فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

إني امرؤ لا شائن حسبي ... دنسٌ يغيِّره ولا أفن[2]

من منقر في بيت مكرمة ... والغُصْنُ ينبت حوله الغصن

خطباءُ حين يقول قائلهم ... بيض الوجوه أعفةٌ لَسْنُ

لا يَفْطَنون لعيب جارهمُ ... وهمُ لحفظِ جِواره فُطُنُ

---

(١) العفو والاعتذار لأبي الحسن محمد بن عمران المعروف بابن الرقام البصري، تحقيق د. عبدالقدوس أبو صالح ص٥١٣-٥١٤.

(٢) الأفن: النقص.

ثم أقبل على القاتل فقال: قتلت قرابتك، وقطعت رحمك، وأقللت عدوك، لا يبعد اللّه غيرك»[١].

وهذا ما استحق به قيس بن عاصم أن يرثيه عبدة بن الطبيب بمرثيته المشهورة، ومنها قوله:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

تحيةَ مَنْ ألبسته منك نعمةً إذا زار عن شَحْطٍ بلادك سلّما

وفيها بيته الشارد:

وما كان قيس هلكُه هلكُ واحدٍ ولكنه بنيان قوم تهدّما[٢]

ولا يعني ما مضى من لزوم الرزانة في المجلس أن يتكلف الإنسان الهيبة، ويظهر التوقر، ويتزيًّا بغير طبعه؛ فإن ذلك ممقوت، مذموم مستثقل.

والمجالس لا ينبغي أن تكون كذلك، بل لابد أن تكون مُؤْنِسَةً، مسعدة، مشتملة على ما يفيد، ويمتع، وينفي الملل، ويطرد السآمة.

والرزانة، والهيبة، والوقار، لا تنافي البساطة، والتواضع، والإيناس؛ فالأكابر يجمعون بين ذلك دون تنافٍ، أو تناقض.

وسيد الأكابر محمد ـعليه الصلاة والسلامـ كان أرزن الناس، وأهيبهم، وأوقرهم.

وهو ـفي الوقت نفسهـ أشدّهم تواضعاً، وآنسهم مجلساً.

وهذا ما سيتبين في الفقرة التالية.

---

(١) عيون الأخبار ١/٢٨٦ـ٢٨٧.

(٢) انظر عيون الأخبار ١/٢٨٧.

التاسعة والثلاثون: المزاح في مجلس الضيافة

فقد مر في الفقرة الماضية أن من آداب مجلس الضيافة لزومَ الرزانة، وأن ذلك لا يعني تكلف التوقر، وإظهار الهيبة.

والحديث ههنا عن أدب من آداب مجلس الضيافة ألا وهو المزاح فيه؛ فالمزاح في مجلس الضيافة، والاعتدال فيه، ومراعاة الذوق العام، وذوق مجلس الضيافة - على وجه الخصوص - لا ينافي الرزانة والحشمة، بل هو نوع من التواضعِ، ورفعِ الكلفة، وإدخالِ السرور على الحاضرين؛ فذلك هو المزاح المحمود.

ولقد بعث النبي ﷺ بالحنيفية السمحة، ورُفِع عن أمته الحرجُ والآصار والأغلال.

وكان -عليه الصلاة والسلام- يمزح، وكان لا يقول إلا حقاً.

وما زال الأشراف والأكابر يمزحون، ويسمحون، ويحتسبون إدخال السرور على أنفسهم وعلى من حولهم بما لا يقدح في أديانهم، ولا يغض من مروآتهم، ولا يجرح إحساساتِ من يمازحونهم.

وكتب الصحاح، والسنن، والمسانيد، والأدب، والسير، والتواريخ، والأخبار - حافلة بهذا الشأن، مبينة ما يليق منه وما لا يليق.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «روحوا القلوب بطرائف الحكم؛ فإنها تمل كما تمل الأبدان».

وكان رجل يجالس أصحاب النبي ﷺ ويحدثهم، فإذا أكثروا، وثقل عليه الحديث قال: «إن الأذُنَ مَجَّاجة، وإن القلوب حَمِضة؛ هاتوا من أشعاركم وحديثكم».

وقال أبو الدرداء ﷺ: «إني لأَجُمُّ نفسي بشيء من الباطل؛ كراهة أن أحَمِّلَها من الحق ما يُملُّها».

وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يحدِّث أصحابه ساعة، ثم يقول: «حَمِّضونا، فيأخذ في أحاديث العرب، وأشعارها، ثم يعود يفعل ذلك مراراً».

ومثله عند الزهري، ومالك، وابن دينار ـرحمهم الله.

وَوُصِفَ رجلٌ عند ابن عائشة، فقيل: هو جِدٌّ كله؛ فقال ابن عائشة: «لقد أعان على نفسه، وقصَّر لها طول المدى.

ولو فكَّهها بالانتقال من حال إلى حال لنفَّس عنها ضِيْقَ العُقَد، ورجع إلى الجِدِّ بنشاط».

وقال أحدهم:

أروّح القلب ببعض الهزْلِ ... تجاهلاً مني بغير جهْلِ

أمزح فيه مَزْحَ أهلِ الفضلِ ... والمزحُ أحياناً جِلاءُ العقلِ

قال الخليل بن أحمد رحمه الله: «الناس في سجن ما لم يُمازِحوا».

وقال قبيصة بن عقبة السُّوائي الكوفي: «كان سفيان الثوري مَزَّاحاً، ولقد كنت أجيء إليه مع القوم؛ فأتأخر خلفهم؛ مخافة أن يحيرني بمزاحه».

ثم إن الأكابر إذا مزحوا لم يجرحوا، ولم يُسِفّوا، ولم يسيؤوا.

وإذا شعروا بشيء من ذلك بادروا إلى الاعتذار، وإذا ابتدروا أحداً بالمزاح تحملوا ما يقال لهم، وما يُرَدُّ به عليهم؛ بل ربما قابلوا ذلك بالسرور والارتياح.

وللخليفة معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ أخبار في ذلك يطول ذكرها، وقد أورد ابن عبد البر في بهجة المجالس طرفاً منها.

قال معاوية لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم، فقال ابن عباس: وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم».

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب ـرضي الله عنهماـ: «أين ترى عَمَّك أبا لهب؟ قال: في النار، مفترشاً عَمَّتك حمّالة الحطب».

وكانت أم جميل امرأة أبي لهب بنت حرب بن أمية بن عبد شمس.

ودخل الأحنف بن قيس التميمي على معاوية بن أبي سفيان يوماً، فقال: يا أحنف! ما الشيء الملفَّف في البِجاد؟ يُعَرِّض له بقول الشاعر:

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم ... فَسرَّك أن يعيش فَجِئْ بِزادِ
بخبزٍ أو بتمرٍ أو بسمنٍ ... أو الشيء المُلفَّفِ في البجاد
تراه يطوفُ في الآفاق حِرْصاً ... ليأكُلَ رأسَ لقمانِ بنِ عادِ

والشيء الملفف في البجاد: وطب اللبن.

فعلم الأحنف ما أراد معاوية بتعريضه، فقال: الشيء الملفف في البجاد هو السخينة يا أمير المؤمنين.

وذلك أن قريشاً كانت تعيَّر بأكل السخينة، وهي حَساء من دقيق كانوا يصنعونها عند المسغبة، وغلاء السعر.

وقال معاوية لرجل من أهل اليمن: ما كان أحمق قومك حين قالوا: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] أما كان جمع الشمل خيراً لهم؟

فقال اليماني: قومك أحمق منهم، حين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

أفلا قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه[١].

ثم إن الأكابر يدركون وزن المزاح؛ فيرون أن للهزل أوقاتاً تليق به، ومقداراً لا يحسن تجاوزه، فإذا استعمل في موضعه، ولم يتجاوز قدره ـ كان نافعاً مسعداً.

فالمزاح جد ـكما يقول الجاحظـ إذا اجْتُلِبَ؛ ليكون علة للجد، وإن البطالة وقار ورزانة إذا تُكلِّفت لتلك العاقبة؛ فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه، وكذلك المنع، والبذل، والعقاب والعفو، وجميع القبض والبسط.

فإذا حمد المزاح ففيه ما يحمد، وإذا ذم ففيه ما يذم[٢].

يقول الحصري القيرواني مبيناً ما ينبغي أن يكون عليه المزاح من المراعاة:

«ولاختيار المطايبات، والمداعبات، وما انخرط في سلكها من الملح، والمزح أصول لا يخرجُ فيها عنها، وفصول لا يُخْرج بها منها، وقد يستندر الحار المنضج، والبارد المُثلج؛ لأن إفراط البرد يعود به إلى الضد»[٣].

ومن خلال ما مضى يتبين أن **المزاح ليس على وتيرة واحدة**، وأنه ليس مذموماً بكل حال، وأن المحمود منه ما روعي فيه الوقت، والحال، والشخص، والقدر.

أما إذا لم يراعَ فيه ذلك دخل في المذموم، ونُزِّل عليه جميع ما ورد في ذم

---

(١) انظر هذه الأخبار، وأمثالها في عيون الأخبار لابن قتيبة ١/٣١٥ـ٣٢٥، وجمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري القيرواني ص٢٨ـ٤٠، وبهجة المجالس ١/١١٥ـ١١٦، و٢/٥٦٧ـ٥٧٣.

(٢) انظر أمراء البيان لمحمد كرد علي ص٤٥٤.

(٣) جمع الجواهر في الملح والنوادر للقيرواني، ص٧.

المزاح من إسقاطه الهيبةَ، وإخلاله بالمروءة، وتسببه في جرأة السفهاء، بل ونقص الديانة، أو المروق منها إذا كان المزاح يتضمن سخرية في الدين، أو شيءٍ من شعائره.

وعلى ذلك تُحمل الآثار الواردة في شأن المزاح.

والمقصود أن المزاح لا ينبغي الإكثار منه، ولا الإسفاف فيه.

أما ما عدا ذلك فيحسن؛ لما فيه من إيناس الجليس، وإزالة الوحشة، ونفي الملل والسآمة.

وإنما المزاح في الكلام كالملح في الطعام، إنْ عُدِمَ أو زاد على الحد فهو مذموم.

أفد طبعك المكدود بالجد راحة ... يجم وعلله بشيء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما تعطي الطعام من الملح[1]

ولئن كانت مراعاة الاعتدال، والذوق في المزاح مطلوبة في كل مكان، ومع كل أحد - **فلهي أولى، وأحرى في مجلس الضيافة** خصوصاً إذا كان كبيراً، ويجمع أصنافاً شتى؛ إذ قد يمزح إنسان مع آخر، ولا يدري أنه أصابه بمقتل؛ فقد لا يرضى بتلك المزحة أصلاً، أو قد يكون لا يرضى أن يُمزح معه أمام ملأ، أو قد يكون في المكان من سيشمت به، إلى غير ذلك من الاعتبارات.

ثم إن الإنسان إذا مزح، ورأى أن في مزاحه ثقلاً، أو تكديراً على أحد - فلْيُمْسِك، ولا يتمادى في مزاحه.

---

(١) انظر مقال: مزاح الأكابر في كتاب ارتسامات ص٣٢-٥٠، ففيه تفصيل لذلك، وذكر لأخبار بعض علمائنا المعاصرين في ذلك الشأن كالشيخ عبدالرحمن السعدي، والشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ محمد بن عثيمين -رحمهم الله-.

هذا وإن **من أشد ما يؤذي في ذلك الباب** ما يكون من بعض الناس؛ حيث يبادر إلى المزاح، ولا يبالي أن يسرف فيه، أو يُسِفَّ، ويجرح.

وإذا عوتب قال: إنما أنا أمزح، على حد قول الأول:

لي صاحب ليس يخلو لسانه عن جراح
يجيد تمزيق عرضي على سبيل المزاح[١]

وقال خالد بن صفوان: «يُسْعِطُ أحدُكم أخاه بمثل الخردل، ويقرعه بمثل الجندل، ويُفْرِغُ عليه بمثل المرجل، ويقول: إنما كنت أمزح!»[٢].

وقال محمود الوراق:

تلقى الفتى يلقى أخاه وخِدْنه في لحن منطقه بما لا يذكرُ
ويقول: كنت ممازحاً ومداعباً هيهات نارك في الحشا تتسعرُ
أو ما علمت ومثل جهلك غالب أن المزاح هو السباب الأصغر[٣]

والمصيبة أنه إذا مُزح معه، أو رُدَّ إليه بعضُ مزاحه ـ غضب أشد الغضب، وعدَّ ذلك إهانةً له.

وهذا الضرب من الناس هم حُمىً الرَّبع، ومُكَدِّرو المجالس، وعذاب النفوس.

وإذا بليت بأحد منهم فما لك إلا الصبر حتى يأتي الله بالفَرَج، أو المخرج.

---

(١) بهجة المجالس ٢/٥٧٠ـ٥٧١.

(٢) جمع الجواهر ص٣٥.

(٣) جمع الجواهر ص٣٥.

الأربعون: الجلوس في المكان اللائق في مجلس الضيافة

وهذا الأدب من أهم آداب المجالس؛ والأخذ به دليل على كمال عقل الإنسان، وحسن نظره.

كما أن التفريط به يزري بصاحبه، ويعرضه للمواقف المحرجة، وربما أخل بنظام مجلس الضيافة.

لذا كان حريًّا بالعاقل الذي يحضر مجالس الضيافة -وخصوصاً ما كان منها كبيراً- أن يراعي ذلك الأدب، وأن يتحامى ما ينافيه.

هذا ويدخل تحت عنوان هذه المسألة جملة من الأمور التي يحسن بالإنسان مراعاتها، ومن أهمها ما يلي:

١ - الحذر من التفريق بين اثنين متجالسين دون إذنهما: فهذا العمل مما يشعر بقلة الأدب، وقلة المراعاة لمشاعر الآخرين، فقد يقطع حديثاً كان متصلاً بين اثنين، وقد يحرم صاحباً من محادثة صاحبه، وقد يثقل على المتجالسين بجلوسه بينهما، ونحو ذلك.

فهذا كله مما يولد الكراهية والمعاداة، ولأجل ذلك نُهي عن هذا العمل؛ حفاظاً على استبقاء روح المودة بين المسلمين.

أما إذا أذن الجالسان أن يُجلس بينهما فلا بأس بذلك.

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما**»[(١)].

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٢١٣، وأبو داود (٤٨٤٥)، والترمذي (٢٧٥٢) عن عبدالله بن عمرو، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وصححه أحمد شاكر في شرحه للمسند (٦٩٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٣٢).

٢ـ الحذر من إقامة الرجل من مجلسه والجلوس مكانه: فلا يليق بالرجل أن يقيم أحداً من مجلسه ثم يجلس فيه؛ لما في ذلك من الكبر والتعالي، والإزراء بالآخرين.

ولهذا جاء المنع في ذلك؛ حرصاً على علاقة المسلمين ببعض أن تشوبها شائبة؛ فعن ابن عمر ـرضي الله عنهماـ عن النبيﷺ قال: «**لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، ثم يجلس فيه**»[(١)].

قال ابن حجر رحمه الله في شرح هذا الحديث: «قال ـيعني ابن أبي جمرةـ: والحكمة من هذا النهيِ منعُ استنقاص حق المسلم المقتضي للضغائن، والحثُّ على التواضع المقتضي للموادة، وأيضاً فالناس في المباح كلهم سواء؛ فمن سبق إلى شيء استحقه، ومن استحق شيئاً، فأُخِذ منه بغير حق فهو غصبٌ، والغصبُ حرام؛ فعلى هذا يكون بعض ذلك على سبيل الكراهة، وبعضه على سبيل التحريم»[(٢)].

٣ـ الحذر من الجلوس في مكان الرجل إذا قام لحاجة: وهذا مما يحصل كثيراً في المجالس؛ فترى بعض الناس لا يأبه بغيره، فبمجرد أن يرى إنساناً قام من مكانه وهو يريد الرجوع إليه ـ يقوم؛ فيجلس مكانه مع علمه بذلك.

بل إن بعضهم إذا رأى أن صاحب المكان قد تزحزح عن مكانه قليلاً؛ ليأخذ شيئاً، أو يسلم على إنسان في المجلس وهو يريد الرجوع ـ يبادر إلى القيام من مكانه، والجلوس في مكان ذلك الذي قام؛ فإذا رجع صاحب المكان وجد أن مكانه قد أخذ.

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٨/٧، ومسلم (٢١٧٧).

(٢) فتح الباري ٦٥/١١.

وقد يتظاهر ذلك الجالس بحسن الأخلاق؛ فينادي صاحب المكان، فيجلسه بجانبه بعد أن يضيِّق عليه المكان، وقد لا يفكر في ذلك أصلاً، وقد يأنف صاحب المكان من الرجوع إلى مكانه الأول؛ إذ قد تعز عليه نفسه، ويبحث عن مكان آخر بعد أن يمتلئ غيظاً على ذلك البارد البليد.

وأذكر في مناسبة كبيرة، وكانت على شرف رجل، وفي مناسبة عامة كان له فيها يدٌ طولى، فأرغم أن يجلس في صدر المجلس، فجلس، ثم قام قليلاً عن مكانه الذي أجلسه فيه القائمون على المناسبة؛ ليُسَلِّم على أحد كبار السن؛ فما أن التفت إلا وقد قام أحد الثقلاء، وجلس فيه.

ولا ريب أن ذلك العمل مما ينافي مقاصد حضور المناسبات؛ إذ هي مدعاة للتقارب لا التنافر، والتوادد لا التباغض.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به**»[1].

٤ـ **معرفة الإنسان موقعه في كل مجلس ومناسبة**: فمن كمال أدب الإنسان، وحسن نظره أن يعرف موقعه في كل زمان، ومكان، فذلك يكفيه كثيراً من الشرور، وينقذه من وهدة السقوط في المواقف المحرجة، ويرفعه في سماء السيادة والمجادة درجات.

وإن من أهم ما في ذلك أن يعرف موقعه في كل مجلس؛ إذ المجالس تختلف، وموقع الإنسان منها ليس واحدًا؛ فتارة يَحْسُن أن يكون هو الصدرَ فيها، وتارة قد يَحْسُن به ألا يكون كذلك.

---

(١) رواه مسلم (٢١٧٩).

وكم من الناس من يُفَرِّط في إحكام هذا الأمر؛ فلا يعرف موقعه في المكان الذي جاء إليه؛ فتراه ينظر إلى أقرب مكان لصدارة المجلس مما أُعد لأكابر الضيوف؛ فيجلس فيه؛ فيعرض نفسه لنظرات الحاضرين المليئة بالازدراء، والتنقص لذلك الذي تخطى إلى مقام ليس له.

ولهذا كان أكابر السادات، وعقلاؤهم تعز عليهم نفوسهم أن يضعوها في مثل تلك المواقف، فتراهم يتواضعون؛ فَيُرفَعون، أو يَسْلَمون -في الأقل- من مواقف السخرية، والهون.

«تباعد كعب الأحبار يوماً في مجلس عمر بن الخطاب، فأنكر ذلك عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن في حكمة لقمان، ووصيته لابنه: إذا جلست إلى ذي سلطان فليكن بينك وبينه مقعدُ رجلٍ؛ فلعله يأتيه من هو آثرُ عنده منك، فَيُنَحِّيك، فيكون ذلك نقصاً عليك».[١]

وقال الأحنف: «لأَنْ أُدْعى من بُعْدٍ أحبُّ إليَّ من أن أُقْصَى عن قُرْبٍ».[٢]

وعن الأحنف -أيضاً- أنه قال: «ما جلست مجلساً قط أخاف من أن أقام منه لغيري»[٣].

وقال جعفر الصادق ﷺ: «إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته ما عدا الجلوس في الصدر»[٤].

---

(١) بهجة المجالس ١/٤٨.

(٢) المرجع السابق ١/٤٧.

(٣) المرجع السابق ١/٤٧.

(٤) المستطرف ص١٣٢.

فجدير بالمرء أن يجلس حيث ينتهي به المجلس؛ فذلك أدعى للتواضع، وأكمل في المروءة، وأبعد عن التنقص، قال ابن خالويه:

إذا لم يكن صدرُ المجالس سيِّداً فلا خير فيمن صدَّرته المجالسُ[1]

وقال ابن المقفع: «إن استطعت أَنْ تضع نفسك دون غايتك في كل مجلس، ومقام، ومقال، ورأي، وفعلٍ - فافعل؛ فإنَّ رَفْعَ الناس إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك، وتقريبَهم إياك إلى المجلس الذي تباعدت منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تُعَظِّمْ، وتزيينَهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تُزَيِّنْ - هو الجمالُ»[2].

ومع ذلك فإن كانت المصلحة أن يجلس في مكان مّا، وأصرَّ صاحب الضيافة أن يجلس الضيف فيه - فلا بأس وإن كان ذلك المكان في صدر المجلس؛ لأن فرط الإلحاح من المضيِّف، وفرط الامتناع من الضيف يثقل على الحاضرين، ويكدر صفو المجلس.

والنزول على حكم المضيِّف ضرب من ضروب التكرم.

وإباية طلبه مع الإلحاح نوع جفاء.

٥- تجنب الجلوس في الأماكن غير المناسبة: وذلك **كحال من لا يبالي أينما جلس**، ولو كان في مكان جلوسه أذية للحاضرين، أو لصاحبِ المجلس.

وذلك **كمن يجلس في ممرات المجلس** مع وجود سعة، وكمن يجلس في موضع يكون جلوسه فيه حجاباً مانعاً من الريح، أو الضوء، أو البرودة في أيام الحر الذي يكون الناس فيه بحاجة شديدة إلى الهواء، والبرودة.

---

(١) أقوال مأثورة ص١٥٣ عن طرائف الحكمة ٢/٧٤.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ص١٥١.

وكحال من يجلس في مكان مقابل لوسط الدار؛ فلا تمر امرأة وسط الدار إلا رآها، ورأى ما بيدها.

وقد يكون غير عالم بذلك بادي الرأي؛ فلا يلام إذا قام بعد ذلك.

ولكن المصيبة أن يكون ثقيلاً بليداً بحيث يدرك الخطأ في جلوسه في ذلك المكان، أو ينبهه أحد الحاضرين، ثم لا يبارحه.

ويدخل في ذلك **من يجلس في مكان، وصاحب الضيافة يريد منه أن يجلس في مكان غيره**؛ لحكمة، أو مصلحة يراها صاحب الضيافة، ثم يرفض ذلك الضيف، فلا ينزل على حُكْمه[١].

ولهذا قال بكر المزني رحمه الله مشدداً على النكير على مثل هذا: «أحوج الناس إلى لطمتين: رجل دخل دار قوم؛ فقيل له: اجلس ههنا؛ فقال: لا، بل ههنا»[٢].

قال الزمزمي معلقاً: «وإنما استحق هذا الثقيل لطمتين؛ لأن صاحب الدار يُجلس الضيف في المكان المستور الذي لا يمنع جلوسه فيه أهل الدار من المرور وسط الدار؛ فإذا لم يجلس الضيف في كان جلوسه فيه المكان الذي يختاره ضراراً على أهل الدار»[٣].

وجاء في ترتيب المدارك «أن ثقيلاً استأذن على مالك فأذن له، وكان لمالك بطيخة في ناحية، فرمى بمنديل عليها، فدخل الثقيل، فقال له مالك: ههنا، ههنا.... فأبى أن يقعد إلا على المنديل، فتفسخت تحته البطيخة! فقال له مالك: يرحمك الله، كنا أبصر بعوار منزلنا منك»[٤].

---

(١) انظر أخبار الثقلاء والمستثقلين ص١٩، و٣٥.

(٢) انظر ترتيب المدارك ١٤٥/٢، وانظر أخبار الثقلاء والمستثقلين. ص١٩.

(٣) أخبار الثقلاء والمستثقلين ص٢٠.

(٤) ترتيب المدارك ١٤٥/٢.

ومن الجلوس في الأماكن غير المناسبة ـ أن **يجلس الضيف في مكان يَحتاج إليه أصحاب الضيافة** كثيراً، فيضطرون إلى أن يقيموه بين الفينة والأخرى، كأن يكون خلف مكان أجهزة كهرباء ويُحتاج إليها كثيراً في زيادة تبريد المكان، أو خفضه، أو أن يكون في مكان احتفال، ويُرْغَب في توثيق الاحتفال، فيجلس في مكان يؤذي فيه أصحاب الضيافة من ناحية حَجْبه الرؤية عمن يسجلون الحفل.

أو أن يكون في مكان تلقى فيه الكلمات، ويتناوب مقدمو الحفل على منصةٍ؛ ويكون بينهم من الترتيب ما بينهم؛ فيزعجهم من يجلس بجانبهم ممن ليس له عمل؛ فتراه لا يبالي في الجلوس بينهم.

ويزيد ثِقله إذا كان يجتهد في توجيههم فيما ليس من اختصاصه.

وبالجملة فإن الجلوس في المكان اللائق في مجلس الضيافة دليل على ذوق صاحبه، وحسن تَأَتِّيه.

الحادية والأربعون: المراعاة لأدب السلام في مجالس الضيافة

وذلك باب واسع، ويحتاج إلى بسط وتفصيل، والمقام لا يحتمل إلا القليل من ذلك، وفيما يلي بيان لشيء مما يَحسن مراعاته في هذا الباب.

١ـ الاستئذان بالسلام قبل الدخول: ذلك أن دخول المجالس دون استئذان من أهلها مما ينافي الأدب ومكارم الأخلاق، ومما يوجب الريبة من الداخل، ويدعو لإساءة الظن به، واتهامه باستراق الحديث، وتتبع العورات.

ولذلك أدبنا الله ـتبارك وتعالىـ بأن نستأذن إذا أردنا دخول بيوت غير بيوتنا.

قال ـعز وجلـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ (النور: ٢٧).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان؛ أمرهم ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا، قبل الدخول، ويسلموا بعده»[(١)].

قال رحمه الله: «وقال قتادة في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحيَّ، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردُّوا»[(٢)].

وقال ابن سعدي رحمه الله في تفسير الآية السابقة: «يرشد الباري عباده المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان؛ فإن في ذلك عدة مفاسد، منها ما ذكره الرسول ﷺ حيث قال: «**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**»[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٢٦٩ـ٢٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/٢٧٢.

(٣) رواه البخاري (٥٨٨٧) عن سهل بن سعد.

فبسبب الإخلال به يقعُ البصر على العورات التي داخل البيوت؛ فإن البيت للإنسان في سَتْرِهِ عورةَ ما وراءه بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقةً، أو غيرها؛ لأن الدخول خُفْيَةً يدل على الشر.

ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم، ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾: أي تستأذنوا.

سمي الاستئذان استئناساً؛ لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة»[١].

ثم قال رحمه الله: «﴿ذَٰلِكُمْ﴾: أي الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة؛ فإن أذن دخل المستأذن.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾: أي فلا تمتنعوا من الرجوع ولا تغضبوا منه فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقًّا واجباً لكم، وإنما هو متبرع فإن شاء أذن أو منع؛ فأنتم لا يأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذا الحال»[٢].

ولهذا ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع**»[٣].

والاستئذان يكون بالنداء، والسلام، وقرع الباب، ونحو ذلك[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣/٣٩٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٣/٣٩٤.

(٣) البخاري ٧/١٣٠ عن أبي موسى الأشعري.

(٤) انظر إصلاح المجتمع ص١٦٨.

ويتأكد ذلك الأدب إذا كان المجلس خاصًّا، أو في المنزل حرم، ونحو ذلك.

وأما إذا كان المجلس كبيراً مفتوحاً، أو في مكان عام، أو كان خاصًا بالرجال دون النساء، ومعروفاً لدى من يأتي أنه معد للضيوف ـ فإن الأمر أيسر من جهة الاستئذان من عدمه.

٢ـ السلام حال دخول المجلس، والخروج منه: فالسلام الأول إيذان بالدخول، والسلام الآخر إيذان بالانصراف.

وهذا من الأدب الجميل الذي يورث المحبة بين المؤمنين.

وتركه دليل على الجفاء والغلظة، وذلك مما يورث البغضاء والنفرة.

ولهذا قال ـعليه الصلاة والسلامـ: **«إذا انتهى أحدكم من المجلس فليسلم، فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم؛ فليست الأولى بأحق من الآخرة»**[(١)].

ويراعى في ذلك أن إذا ترتب على السلام، ورفع الصوت فيه إخلال بنظام المجلس خصوصاً إذا كان الحديث مسترسلاً، أو كان هناك من يتحدث، والحاضرون يستمعون إليه ـ أن يُسَرَّ بالسلام دون رفع الصوت، وكذلك الحال إذا أراد الانصراف.

٣ـ مراعاة الذوق العام في مصافحة الحاضرين: ومن ذلك ألا يبدأ بمصافحتهم إذا جاء متأخراً، والحديث متصل، والمجلس مكتظ بالحضور؛ فإن ذلك يقطع عليهم حديثهم.

---

(١) أخرجه أحمد٢/٢٨٧، والترمذي(٢٧٠٦) والبخاري في الأدب المفرد(١٠٠٧)، وابن حبان(٤٩٤ـ٤٩٥ـ٤٩٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٣٢٨) كلهم عن أبي هريرة وقال الترمذي: «حديث حسن»، وصححه أحمد شاكر في شرحه للمسند(٧٨٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٥٧).

وبعض الناس لا يبالي بذلك الأدب؛ فيدخل المجلس، ويرى المجلس متَّحِداً، وأحد الحاضرين يتكلم سواء كان الضيف الكبير، أو غيره من الشعراء، أو المتكلمين ـ فيرفع صوته بالسلام، ثم يبدأ بمصافحتهم واحداً واحداً دون مراعاة لنظام المجلس، وقَطْعِ الحديث؛ فذلك من آفات كثير من مجالس الضيافة.

وماذا عليه لو انتظر حتى يبدأ المجلس بالانقضاض، ثم يسلم على الحاضرين، أو من يرغب في السلام عليهم؟.

ومن تلك الآفات أن بعضهم إذا دخل مجلس الضيافة ـ خصوصاً في مناسبات الزواج ـ وهو يريد السلام على من في المنصة، لم يراعِ مَنْ يريدون السلام قبله؛ فتراه يأتي متأخراً، ويتقدم عليهم في السلام.

وترى بعضهم لا يراعي من خلفه في السلام؛ فتراه يحبسهم بطول حديثه مع بَعْض من يسلم عليهم.

وماذا عليه لو أشار إلى من خلفه أن يتقدموا إذا وقف لمحادثة بعض الحاضرين!؟.

ومن الآفات المنافية لأدب المصافحة في مجلس الضيافة تخطي بعض الضيوف لصغار السن الذين قد يمد أحدهم يده، فلا يلقي لها ذلك الداخل بالاً؛ مما يجعل نفوس أولئك الصغار، وذويهم تكبر على ذلك الغافل، أو المتكبر.

وكذلك ما يفعله بعض المتكبرين ممن لا يصافحون الحاضرين إلا برؤوس الأصابع، مع قبض اليد مباشرة.

ومقابل ذلك ما يفعله بعض الثقلاء الجفاة ممن إذا صافحوا أحداً قبضوا على يده بشدة مؤذية مضرة، مما يجعل المُصافَحَ يشعر بالألم الشديد، وربما صرخ من شدة القبضة.

وقل مثل ذلك في حال بعض الناس ممن يصافح الحاضرين بيد مبلولة بالماء، أو العرق الذي تشمئز منه النفوس[١].

وأقبح من ذلك ما يفعله بعض ثُقلاء المُزَّاح مما يرون بعض أصحابهم، وقد فرغوا من تغسيل أيديهم، ومَسْحِها بالمناديل بعد الانتهاء من الطعام، ثم يصافحونهم وهم لم يغسلوا أيديهم من الطعام بعد؛ فيضطر ذلك المصافَح إلى التغسيل مرة أخرى؛ فكل ذلك مما ينافي الأدب عموماً، وأدب مجلس الضيافة على وجه الخصوص.

(١) انظر أخبار الثقلاء والمستثقلين ص٢٣.

الثانية والأربعون: المراعاة لنظام مجلس الضيافة

وقد مرت الإشارة إلى شيء من ذلك، وههنا بعض التفصيل فيه، وهو عام للمضيِّف، والضيف؛ حيث فينبغي للمضيِّف أن يراعي نظام المجلس عنده خصوصاً إذا كانت المناسبة كبيرة؛ فمن ذلك أنه يحسن أن يُرَتِّب موعدُ تقديم القهوة، أو ما يقدَّم للضيوف قبل طعام المناسبة.

ويحسن بمن يديرون أقداح القهوة، أو الماء، أو نحو ذلك أن يكونوا على درجة عالية من الذوق في تقديمها للضيوف.

ومن حسن نظام المجلس أن يكون موحداً، وذلك بأن يكون مصدر الحديث ومورده واحداً؛ لأجل أن تَحْصُل الفائدة، والمتعة خصوصاً إذا كانت المناسبة كبيرة، وعلى شرف وجيه، أو عالم، أو ضيف غريب، أو كبير.

ومما يجمع شمل المجلس إذا كان كبيراً، ويوحد حديثه أن يكون فيه مكبر صوت؛ حتى يسمع الحاضرون ما يدور من أحاديث.

بل يحسن أن يكون فيه أكثر من مكبِّر؛ لأجل أن يتسنى لمن أراد الحديث في أي مكان من المجلس أن ينتقل إليه.

وينبغي أن يكون بِيَدِ صاحب المناسبة، أومن يدير المجلس مكبر خاص يتلافى به بعض ما يحصل من كلام بعض الضيوف مما لا يلائم المجلس.

ويحسن إذا بدأ الحديث في المجلس أن يغلقوا هواتفهم، وأن يتوقفوا عن الأحاديث الجانبية، وأن يحسنوا الإنصات للمتحدث.

وإذا كان المجلس موحداً، والمتكلم واحداً حَسُن إيقاف إدارة القهوة والشاي على الحاضرين؛ حتى لا يُقطع الكلام.

وإذا جاء داخل للمجلس ـ والحالة هذه ـ فَلْيَجْلِسْ في أدنى مكانٍ دون أن يسلم على الحاضرين، حتى ينتهي الكلام.

ويذكر الأستاذ فهد المارك رحمه الله **أن شاعر نجد الحماسي المشهور محمد ابن عبدالله العوني** (ت ١٣٤٣هـ) كان مشهوراً بحسن الحديث، وبراعة السرد، وأنه كان يُدْعَى إلى مجالس الأكابر، والملوك، والأمراء؛ لِيُحْيِيَهَا بحسن تصرفه في الكلام، وأخذه بناصية الحديث، وروعة إيراده للحوادث والقصص.

ويذكر الأستاذ المارك أن العوني إذا طُلب منه الحديث عن أي شأن أدبيٍّ، أو سياسيٍّ لا يستجيب لهذا الطلب؛ حتى يملي الشرطين الآتيين:

أولاً: ألا يُقَاطَعَ في حديثه.

ثانياً: ألا تدار فناجين القهوة ما دام مسترسلاً في حديثه.

وما ذاك إلا لأن الحديث يبرد، ويفقد جماله إذا قوطع[1].

وهذا مما يفسر به كون مجالس العرب، ومجلس رسول الله ﷺ كالحرم، وكون الحاضرين كأن على رؤوسهم الطير من فرط السكوت، وهدوء المجلس؛ ليرتاح المتكلم، ويسترسل في الحديث، وليرتاح السامع؛ فلا يرى، ولا يسمع ما يكدر عليه؛ فالمجلس الملتئم المنتظم من أعظم ما يبهج روَّاده، ويقودهم إليه.

بخلاف مجلس الفوضى، الذي ليس له خطام، ولا زمام؛ فلا يستمتع فيه بحديث، ولا يهدأ بال.

ولا يعني كون المجلس منتظماً أن يُفْرَط في صرامة نظامه؛ فَيُعَامَلَ الحاضرون وكأنهم طلاب صغار في فصل دراسي؛ فيُنْهروا، ويهانوا عند أدنى هفوة، أو زلة،

---

(١) انظر محمد العوني تاريخ جيل، وحياة رجل، تأليف فهد المارك، اعتنى بنشره ومراجعته: د. محمد بن عبدالله المشوح ص١٨٩.

ويرفع الصوت عليهم، ويقال للضيف مهما علا مقامه: اجلس، أو قم، أو اعتدل، في جلستك، أو نحو ذلك.

لا، فما هكذا تكون مجالس الأكابر، وليس كرام الناس من يهان عنده الضيف مهما كان.

وإنما يحسن أن يكون التوجيه بلطف، وبأحسن إشارة، وألطف عبارة.

ولقد حضرت بعض مجالس الضيافة، فرأيت مِنْ معاملتهم للضيفان ما يقضي منه العجب؛ من ناحية النهر، وقلَّة المراعاة لأقدار الحاضرين، وكونهم ضيوفاً، وللضيف حق الكرامة.

فرأيت من يأتي إلى بعض الضيوف وهم كبار في قدرهم، وسنهم، فيقول لهم أمام الملأ: عَدِّل جلستك! مع أنه مضطر لبعض الجَلْسات؛ لكونه يتضايق من نوع من الجلوس الطويل على هيئة معينة.

ورأيت من يَدُعُّ الضيوف دَعًّا عند السلام، وينهرهم نهراً مزعجاً.

كل ذلك مخالف لما تقتضيه الضيافة الحقة من الإكرام، والإعزاز.

وعلى مثل تلك المجالس التي يلقى الضيفان فيها ما يلقون من المهانة، والإذلال يحمل قول سفيان: لا تعفروا الأقدام إلا إلى أقدارها، وأنشد:

نضع الزيارة حيث لا يزري بنا ... شرف الملوك ولا تَخِيْبُ الزُّوَّرُ[1]

ومن المراعاة لنظام مجلس الضيافة البعد عن كل ما ينافي الذوق العام سواء كان ذلك قولياً، أو فعلياً، فالمجالس لها حقها من الاحترام؛ فلا يحسن بالمرء أن يصدر

---

(١) عيون الأخبار ٣/٢٦.

منه ما ينافي الذوق العام، وذلك كأن يتجشأ في المجلس، أو يكثر التثاؤب، أو أن يتمخط، أو يبصق في المجلس.

ومن هذا القبيل تخليل الأسنان، وإدخال الإصبع في الأنف، وكثرة التنحنح والتمطي، والعبث بالشارب، أو اللحية، أو وضع الأقدام في مقابل الحاضرين[١].

ومن ذلك شرب الدخان في مجلس الضيافة، ويزيد الأمر بلاءًا إذا كان في المجلس من لا يشرب الدخان، أو من يتأذى من شربه.

فالذي يليق بالمرء إذا جلس في مجلس الضيافة أن يبتعد عن مثل تلك الأمور؛ فذلك أدعى لتبجيله، واحترامه.

ولئن كان ذلك مطلوباً في كل مجلس ضيافة فهو في مجالس العلماء، والأكابر أولى وأحرى[٢].

---

(١) انظر تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمسكويه ص٧٢، وجوامع الآداب ص١١.

(٢) انظر تذكرة السامع والمتكلم ص١٤٨-١٥٠.

الثالثة والأربعون: المراعاة لأدب الكلام في مجالس الضيافة

فمجالس الضيافة -وخصوصاً الكبيرة منها- يغشاها فئام من الناس، وهم على مشارب شتى، وأذواق متباينة، وطبقات متفاوتة.

والكلام **في المجالس يحتاج إلى ذوق عالٍ**، وعقل راجح، وألمعية مُهذبة، وفطنة مستيقظة؛ فذلك مما يرفع مقام المتكلم، ويرتقي بالمجالس، ويجعلها منابع حكمة، ومنابر هدىً، ومجاليَ سعادة.

وجماعُ ذلك يكمن في الحرص على إثراء مجلس الضيافة، والحذر من الإثقال على الحاضرين في الكلام؛ فالمجالس إنما تعمر بالكلام، وتداوله، والأخذ والرد فيه، وجمال المجالس بجمال الكلام فيها؛ إذ الصمت المُطْبِقُ في المجالس لا يحسن إلا في مجالس العزاء، بل قد يكون الكلام في بعض الأحيان فيها خيراً من الصمت.

وقد كانوا يمدحون اللسان، ويرون أن الجمال فيه[١].

قال خالد بن صفوان: «ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة مُمَثَّلة، أو بهيمة مهملة»[٢].

وقال الشاعر:

فما المرء إلا الأصغران لسانه ... ومعقوله والجسم خلقٌ مصوَّرُ

وما الزين في ثوب تراه وإنما ... يزين الفتى مخبوره حين يُخْبِر[٣]

وكان يقال: «عقل الرجل مدفون تحت لسانه».

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١٧٠.

(٢) البيان والتبيين ١/١٧٠.

(٣) البيان والتبيين ١/١٦٧.

وقال ابن الرومي منوهاً بشأن الحديث، ولذته، وجماله، وجدة حلاوته:

ولقد سئمت مآربي فكأنَّ أطيبها خبيث

إلا الحديث فإنه مثل اسمه أبداً حديث[١]

وكان يقال: «مجالسة الرجال تلقيح الألباب»[٢].

وكان لهم شروط في المنادِم، والمسامِر، والمنادِر تعلي من شأن من أخذ بها، وتزري بمن أعرض عنها، ولم يأبه بها.

قال الحصري القيرواني: «ومن شرط المسامر، والمنادر أن يكون خفيف الإشارة، لطيف العبارة، ظريفاً، رشيقاً، لبقاً، رفيقاً غير فَدْم[٣]، ولا ثقيل، ولا عنيف، ولا جهول؛ قد لبس لكل حالة لباسها، وركِبَ لكل آلة أفراسها؛ فطبق المفاصل، وأصاب الشواكل، وكان برائق حلاوته، وفائق طلاوته، يضع الهناء[٤] موضع النَّقْب[٥]، ويعرف كيف يخرج مما يدخل فيه إلا خاف ألا يستحسن ما يأتيه»[٦].

ثم ذكر جملة من الأمثلة على ذلك، ومنها قوله: «ذكر عن الفتح بن خاقان أنه كان مع المتوكل، فرمى المتوكل عصفوراً؛ فأخطأه، فقال: أحسنت يا أمير المؤمنين!

---

(١) زهر الآداب ١/١٩٢.

(٢) المرجع السابق ١/١٩٢.

(٣) الفَدْم: العِيُّ عن الكلام في نقل، في ثقل، ورخاوة، وقلة فهم.

(٤) الهناء: القطران.

(٥) النقب: الجرب، أو القِطع المتفرقة منه.

(٦) جمع الجواهر ص٩.

فنظر إليه نظرة مُنْكَرة، فقال: إلى الطائر؛ فضحك المتوكل»[١].

هذا وإن من أعظم ما يعين على إثراء مجالس الضيافة بالكلام، والسلامة فيها من الإثقال، أموراً كثيرةً يأتي على رأسها ما يلي:

١ـ **الحذر من الثرثرة:** وهي كثرة الكلام تكلفاً، وبلا فائدة؛ فتجد من الناس من هو ثرثار مهذار، يتكلم في كل باب، ويتولج كل مضيق، كما قال الأول:

هِـــذْرِيانٌ هَـــذِرٌ هَـــذَّارةٌ موشـكُ السـقطة ذو لـب نثـرِ[٢]

فإذا ما حضر مجلساً ملأه بكثرة الضجيج، وأشغله بفضول الكلام.

فالثرثرة مظهر من أعظم مظاهر الإثقال التي تورث الإملال، وهي دلالة على رقة الدين، ونقص العقل.

قال النبي ﷺ: «**إن من أحبكم إليّ، وأقربكم مني في الآخرة أحاسنَكم أخلاقاً وإن أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني في الآخرة أسوؤكم أخلاقاً؛ الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون**»[٣].

ولقد تتابعت وصايا الحكماء في النهي عن الثرثرة، وذمها، وبيان سوء مغبَّتِها.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «لا خير في فضول الكلام»[٤].

---

(١) جمع الجواهر ص٩.

(٢) الهذر: الكلام الكثير، والنَّثِر: المتساقط.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٣ـ١٩٤، وابن حبان(٤٨٢)، وابن أبي شيبة٨/٥١٥، والبغوي في شرح السنة(٣٩٥) كلهم من حديث أبي ثعلبة الخشني، والترمذي(٢٠١٨) عن جابر وقال: «حديث حسن غريب»، وقال الهيثمي في المجمع٨/ ٢١: «رجال أحمد رجال الصحيح»، وحسنه الألباني في الصحيحة (٧٩١).

(٤) بهجة المجالس ١/٦١.

وقال عطاء رحمه الله: «كانوا يكرهون فضول الكلام»[١].

وقال: «بترك الفضول تكمل العقول»[٢].

ومن الثرثرة الثقيلة البغيضة في المجالس أن يأتي أحد الحاضرين بقصة، أو حادثة مضمونها سمج، وفحواها قليل، ثم يفصل فيها تفصيلاً لا داعي له، مما يضجر الحاضرين، ويفوِّت فرصة الكلام على غيره، قال الشاعر:

لا خـــير في حشـــو الكــــلا م إذا اهتـــديت إلى عيونـــه[٣]

وقال إسماعيل الكاتب:

خـــيرُ الكـــلام قليـــلٌ علـــى كـــثيرٍ دليـــلُ
والعِـــيّ معنـــىً قصـــيرٌ يحويـــه لفـــظٌ طويـــلُ[٤]

بل ينبغي للإنسان -حتى ولو تكلم بكلام نادر لطيف، وله روح- ألا يفسده بالفضول الذي لا داعي له.

قال الحصري القيرواني منبهاً إلى ذلك: «ويجب إذا حكى النادرة الطريفة، والحكمة اللطيفة ألا يعربها[٥] فتَثقل، ولا يمجمجها[٦]؛ فتُجْهل، ولا يمطمطها؛ فتَبْرُد، ولا يقطِّعها؛ فتجمد»[٧].

---

(١) بهجة المجالس ٦١/١.

(٢) بهجة المجالس ٦١/١.

(٣) ديوان الشافعي ص١٣٦ بتحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي ص١٣٦.

(٤) بهجة المجالس ٦١/١.

(٥) يعني ألا يتكلف إعرابها، بل يأتي بها كما جاءت.

(٦) يعني: لا يغيرها، ولا يفسدها.

(٧) جمع الجواهر ص١٠.

ثم إن كثرة الكلام بلا داع تظهر بواطن العيوب، وتحرك كوامن العداوات، وتدل على مواطن الضعف في الإنسان[١].

ومن الثرثرة القبيحة ما تراه من بعض من ليس له وِرْدٌ ولا صَدَرٌ في المجلس.

ومع ذلك فلا يبدي أحدٌ قصة أو حادثة وإلا ساق على نولها قصة مثلها مع برود في السرد، وثِقَلٍ في العرض.

والمقصود أن الثرثرة - في الأصل - مذمومة، جالبة للإثقال.

ولا يعني ذلك أن كثرة الكلام مذمومة بكل حال، بل قد تكون محمودة خصوصاً لمن له قبول، وحسن تصرف في مناحي الكلام؛ فإن هذا وأمثاله ممن يُستمطرون الكلام، ويُرْغَب إليهم في مزيدٍ منه.

وهذا ما يجعل بعض ضعاف العقول في المجالس يَرْغَبُ في الكلام؛ لما يرى لأمثال هذا من القبول؛ فيظن أن ذلك ناتج عن كثرة كلامه، وما علم أن بينه وبين ذلك الشخص كما بين ذات الرجع وذات الصدع.

وفي مقابل ذلك تجد من يُرغب في الاستزادة من كلامه؛ لكونه عذباً مُسْتَحلىً، قال أبو اليقظان، قال عمر بن عبدالعزيز: «ما كلمني رجل من بني أسد إلا تمنيت أن يُمَدَّ له في حُجَّته؛ حتى يكثر كلامه؛ فأسمعه»[٢].

قال الحسن رحمه الله: «لسان العاقل وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكَّر؛ فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت.

وقلب الجاهل من وراء لسانه، فإن هَمَّ بالكلام تكلم به له، أو عليه»[٣].

---

(١) انظر جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب للقاسمي ص٦.

(٢) البيان والتبيين ١/١٧٢.

(٣) البيان والتبيين ١/١٧٢.

٢ـ الحذر من الاستئثار بالحديث: فهناك من يثرثر في حديثه، ولكنه يعطي غيره فرصة كي يتحدث.

والثرثرة قبيحة ـكما مرـ وأقبح منها أن يستأثر المرء بالحديث، فلا يعطي غيره فرصة لأن ينبس ببنت شفة، فلا يكاد الحاضرون يلتقطون أنفاسهم إلا ويبادرهم بموضوع جديد، وربما كان حديثه لا يسمن ولا يغني من جوع.

والأثرة بالحديث آفة قبيحة، يغفل عنها كثير من المتحدثين؛ لظنهم أن سكوت من أمامهم إنما هو إعجاب بكلامهم، وموافقة لهم على الإطالة.

فيحسن بالمتحدث ـخصوصاً في مجالس الضيافةـ تجنب الاستئثار بالحديث وأن لا يعيب على غيره ذلك ويبيحه لنفسه.

فمن الأدب بالكلام أن يقتصد المسلم في تحدثه في المجالس، وأن ينأى بنفسه من صنيع بعض الناس، ممن لا يستحيون من امتلاك ناصية الحديث في محافل الناس، فيملؤون الأفئدة بالضجر من طول ما يتحدثون[1].

ومن الطرائف في ذلك أن أحد كبار السن ممن قد قارب المائة عام، وكان ذا حفظ للأخبار، وحسن عرض لها ـ أنه كان في مجلس من المجالس، وكان في ذلك المجلس رجل مهذار لا يكاد يعطي غيره فرصة للكلام، وكان كبيرُ السِّن السالفُ الذكر يتحفز بين الفينة والأخرى؛ لذكر قصة عنده؛ وكلما هَمَّ بالشروع بها ابتدره ذلك الثرثار المستأثر بقصة جديدة، أو موضوع جديد؛ فيسكت ذلك الكبير على مضض وغيظ.

---

(١) انظر أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة ص٨ـ٩.

وفي إحدى قصص ذلك الثرثار المستأثر ـ ذكر أنه تعرض لموقف، وقال: إنني كدت أن أموت فيه، فقال له ذلك الكبير: ليتك مُتَّ، وأرحتنا؛ حتى تتسنى لي الفرصةُ لذكر قصتي التي تتلجلج في صدري، ولم تَدَعْ لها مجالاً.

فينبغي للإنسان ألا يطيل على السامعين، وألا يستأثر في الحديث، حتى ولو كان مقبولاً عندهم، وحديثه محبباً إلى نفوسهم.

قال الحصري القيرواني: «ويجب على اللبيب المُطْرِب ألا يطيل؛ فيُمِلّ، ولا يقصر؛ فيخل، فللكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية»[(١)].

ثم ذكر مثالاً لذلك، فقال: «قال أحمد بن الطيب السرخسي تلميذ أحمد بن إسحاق الكندي: كنت يوماً عند العباس بن خالد ـوكان ممن حُبِّب إليه أن يتحدثـ فأقبل يحدثني، وينتقل من حديث إلى حديث، وكان في صحن منزله؛ فلما بَلَغَتْنَا الشمس انتقلنا إلى موضعٍ آخر حتى صار الظل فيئاً؛ فلما أكثر، وأضجر، ومللتُ حسن الأدب في حسن الاستماع، وذكرت قول الأوزاعي: (إنَّ حسن الاستماع قوة للمتحدث).

فقلت له: إذا كنتُ وأنا أسمع قد عييت مما لا كلفة عليَّ فيه ـ فكيف بك وأنت تتكلم؟

فقال: إن الكلام يحلل الفضول الغليظة التي تعرض في اللهوات، وأصلِ اللسان، ومنابتِ الأسنان.

فوثبت، وقلت: ما أراني معك إلا أيارج الفيقر[(٢)]؛ إذ أنت تتغرغر بي منذ اليوم، والله لا أجلس.

---

(١) جمع الجواهر ص١١.

(٢) أيارج: مُعَرَّب. وتفسيره: الدواء الإلهي. والفيقر: الداهية، كأن يقول: ما أراني معك إلا دواء الفاقرة، والمصيبة العظيمة.

واجتهد بي، فلم أفعل»[١].

وقال: «قال أحمد بن الطيب: كنَّا مرَّة عند بعض إخواننا؛ فتكلم، فأعجبه من نفسه الكلام، ومنا الاستماع؛ حتى أفرط؛ فعرض لبعض الحاضرين ملل، فقال: إذا بارك الله في شيء لم يَفْنَ، وقد جعل الله في حديث أحبنا هذه البركة»[٢].

وقال الحصري: «وقال عبدالله بن سالم في رجل كثير الكلام:

لي صاحب في حديثه بركة ... يزيد هذا السكون والحركةْ

لو قال: لا في قليل أحرفها ... لردها بالحروف مشتبكةْ[٣]

ثم ختم الحصري كلامه في هذا السياق قائلاً: «والتحفظ في هذا الباب من أكبر الأسباب؛ لأن المنادر، والمهاتر، والمسامر قد تمر له النادرة المضحكة، والطيبة المحركة؛ فيستغرب المجلس، وتطرب الأنفس؛ فيدعوها ما استُحسِن منه، واستُنِد عنه أن يعود إلى مثلها؛ فينتَقَص من حيث ظن أنه زاد، ويفسد عليه ما أراد»[٤].

٣ـ تجنب تكرار الحديث بلا مسوغ: فهذا من عيوب الكلام، وهو مما يورث الملامة له، ويولد السآمة.

وهناك من يذكر الحادثة أو القصة في المجلس الواحد مرات عديدة.

وهناك من يكرر كلامه كثيراً بلا مسوغ، مما يجعل الأذواقَ تَمُجُّهُ، والآذان تَسْتَكُّ من سماعه.

---

(١) جمع الجواهر ص١١.

(٢) جمع الجواهر ص١١.

(٣) جمع الجواهر ص١١ـ١٢.

(٤) جمع الجواهر ص١٢.

قال محمد بن صبيح المعروف بالسماك لجاريته: «كيف ترين ما أعظ به الناس؟

قالت: هو حسن، إلا أنك تكرره.

قال: إنما أكرره؛ ليفهمه من لم يكن فهمه.

قالت: إلى أن يفهمه البطيء يثقل على سمع الذكي»[١].

«واستعيد[٢] ابن عباس حديثاً فقال: لو لا أني أخاف أن أغضَّ من بهائه، وأريق من مائه، وأُخْلِقَ من جِدَّتِه ـ لأعَدْتُه»[٣].

وقال أبو تمام يصف قصائده:

منزهة عن السَّرِق المُوَرَّى ... مكرمة عن المعنى المعادِ[٤]

وقال الآخر:

إذا تحدثت في قوم؛ لِتُؤْنِسَهم ... من الحديث بما يمضي وما ياتي

فلا تُكَرِّرْ حديثاً إن طَبْعَهُمُ ... موكَّلٌ بمعاداة المعادات[٥]

قال أبو العباس السفاح: «ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي؛ لم يُعِدْ عَلَيَّ حديثاً قط»[٦].

أما إذا احتيج إلى التكرار، وكان فيه زيادة فائدة، ولم يكن موصلاً إلى حد الملال ـ فلا بأس به؛ ذلك أن بعض الناس مقبول، حلو الحديث، ولو كان مكروراً معاداً؛ بل إن في تكراره مزيدَ بهجةٍ، وإيناسٍ، وفائدةٍ.

---

(١) زهر الآداب ١/١٩٦.

(٢) استعيد: طلب منه إعادته.

(٣) زهر الآداب ١/١٩٦.

(٤) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ١/٣٨٢.

(٥) إصلاح المجتمع للبيجاني، ص٣٦٠.

(٦) المستطرف ص١٣٢.

وهذا ما يجعل بعض التكرار محموداً، وبعضه مذموماً.

والذي لا يفرق بينهما يقع في الذم، والحرج، والإثقال.

وكان أحد أعزةِ الأصحاب على درجة عالية من حسن الحديث، وقد سمعت منه، وسمع غيري كثيراً من القصص، والأحداث، مراتٍ كثيرة جداً، ومع ذلك لا نملُّ من كثرة إعادته لها، وكأن القائل يعنيه بقوله:

يعـــاد حديثـــه فيزيـــد حســـناً وقـــد يســـتقبح الشـــيءُ المعـــادُ

وإذا سمعتَه يتحدَّث تذكرتَ قول القائل:

ســـبحان ربـــيْ تبـــارك اللهُ مـــا أشـــبهَ بعـــض الكـــلام بالعســـل

وإذا قارنتَ بينه وبين بعض من يلغو بكلام بارد ثقيل، وهو لا يبالي تذكرت قول الأول:

مـــن النـــاس مـــن لفظـــه لؤلـــؤ يبـــادره اللفـــظُ إذ يَلفـــظُ

وبعضُـــهُمُ قولُـــه كالحصـــى يقـــال فَيُلغـــى ولا يحفـــظ

٤ـ الحذر من التقدم في الكلام بحضرة الأكابر: فمن أعظم المراعاة لأدب الكلام في المجالس أن يحذر الإنسان أشد الحذر من التقدم بالحديث في حضرة الأكابر، فيتصدر المجلس، ويرُدّ على الأسئلة، ويأخذ بناصية الحديث، مع وجود من يكبره في السن، والعلم، والقدر.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله محذراً من ذلك الصنيع: «إياك أن تتصدى في مجالسك مع الناس للترؤس عليهم وأنت لست برئيس، وأن تكون ثرثاراً متصدراً بكل كلام.

وربما من جهلك وحمقك ملكت المجلس على الجلوس، وصرت أنت الخطيب والمتكلم دون غيرك.

وإنما الآداب الشرعية والعرفية مطارحة الأحاديث، وكلٌ من الحاضرين يكون له نصيبٌ من ذلك، اللهم إلا الصغار مع الكبار، فعليهم لزوم الأدب، وأن لا يتكلموا إلا جواباً لغيرهم»[1].

وأذكر أنه في يوم من الأيام كان هناك مجلس ضيافة يتصدره عالم كبير، والناس من حوله من أكابر أهل العلم سكوتٌ، وكأن على رؤوسهم الطير؛ فلا يكاد أحدٌ منهم ينبس ببنت شفة.

وكان في المجلس إنسان عاديٌّ، وعنده شيء من العلم؛ فما كان منه إلا أن أخذ بزمام الحديث، وصار يجادل ذلك العالم، ويسوق مسائل باردة أثقلت على الحاضرين، وأورثتهم الضيق، والإحراج.

وفي يوم من الأيام كان هناك مجلس أنسٍ، ومطارحةٍ، ومسامرةٍ، وتجاذبٍ لأطراف الأحاديث.

وكان من ضمن الحاضرين رجلٌ معروف بحسن الكلام، والتفنُّن في إيراد القصص، والأخبار، والأشعار.

وكان الحاضرون على درجةٍ عاليةٍ من المتعة والأنس بتلك الأحاديث العالية التي يسوقها ذلك الرجل، بل كانوا يستمطرونه الحديث كلما هَمَّ بالسكوت.

وكان من بين القوم مَنْ ينازع الحديث، ويثقل على الحاضرين بأحاديثه الباهتة؛ فكان كما قال الحكيم العربي:

---

(١) الرياض الناضرة ضمن المجموعة الكاملة لابن سعدي، ٥/٥٤٩.

أتـــى زيـــدٌ وأســـرف في هَـــذاءٍ تضـــيق بـــه صـــدورُ الســـامرينا
يُحَـــدِّثنا فـــلا يـــروي غريبـــاً ولا يبـــدي لنـــا رأيـــاً رصـــينا
كمثـل رَحـىً تجعجـع طـولَ ليـلٍ ولا تُلْقِـــي علـــى ثُفْـــلٍ طحينـــا

ولو أنه أدرك مكانَهُ، وعرف موقعَه ـ لما أوقع نفسه بذلك الحرج.

٥ـ **التحلِّي بحسن الصمت**: فالصمت خلق محمود، وأدب جميل؛ إذ فيه الحكمة، والستر، والسلامة.

قال الإمام النووي رحمه الله: «اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام المباحُ وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه؛ لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثيرٌ في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء»[(١)].

وقال القاسمي: «إياك وفضول الكلام؛ فإنه يُظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ماسكن؛ فكلام الإنسان بيان فضله وترجمان عقله؛ فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل»[(٢)].

وقال بعض البلغاء: «الزم الصمت؛ فإنه يكسبك صفو المودة، ويؤمِّنك سوء المغبة، ويلبسك ثوب الوقار، ويكفيك مؤونة الاعتذار»[(٣)].

وقال طرفة بن العبد:

وإن لســـان المـــرء مـــا لم تكـــن لـــه حصـــاة[(٤)] علـــى عوراتـــه لـــدليلُ

---

(١) رياض الصالحين للنووي ص٣٩١.

(٢) جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب للقاسمي ص٦.

(٣) أدب الدين والدنيا للماوردي ص٢٧٥.

(٤) حصاة: عقل.

يقول: إذا لم يكن مع اللسان عقل يحجزه عن بسطه فيما لا يُحَبُّ ـ دل اللسان على عيبه بما يلفظ به من عُور الكلام[١].

ولئن كان لزوم الصمت، وترك الحديث فيما لا يعني مستحسناً مطلوباً من كل أحد ـ فلهو ممن يأنس من نفسه الجهل، وكثرة الزلل والخطأ أولى وأولى.

قال علي بن عبدالرحمن بن هذيل: «من الواجب على من عري من الأدب، وتخلى عن المعرفة والفهم، ولم يتحلّ بالعلم ـ أن يلزم الصمت، ويأخذ نفسه به؛ فإن ذلك حظ كبير من الأدب، ونصيب وافر من التوفيق؛ لأنه يأمن من الغلط، ويعتصم من دواعي السقط؛ فالأدب رأس كل حكمة، والصمت جماع الحكم».[٢]

قال الشاعر:

وفي الصمت سترٌ للعييِّ وإنما صحيفةُ لبِّ المرءِ أن يتكلما[٣]

وقال عطاء رحمه الله: «الصمت صيانة اللسان، وسترُ العِيِّ»[٤].

وقالوا: «اللسان سَبُعٌ عقور»[٥].

وقالوا في التحذير من الكلام بلا داعٍ، وفي الحث على الصمت: «عقل الرجل بين لحييه، وفكّيه»[٦].

---

(١) انظر لسان العرب ١٤/١٨٣.

(٢) عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل ص١٢٨.

(٣) عين الأدب والسياسة ص١٢٨.

(٤) بهجة المجالس ١/٦١.

(٥) البيان والتبيين ١/١٩٤.

(٦) البيان والتبيين ١/١٩٤.

ولا يعني ما مضى أن الصمت أجمل من الكلام بإطلاق، وإنما يعني أن الصمت خير من حشو الكلام، ومن إلقائه على عواهنه، ومن التقدم فيه بحضرة الأكابر إلى غير ذلك من آفات الكلام التي يكون الصمت خيراً، وأولى، أو أوجب من الكلام فيها.

قال الشاعر:

والصمت أجمل بالفتى من منطق في غير حينه[١]

وقال الزمخشري: «خير الألسن المخزون، وخير الكلام الموزون؛ فحدِّث إن حدَّثت بأفضل من الصمت، وزين حديثك بالوقار وحسن السمت.

إن الطيش في الكلام يترجم عن خفة الأحلام، وما دخل الرفق بشيء إلا زانه، وما زان المتكلم إلا الرزانة»[٢].

وقال يونس بن عبيد: «ليس خلة من خلال الخير تكون في الرجل هي أحرى أن تكون جامعة لأنواع الخير من حفظ اللسان»[٣].

وقال قسامة بن زهير: «يا معشر الناس إن كلامكم أكثر من صمتكم؛ فاستعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الصواب بالفكر»[٤].

---

(١) ينسب للشافعي. انظر ديوانه ص١٣٦، وينسب لأبي العتاهية. انظر البيان والتبيين ١/١٩٧.

(٢) أقوال مأثورة وكلمات جميلة، د. محمد بن لطفي الصباغ، ص١٤٨ عن أطواق الذهب للزمخشري ص٨٩.

(٣) المحاسن والأضداد ص٣٤.

(٤) المحاسن والأضداد ص٣٤.

«وكان يقال: ينبغي للعاقل أن يحفظ لسانه كما يحفظ موضع قدمه، ومن لم يحفظ لسانه فقد سلطه على هلاكه»[١].

ثم إن الصمت يتفاوت بتفاوت ذوق أصحابه؛ إذ الصمت في أصله جميل فاضل محمود، وقد يزداد جماله، وفضله وحمده إذا زيَّنه صاحبه بالأدب، وإشراقة الجبين، والتواضع، وحسن الاستماع للمتكلمين.

قال بعضهم: «من حصافة الإنسان أن يكون الاستماع إليه أحبُّ من النطق إذا وجد ما يكفيه؛ فإنه لن يعدم من الصمت سلامة، وزيادة في العلم»[٢].

وقال بعض الحكماء: «من قدر على أن يقول فيحسن فإنه قادر على أن يصمت؛ فيحسن»[٣].

وقد يكون الصمت ثقيلاً مستثقلاً؛ كحال بعض الناس ممن يزوره الأضياف؛ فيستقبلهم بالصمت، ويجالسهم بالصمت، ويودِّعهم بالصمت.

وبخلاف من يلزم الصمت، ولكنه ثقيل على الحاضرين ثقلاً لا يقل عن ثقل من يُضْجِرون بالكلام، كصنيع بعض من يحضرون مجالس الضيافة، فتراهم يُعَجَّبون، ولا يتَعجَّبون، ويُفَكِّهون وهم منقبضون، وتذكر لهم بدائع العلم، ونفائسه، وغواليه ولا يطربون.

وكحال من يصمت في المجالس ولكنه يرى أنه خير من المتكلمين، وأنهم دون مرتبته، ولا ينبغي لهم أن يتكلموا بحضرته؛ لذا تراه لا ينظر إليهم إلا شزراً؛ فمثل ذلك الصمت ثقيل مستثقل بارد.

---

(١) المحاسن والأضداد ص٣٥.

(٢) المرجع السابق ص٣٥.

(٣) المرجع السابق ص٣٥.

وبالجملة فالصمت جميل في الأصل، ويزداد جماله إذا قرن بالتواضع، والتبسم، وإيثار الآخرين بالكلام.

ومن كانت هذه حاله فهو الخفيف على النفس، وهو الجدير بكل فضائل الصمت.

بل إنه عنصر أساس في مجلس الضيافة وغيره.

ولو أن جميع من في مجلس الضيافة كانوا يتكلمون لكان المجلس أشبه بالشجرة الكبيرة التي اجتمع فيها العصافير قبيل المغرب؛ فلا يكاد واحد منها يسكت.

فالمتحلُّون **بالصمت الجميل** في مجالس الضيافة هم جزء لا يتجزأ من جمالها، وجلالها؛ فلا يظن الواحد منهم أنه مجرد إكمال عدد، أو أن وجوده كعدمه، وحضوره كغيابه.

لا؛ بل إن وجوده إضافة للمجلس، وغيابه فقدٌ لعنصر أساس من عناصره.

ولئن كان جمال بعض الناس بالمنطق فإن جمال بعضهم بالصمت، ولئن كان الإعجاب ببعض المتكلمين في مجالس الضيافة كبيراً ـ فإن الإعجاب لا يكاد يقل عنه ببعض من يتحلَّون بالصمت الجميل.

«كان أعرابي يجالس الشعبيَّ، فيطيل الصمت؛ فسُئل عن طول صمته، فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم»[1].

وقال شاعر في مدح شخص:

---

(١) البيان والتبيين ١/١٩٤.

حَسَنُ الصَّمْتِ والمقاطع إما نطق القوم والحديث يدور[١]

وهكذا يتبين أن التحلي **بحسن الصمت** من أعظم ما ينبغي أن يراعى في أدب مجلس الضيافة.

٦ـ حسن الإنصات لمن يتكلم: وذلك بالإصغاء للمتكلم، والحذر من مقاطعته، أو منازعته الحديث، أو التشاغلِ عنه، أو الإشاحة بالوجه عن المتحدث، وإجالة النظر يمنة ويسرة.

فمن أدب المجالس، ومروءتها أن يحسن الإنسان الإصغاء لمن يتحدث، وأن يقبل عليه بِكُلِّيَّتِهِ؛ فالمتحدث البارع هو المستمع البارع، وبراعة الاستماع تكون بالأذن، وطرف العين، وحضور القلب، وإشراقة الوجه.

وهذا الأدب الجميل أدب عربي، وإسلامي عظيم بل هو مما تواطأت عليه الأمم في ماضيها وحاضرها.

وما أُتِي كثيرٌ من المجالس إلا من قلة الإصغاء لمن يتكلم، وما ارتقى كثير منها إلا بحسن الإنصات، وجميل الإصغاء.

ولذلك كان الأكابرَ يقدُرُون هذه الخصلة قَدْرَها، ويتواصون على لزومها، والأخذ بها.

قال ابن عباس ـرضي الله عنهماـ: «لجليسي عليَّ ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له في المجلس إذا جلس، وأن أصغي إليه إذا تحدث».[٢]

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٣.

(٢) عيون الأخبار ١/٣٠٦.

وقال عمرو بن العاص ﷺ : «ثلاثة لا أَمَلُّهم: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملت رجلي».[١]

وقال سعيد بن العاص ﷺ : «لجليسي عليَّ ثلاث: إذا أقبل وسَّعْتُ له، وإذا جلس أقبلت إليه، وإذا حَدَّثَ سمعتُ منه».[٢]

وقال الحسن رحمه الله : «إذا جالست فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتَعَلَّمْ حسن الاستماع كما تَعَلَّمُ حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه».[٣]

وقال أبو عباد: «للمحدِّث على جليسه السامع لحديثه أن يجمع له باله، ويصغي إلى حديثه، ويكتم عليه سره، ويبسط له عذره»[٤].

وإذا أثنوا على أحد بخصال حمد كان من جملتها اتصافه بهذه الخصلة الحميدة، ألا وهي حسن الاستماع لمن يتكلم.

«ذكر رجلُ عبدَالملكِ بن مروان فقال: إنه آخذ بأربع، تارك لأربع: آخذ بأحسن الحديث إذا حَدَّث، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأحسن البشر إذا لُقي، وبأيسر المؤونة إذا خولف.

وكان تاركاً لمحادثة اللئيم، ومنازعة اللجوج، ومماراة السفيه، ومصاحبة المأبون[٥]».[٦]

---

(١) عيون الأخبار ١/٣٠٧.

(٢) المنتقى من مكارم الأخلاق للخرائطي. انتقاء أبي الطاهر السلفي ص٥٤.

(٣) المنتقى من مكارم الأخلاق ص١٥٥.

(٤) زهر الآداب ١/١٩٥.

(٥) المأبون: المتهم بالسوء والذي يرمى بالقبيح.

(٦) عيون الأخبار ١/٣٠٧.

«وذكر الشعبيُّ قوماً، فقال: ما رأيت مثلهم أشدَّ تناوباً في مجلس، ولا أحسن فهماً من محدث».[١]

قال ابن منظور: «ذكر رجلٌ رجلاً فقال: هو أنصح[٢] خلق الله -تعالى- كلاماً إذا تحدث، وأحسنهم استماعاً إذا حُدِّث، وأمسكهم عند الملاحاة إذا خولف، يعطي صديقه النافلة، ولا يسأله الفريضة»[٣].

ثم إن حسن الإنصات لمن يتكلم من أعظم ما يرفع من قدر الإنسان، ويعلي منزلته عند الخاصة والعامة.

قال سعيد بن مسلم للمأمون: «لو لم أشكر الله -تعالى- إلا على حسن ما أبلاني من أمير المؤمنين من قصده إليَّ بحديثه، وإشارته إليَّ بِطَرْفه؛ لقد كان في ذلك أعظم الرفعة، وأرفع ما توجبة الحُرمة.

فقال -أي المأمون-: يفعل ذلك أمير المؤمنين لأن أمير المؤمنين يجد عندك من حسن الإفهام إذا حدَّثتَ، وحسن الفهم إذا حُدِّثت ما لا يجده عند أحد مما مضى، ولا يظن أنه يجده عند أحد ممن بقي؛ فإنك لتستقصي حديثي، وتقف عند مقاطع كلامي، وتخبر بما كنتُ أغفلتُه منه»[٤].

وكان أبو العباس السفاح معجباً أشد الإعجاب بأبي بكر الهذلي لحسن كلامه، وأدب إنصاته[٥].

---

(١) عيون الأخبار ١/٣٠٨.

(٢) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: أفصح.

(٣) المنتخب والمختار في النوادر والأشعار ص١٤٩.

(٤) زهر الأدب للحصري القيرواني ١/١٩٣.

(٥) انظر المستطرف ص١٣٢.

«وقيل: إن أبا العباس كان يحدثه يوماً إذ عصفت الريح؛ فأَرْمَتْ طستاً من سطح إلى المجلس؛ فارتاع مَنْ حضر، ولم يتحرك الهذلي، ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح؛ فقال: ما أعجب شانك يا هذلي!

فقال: إن الله يقول: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤] وإنما لي قلب واحد؛ فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال؛ فلو انقلبت الخضراء على الغبراء[١] ما أحسست، ولا وَجِمْتُ لها.

فقال السفاح: لئن بقيت لأرفعن مكانك؛ ثم أمر له بمال جزيل، وصلة كبيرة»[٢].

«وكان ابن خارجة يقول: ما غلبني أحد قطُّ غلبةَ رجلٍ يُصغي إلى حديثي»[٣].

ومما ينافي حسن الإنصات لمن يتكلم أمور عدة؛ منها الاستخفاف بحديثه، والمبادرة إلى إكماله عنه إما بقصد الإساءة إليه، أو لإشعار من في المجلس أن حديث ذلك المتكلم معاد مكرور، أو ليبين أنه علم بذلك الحديث من قبل.

وما ذلك الخلق بوصف أهل المروءة؛ إذ المروءة تقتضي الإنصات للمتحدث، ولو كان السامع عالم بذلك من قبل.

وإلى هذا المعنى الجميل يشير الحكيم العربي بقوله:

من لي بصحبة من إذا أغضبته ... وسخطتُ كان الحلمُ ردَّ جوابِه

---

(١) يعني لو وقعت السماء على الأرض.

(٢) المستطرف ص١٣٢.

(٣) المستطرف ص١٣٢.

وتـراه يصـغي للحـديث بسـمعه وبقلبـــه ولعلـــه أدرى بـــه[1]

قال ابن المقفع: «وإذا رأيت رجلاً يحدِّث حديثاً قد علمته، أو يخبر خبراً قد سمعته ـ فلا تشاركْه فيه، ولا تَتَعَقَّبْهُ عليه؛ حرصاً على أن يعلم الناس أنك قد علمته؛ فإن في ذلك خِفَّةً، وسوء أدب، وسخفاً»[2].

---

(١) هذان البيتان مشهوران، ولهما ثالث بينهما، وهو:

وإذا طربـت إلى المـدام سـكرتُ مـن أخلاقـــه وطربـــت مـــن آدابـــه

وتروى هذه الأبيات روايات مختلفة، ولعل أقدم من ذكرها: موفق الدين أبو محمد بن عبدالرحمن الشارعي الشافعي (ت٦١٥) في كتابه (مرشد الزوار إلى قبور الأبرار) القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٥هـ، ٥٢٨/١، ونسبها إلى أبي الفضل جعفر بن الفرات.

وتروى هذه الأبيات:

مـــن لـــي بإنســـان إذا أغضـــبته وجهلـــت كـــان الحلـــم ردَّ جوابـــه

وإذا صـــبوت إلى المـــدام شـــربت مـــن أخلاقـــه وســـكرت في آدابـــه

وتـــراه يصـــغي للحـــديث بســـمعه وبقلبـــه ولعلـــه أدرى بـــه

وقد اشْتُهِر أن هذه الأبيات لأبي تمام حتى ظُن أنها له؛ حيث نسب بعض المتأخرين هذه الأبيات لأبي تمام، ولعل مِنْ أشهرِ مَنْ نسبها إلى أبي تمام الإبشيهي في المستطرف من كل فن مستظرف، شرحه، ووضع فهارسه د. مفيد قميحة ص١٣١.

وتبع الإبشيهي على ذلك كثير من المتأخرين.

والحقيقة أن هذه الأبيات ليست لأبي تمام؛ حيث لا توجد في ديوانه في طبعاته وتحقيقاته المختلفة، لا في طبعة راجي الأسمر، ولا في النسخة الأندلسية من ديوان أبي تمام رواية أبي علي القالي الذي احتوى على ثمان وتسعين قصيدة منقولة من خط أبي تمام، دراسة وتحقيق د. عبدالله بن حمد المحارب.

وقد كنت أظن أنها لأبي تمام، ثم تبين لي أنها ليست له، وإنما هي لأبي الفضل جعفر بن الفرات.

(٢) الأدب الكبير والأدب الصغير ص١٣٦.

وقال: «ومن الأخلاق التي أنت جدير بتركها ـ إذا حَدَّث الرجل حديثاً تعرفه ألا تسابقه إليه، وتفتحه عليه، وتشاركه فيه؛ حتى كأنك تظهر للناس أنك تريد أن يعلموا أنك تعلم مثل الذي يعلم.

وما عليك إلا أن تُهنئه بذلك، وتفرده به.

وهذا الباب من أبواب البخل، وأبوابه الغامضة كثيرة»[١]

وقال ابن عبدالبر رحمه الله: «ومن سوء الأدب في المجالسة أن تقطع على جليسك حديثه، وأن تبتدره إلى تمام ما ابتدأ به منه خبراً كان أو شعراً تتم له البيت الذي بدأ به؛ تريه أنك أحفظ له منه، فهذا غاية في سوء المجالسة، بل يجب أن تصغي إليه كأنك لم تسمعه قط إلا منه».[٢]

وقال ابن جريج عن عطاء ـ رحمهما الله ـ: «إن الرجل ليحدِّثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه وقد سمعته قبل أن يولد».[٣]

ومما ينافي حسن الإنصات للمتكلم في المجالس المبادرة إلى تكذيبه؛ فمن الناس من إذا طرق سمعه كلامٌ غريب من متحدِّثٍ ما ـ بادر إلى تكذيبه، وتفنيد قوله، إما تصريحاً، أو تلميحاً، أو إشارةً باليد أو العين، وأن يهمز من بجانبه؛ ليشعره بأن المتحدِّث كاذب.

فهذا العمل من العجلة المذمومة، ومن إساءة الظن بمن يتحدّث، وهو مما ينافي كمال الأدب والمروءة.

---

(١) الأدب الكبير والأدب الصغير ص١٦٢.

(٢) بهجة المجالس ١/١٦٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/٨٦، وتذكرة السامع والمتكلم ص١٥٧.

فينبغي لمن استمع حديثاً من أحد ألا يبادر إلى تكذيبه، بل عليه أن يُنصت له، وإن رأى في هذا في الحديث وجهَ غرابةٍ فلا يستعجل الحكمَ عليه بالكذب، بل يستفصل من المتحدِّث، لعله يُبين له وجهته وأدلته.

ثم إن تأكد من كذبه فلينصح له على انفراد؛ لئلا يعاود الكذب مرةً أخرى.

فإن عاد إليه، واقتضت المصلحة أن يُبيَّن كذبه ـ فلا بأس حينئذ من ذلك؛ حتى يرتدع من تلك الخصلة الذميمة.

قال عبدالله بن عمرو بن العاص ـرضي الله عنهماـ: «ثلاثة من قريش أحسنها أخلاقاً، وأصبحها وجوهاً، وأشدها حياءً، إن حدثوك لم يكذبوك، وإن حدثتهم بحق أو باطل لم يَكْذِبوك، وإن حدَّثتهم بحقٍ أو باطل لم يُكذِّبوك: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة ابن الجراح».[١]

٧ـ الحذر من الحديث بما لا يناسب الحال، والمقام: فمجالس الضيافة تختلف أحوالها، ومقاماتها، وهناك من لا يأبه بذلك؛ فتراه يتكلم بالهزل في مواقف الجد، ويحاول إضحاك السامعين في مجلس يسوده الحزن.

قال ابن المقفع: «ولا تخلطن بالجد هزلاً، ولا بالهزل جداً، فإنك إن خلطت بالجد هزلاً هَجَّنْتَه، وإن خلطت بالهزل جداً كَدَّرْتَه.

غير أني قد علمت موطناً واحداً إن قدرت تتقبل فيه الجد بالهزل أصبت الرأي وظهرت على الأقران.

وذلك أن يتورَّدَك[٢] مُتوردٌ بالسفه، والغضب، وسوء اللفظ ـ تجيبه إجابة الهازل المداعب بِرُحْب من الذرع، وطلاقةٍ من الوجه، وثبات من المنطق».[٣]

---

(١) عيون الأخبار ٣/٢٣.

(٢) يتورَّدك: يحملك على أن تغتاظ أو تغضب؛ لتتخلى عن اتزانك.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ص١٣٣.

وقال: «واتق الفرح عند المحزون، واعلم أنه يحقد على المنطلق[١]، ويشكر للمكتئب».[٢]

ومن الناس من يخاطب الأذكياء بخطابٍ لا يناسب إلا قاصري العقول، وربما خاطب محدودي الذكاء والإدراك بكلام لا تدركه أفهامهم، وهكذا...

ومن هنا يفقد الكلام قيمته، ويصبح ضرباً من الهذيان، بل ربما عَرَّضَ صاحبه للمز الناس، وعيبهم إياه.

وإنَّ كلامَ المرءِ في غير كنهه لكالنبل تهوي ليس فيها نصالُها

قال الحصري القيرواني: «وذكر لعبدالله بن طاهر رَجُلٌ للمنادمة؛ فأحضره؛ فأقبل يأتي بالأشياء في غير مواضعها، فقال: يا هذا! إما أقللت فضولك، أو دخولك»[٣].

ومن الحديث بما لا يناسب المقام التعميم في الذم؛ فتجد من الناس من يغلب عليه جانب المبالغة في إطلاق الأحكام، فتراه يعمم الحكم في ذم طائفة، أو قبيلة، أو جماعة من الناس.

وهذا التعميم قد يوقعه في الحرج دون أن يشعر؛ فقد يكون من بين الحاضرين من يتناولهم ذلك الذم العام؛ فلا ينتبه المتكلم إلا بعد أن تقع الفأس بالرأس.

بل ربما عرض ذلك الذام نفسه للإساءة، فقد يسيء بصنيعه إلى شخص غضوب لا يتحمل الإساءة، فيقوده ذلك إلى الانتقام والتشفي، ورد الإساءة بمثلها، أو أشد.

---

(١) المنطلق: الذي يبدو الفرح على أساريره.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ص١٥٩.

(٣) جمع الجواهر ص١٣.

ولهذا كان من الأهمية بمكان أن يتفطن المرء لهذا الأمر، وأن يتحفظ من سقطات لسانه، وأن يتجنب كل ما يشعر بأدنى إساءة لأحد من الحاضرين؛ فذلك أسلم له، وأحفظ لكرامته.

قال ابن المقفع: «إذا كنت في جماعة قوم أبداً فلا تَعُمَّنَّ جيلاً من الناس، أو أمة من الأمم بشتم ولا ذم؛ فإنك لا تدري لعلك تتناول بعض أعراض جلسائك مخطئاً فلا تأمن مكافأتهم، أو متعمداً فتنسب إلى السفه.

ولا تذمن مع ذلك اسماً من أسماء الرجال أو النساء بأن تقول: إن هذا لقبيحٌ من الأسماء؛ فإنك لا تدري لعل ذلك غير موافق لبعض جلسائك، ولعله يكون بعض أسماء الأهلين والحرم.

ولا تستصغرن من هذا شيئاً؛ فكل ذلك يجرح في القلب، وجرح اللسان أشد من جرح اليد».[١]

قال الجاحظ: «وكانوا يأمرون بالتبين، والتثبت، وبالتحرز من زلل الكلام»[٢].

٨ـ الحذر من الحديث عند ممن لا يرغب؛ فمجالس الضيافة ـوخصوصاً الكبيرة منهاـ يغشاها فئام من الناس مختلفي المدارك، والميول.

ومن حسن النظر أن يستحضر من يريد الكلام مدى قبول الحاضرين له، ورغبتهم في حديثه؛ فإنوا كان راغبين فيه مقبلين عليه ـ فليتكلم، وإن كانوا غير ذلك فليمسك.

---

(١) الأدب الكبير والأدب الصغير ص١٦٢.

(٢) البيان والتبيين ١/١٩٧.

وتجد من الناس مَنْ قَدْ مَرَدَ على القِحة، وسَهُل عليه الهوانُ، فتراه يبذل نفسه للناس، فيتصدر الحديث في مجالسهم، وهم عنه لا هون، وله مستثقلون، ولحديثه غير راغبين.

ومع ذلك يستمر في جهله وغيه.

وهذا لا ينبغي، ولا يحسن من ذي المروءة.

«قال مُطرّف: لا تطعم طعامك من لا يشتهيه».[١]

وكان ابن مسعود ﷺ يقول: «حدِّثِ الناسَ ما حدَّجوك[٢] بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، فإن رأيت منهم فتوراً فأمسك».[٣]

وقال البيحاني: «وإذا رأيت من جليسك الإعراض عنك، أو الاشتغال بأمرٍ آخر ـ فلا تكلمه، ولا تكلفه الاستماع إليك».[٤]

وقال أحدهم:

يستوجب الصَّفْعَ في الدنيا ثمانيةٌ ... لا لومَ في واحدٍ منهم إذا صُفِعا

ثم ذكر منهم:

ومتحفٌ بحديث غير سامعه ... وداخلٌ في حديث اثنين مندفعا[٥]

٩ـ مجانبة التَّقَعُّر في الكلام: والتقعر أو التقعير في الكلام هو أن يتكلم المرء بأقصى قعر فمه؛ إظهاراً لفصاحته، وتميزه، وبراعته.

---

(١) عيون الأخبار ١/٣٠٧.

(٢) حدَّجوك: وجهوها نحوك.

(٣) زهر الآداب ١/١٩٥.

(٤) إصلاح المجتمع ص٣٦٠.

(٥) إصلاح المجتمع ص٣٦٠.

وذلك ممقوت مذموم؛ لما فيه من قصد التكلف البعيد عن الطبع، ولما يحويه من تتبع الوحشي الذي ينفر منه السمع، ولما يتضمنه من التشادق، والتعمق، والإغراق في القول.

ولئن كان التقعر في الكلام مذموماً في كل حين ومن كل أحد فهو أشد في مجالس الضيافة؛ إذ هي مجالس أنس، وراحة، واطّراح كلفة.

وذلك مما ينافيها، ويضفي عليها ثقلاً، وهماً، وغماً.

ولذلك كان الناس ينفُرون في مجالسهم من المتقعرين الثقلاء.

قال ابن القيم رحمه الله متحدثاً عن أمثال هذا الضرب من الناس: «ومنهم من مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها.

بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به؛ فهو يُحْدِثُ من فِيْهِ كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرّحا العظيمة، التي لا يطاق حملها، ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال: ما جلس إليّ ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يوماً عند شيخنا[1] -قدس الله روحه- رجلاً من هذا الضرب، والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إليّ وقال: مجالسة الثقيل حُمَّى

(١) يعني شيخه ابن تيمية.

الرَّبع ، ثم قال : لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى ، فصارت لها عادة ، أو كما قال »[١].

وذكر صاحب كتاب : (أخبار الثقلاء والمستثقلين) ضرباً من أخبار أولئك ، فمن ذلك قوله : «ذهب ثقيل ليعزي أناساً في ميت لهم ، فقال : (أجركم الله ، وإن شئتم : آجركم الله كلاهما سمعته عن الفراء!)»[٢].

وقال الحصري القيرواني في كتاب جمع الجواهر : «كان رجل من التجار له ولد يَتَقَعَّر في كلامه ، ويستعمل الغريب ، فجفاه أبوه؛ استثقالاً له ، وتبرماً به ، ومما كان يأتي به.

فاعتل أبوه علةً شديدة أشرف منها على الموت ، فقال : أشتهي أن أرى ولدي ، فأحضروهم بين يديه ، وأخِّر هذا ، حتى لم يبق سواه ، ثم قالوا له : ندعوا لك بأخينا فلان؟ فقال : هو ـ والله ـ يقتلني بكلامه ، فقالوا : قد ضمن أن لا يتكلم بشيء تكرهه!

فأذن لهم ، فلما دخل عليه قال : السلام عليك يا أبت ، قل : أشهد أن لا إلهَ إلا الله ، وإن شئت قل : أشهد أن لا إلهُ إلا الله ، فقد قال الفراء : كلاهما جائز ، والأولى أحب إلى سيبويه!

يا أبت ما شغلني عنك غير أبي علي؛ فإنه دعاني بالأمس : فأهرس ، وأعدس ، وأردز وأوزز ، وسكبج وسبج ، وزربح وطهبج ، وأبصل ، وأمصل ، ودجدج ، وافلودج ، ولوذج!

فصاح أبوه العليل : السلاح ، السلاح...!!

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم٢/٢٧٤ـ٢٧٥.

(٢) أخبار الثقلاء والمستثقلين ص٦٣.

صيحوا لي بجارنا الشماس؛ لأوصيه أن يدفنني مع النصارى، وأستريح من كلام هذا البندق»[١].

وكان يجالس أبا عبيدة مَعْمَر بنَ المثنى رجلٌ ثقيل اسمه زنباع؛ فكان كالشجا المعترض في حَلْقِه يتناكده، ويسيء خُلقه، فلا يتكلم أبو عبيدة بكلمة إلا عارضه بكثر جهلة، وقلة عقله.

فقال رجل لأبي عبيدة: مم اشتُقَّت الزَّنْبَعة في كلام العرب؟

فقال: من التثاقل، والتباغض، ومنه سمي جليسنا هذا زنباعاً[٢].

«والمصيبة أن كثيراً من الثقلاء، والمستثقلين لا يشعر بأنه كذلك، ولا يخشى أن يكون ثقيلاً.

وإلا لو علم الثقيل -كما قيل- أنه ثقيل لم يكن ثقيلاً، ولو خاف من أن يثقل لم يُثْقِل»[٣].

كما قال الشاعر:

لما تَخَوَّفْتُ ولا لوم أن ... تُدبرُ من ودِّك بالمقبل
أقْلَلْتُ من إتيانكم إنه ... من خاف أن يثقلَ لم يُثْقِلِ[٤]

وبالجملة فإن آداب الحديث في مجالس الضيافة كثيرة، والمقام لا يتسع للتفصيل فيها[٥].

---

(١) جمع الجواهر في الملح والنوادر ص١٣٨-١٣٩.

(٢) جمع الجواهر ص٢٩.

(٣) انظر عيون الأخبار ١/٣٠٩.

(٤) جمع الجواهر ص٢٩.

(٥) انظر تفصيل ذلك في كتابي أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة ص١٤٨.

ولا يعني ما مضى من الحديث على أدب الكلام في المجالس أن يكون الإنسان معصوماً، لا يخطئ، مبرأً من كل عيب ونقيصة؛ فلا يَزِلُّ بكلمة، ولا ينطق بسوء، لا، ليس المقصود ذلك.

وإنما المقصود أن يسعى الإنسان سَعْيَه لأن يتحلى بأجمل حلية، وأن يحرص على إعطاء تلك المقامات حقها.

ومع ذلك فلابد من وقوع الخطأ، والزلل في بعض الأحيان، وذلك لا ينقص من القدر؛ فلكل جواد كبوة، وقد أجمع الناس على أن أحداً لا يخلو من زلة، والله - بكرمه - ولي العفو والمسامحة بها؛ فلا يعاب ذو فضيلة لوقوعها منه.

وقد قيل: الشريف من عُدَّت سقطاته.

وقالوا: كل صارم ينبو، وكل جواد يكبو[١].

وقال النابغة الذبياني:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب[٢]

وقال يزيد بن خالد المهلبي:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلّها ... كفى المرءَ نبلاً أن تُعَدَّ معايبُه[٣]

---

(١) انظر المنتخب والمختار في النوادر والأشعار لابن منظور ص٤٤٣-٤٤٤.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم عباس عبدالساتر ص٢٨.

(٣) التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص٩٣، ونهاية الأرب للنويري ٣/٩٠.

ومع ذلك فكثيراً ما ينسب هذا البيت لبشار بن برد؛ إذ يُشتبه أنه من ضمن رائعته البائية في مدح مروان ابن محمد بن مروان، ويمدح قيس عيلان، والتي يقول طالعها:

جفا ودُّه فازْوَرَّ أوْ مَلَّ صاحبُه ... وأزرى به ألا يزال يعاتبه

والتي منها:

إذا كنت في كل الذنوب معاتباً ... صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه

فعِش واحداً أو صِل أخاك فإنه ... مفارقُ ذنبٍ مرة ومجانبه

وروي: إذا كنت في كل الأمور...، و: مقارف ذنب... انظر ديوان بشار بن برد تقديم، وشرح، وتكميل: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ١/٣٠٥-٣٢٣.

وبيت المهلبي -في الحقيقة- متلائم منسجم مع أبيات بشار معنىً، وبحراً، وقافيةً، ورَوِيًّا؛ لذا ينسب كثيراً لبشار، ولكنه ليس له، ولا يوجد في ديوانه.

وقد قرئ على الإمام أحمد بن يحيى -ثعلب- من كتاب ابن الأعرابي خطأً فردَّه، فقيل: إنه بخطِّه، فقال: هو خطأ، قيل: يُغَيَّر؟ قال: دعوه؛ ليكون عذراً لمن أخطأ[١].

وذُكر أبو الشيص -الشاعر- يوماً في مجلس الرياشي؛ فقال: أخطأ أبو الشيص في بيت واحد أربعة أماكن، وهو قوله:

أشاقك والليلُ ملقي الجرانِ غرابٌ ينوحُ على غُصن بانِ

فالكلام شاقك لا غير؛ فجعل أفعل مكان فعل، وذكر أن الذي شاقه بالليل غرابُ، والغرابُ لا يصيح بالليل، فقال: غراب يصيح على غصن بان، وغصن البان أضعف من أن يحمل غراباً[٢].

فالعبرة -إذاً- ليست في الخطأ العارض، وإنما هي في العوج المستمر، وفي الخطأ الذي يصر صاحبه عليه، ولا يسعى إلى علاجه.

---

(١) انظر المنتخب والمختار ص٤٤٤.

(٢) انظر المرجع السابق ص٤٤٩.

الرابعة والأربعون: العناية بطعام الضيافة

فطعام الضيافة، أو ما يسمى بـ: القِرى، أو قِرى الضيف ـ رُكْنٌ أعظمُ في الضيافة، بل يكاد يكون في بعض الأوقات، والأحوال أهم ما في الضيافة؛ فلا غرو أن تكون العناية به، وبأدبه، وطريقة إعداده، وتقديمه، ومقداره، وحسن صُنعه، وملاءمة مكانه ـ جزء أصيل لا يتجزأ من الضيافة.

ولهذا تكاثرت الأحاديث في إطعام الطعام، حاثةً عليه، مبينةً فضلَه، وما يترتب عليه من عظيم الجزاء.

قال النبي ﷺ: «**أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[(١)].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «**إيمان بالله، وتصديق به، وجهاد في سبيله، وحج مبرور**».

فلما ولى دعاه، فقال: «**وأهون من ذلك: إطعام الطعام، ولين الكلام**»[(٢)].

وعن صهيب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خياركم من أطعم الطعام**»[(٣)].

وقال ـعليه الصلاة والسلامـ: «**إن من موجبات المغفرة إطعامَ الطعام، وبذلَ السلام**»[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجة (١٣٣٤)، والطبراني في مكارم الأخلاق (١٥٣).

(٢) رواه أحمد (٢٢٧١٧) والطبراني في مكارم الأخلاق (١٥٤).

(٣) رواه أحمد (١٨٩٤٣) والطبراني في الكبير (٧٢٩٧).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٤٦٩) والخرائطي في مكارم الأخلاق (١٤٦).

وقال ﷺ: «**أحب الطعام إلى الله -عز وجل- ما كثرت عليه الأيدي**»[١].

وبالجملة فإن الكلام على فضل إطعام الطعام يبدأ، ولا يكاد ينتهي، وقد أفرد العلماء في مصنفاتهم في الحديث أبواب لذلك، ومنهم الإمام الطبراني، حيث أفرد باباً في كتابه مكارم الأخلاق سماه (فضل إطعام الطعام).

وساق فيه ثمانية وثلاثين من الأحاديث والآثار في ذلك[٢]؛ فكيف إذا اجتمع مع إطعام الطعام أن يكون في ضيافة؟!

وهذا ما فهمه سلفنا الصالح -رضي الله عنهم-، فعن محمد بن بشر عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «لأن أجمع أناساً من أصحابي على صاعٍ من طعام أحبُّ إلي من أن أخرج إلى السوق؛ فأشتري نسمةً؛ فأعتقها»[٣].

وسيأتي مزيد بيان، وذكر لشيء من الأخبار في ذلك الشأن فيما يلي من أسطر.

هذا وإن العناية بطعام الضيافة شاملة للمضيِّف، والضيف على نحو ما سيأتي تفصيله.

فمن العناية بطعام الضيافة ما يلي:

١ ـ العناية بجودة الطعام المقدم: وذلك بأن يعنى المضَيِّف بجودة الطعام المُقَدَّم، وحُسْنِه، وإجادةِ صنعه، ومقداره وكفايته للضيفان بحسب الحال؛ فذلك دليل الكرم، وحسن الضيافة.

وبعض الناس لا يُعنى بذلك؛ فلا يبالي بما يقدمه للضِّيفان؛ فقد يقدم رديء الطعام مع قدرته، ويساره.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٩١٧٥) والطبراني في مكارم الأخلاق (١٦١)، وحسنه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٨٥٣/١، والألباني في الصحيحة (٨٥٩).

(٢) انظر مكارم الأخلاق للطبراني ص٢٣٩-٢٦٠.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٦٦) والطبراني في مكارم الأخلاق (١٧١).

وقد لا يحرص على حسن صنعه، وإعداده؛ لقلة مبالاته بذلك، وإنما يقدمه في أي صورة كانت.

وكل ذلك تقصير في حق الضيافة.

ولهذا كان الأكابر يُعْنَون بتقديم أجود الطعام لضيوفهم، ولو كانت ضيافتهم مستمرة.

أخرج الطبراني في مكارم الأخلاق عن يونس بن عمرو عن أبيه قال: «بَعَثَتْ امرأةُ الحسين بن علي ﷺ إليه: أنا قد صنعنا لك من الطعام طيِّباً، وصنعنا لك طِيباً؛ فانظر أكفاءك؛ فائتنا بهم؛ فدخل الحسين ﷺ المسجد؛ فجمع السُّوَّال الذين فيه، والمساكين؛ فانطلق بهم إليها؛ فأتاها جواريها، فقلن لها: قد -والله- جلب عليك المساكين.

ودخل الحسين بن علي ﷺ على امرأته، فقال: «أعزم عليك بما كان لي من حق ألا تدَّخري لي طعاماً، ولا طيباً؛ ففعلَت؛ فأطعمهم، وكساهم، وطيَّبهم»[(١)].

وقال ابن عون ﷺ: «ما أتينا محمد بن سيرين في يوم قط إلا أطعمنا خبيصاً[(٢)]، أو فالوذجاً[(٣)]»[(٤)].

وقال أبو خلدة ﷺ: «دخلنا على ابن سيرين، فقال: ما أدري ما أتحفكم به؛ كلكم في بيته خبز ولحم، ثم قال: يا جارية هاتي تلك الشهدة[(٥)]؛ فجعل يقطع، ويطعمنا»[(٦)].

---

(١) (١٧١).

(٢) الخبيص: الحلواء المخبوصة -المخلوطة- من التمر، والسمن، والجمع: أخبصة.

(٣) الفالوذج: نوع من الحلواء تعمل من الطحين، والماء، والعسل، وجمعها: فواليذ، وفالوذجات.

(٤) مكارم الأخلاق للطبراني (١٨١).

(٥) الشهدة: هي القطعة من عسل النحل قبل أن يعصر.

(٦) مكارم الأخلاق للطبراني (١٨٢).

يحدثني الشيخ محمد الموسى مدير مكتب سماحة الإمام الكريم الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمهما الله- أن سماحة الشيخ يوصيهم دائماً باختيار الجيد من الطعام، ويقول لنا: لا تَدْنُ نفوسكم؛ اشتروا أجود الطعام، وأحسنه.

وكان يعتب عليهم إذا اشتروا طعاماً متوسطاً.

وكان يوصي طباخ المنزل بإحسان الطبخ، وإجادته.

ولذا يجد من يحل ضيفاً عنده أن طعامه لذيذٌ مستساغ، محبب للنفوس.

٢- العنايةُ بمجلس الضيافة المخصص للطعام: بحيث يكون ملائماً للمدعوين؛ فلا يدعو المضيِّفُ الكثرةَ الكاثرة في مكان ضيق؛ لا يتسع لهم، ولو أتى بعضهم بعد بعض.

٣- العناية بمقدار الطعام: فلا يَحْسُن أن يدعو الكثيرين، ثم يصنع لهم طعاماً لا يكفي بعضهم.

يحدثني أحد أهل العلم والفضل أن أحد الناس يتحيَّن قدوم عالم إلى بلدهم؛ فيأتي إليه؛ فيلح عليه بأن يحل ضيفاً عنده على غداء أو عشاء، فإذا وافق ذلك العالم دعا المضيِّف مجموعةً من الناس.

وبعد أن يجهز الطعام يدعونا جميعاً إليه؛ فإذا جلسنا على الطعام ضقنا ذرعاً؛ حيث لا يعد إلا صحناً واحداً؛ فإذا استدرنا عليه ضيَّق بعضنا على بعض؛ فلا نكاد نصل إلى الطعام إلا بشق الأنفس.

وربما اضطر بعضنا إلى القيام دون أن يأكل شيئاً.

يقول محدثي: «وهذه حال صاحبنا دائماً مع أضيافه».

ولا ريب أن ذلك قصورٌ، وتقصيرٌ، وجهل في حق الضيافة؛ فإن كنت قادراً على إكرام ضيوفك كما ينبغي فلا تُقَصِّر في ذلك.

وإن لم تكن قادراً فلا تكلف نفسك ما لا تطيق، ولا تجلب الحرج، والكدر لأضيافك.

وكذلك الإسراف المبالغ فيه؛ بحيث يُقَدَّم طعامٌ كثيرٌ جداً يقصد به المباهاة، ثم يُرمى، ولا يؤكل منه إلا أقل القليل؛ فذلك داخل في قبيل المذموم.

٤ـ **الجلوس في المكان اللائق**؛ فلا يليق بإنسان صغير في السن، أو القدر، أو المكانة ـ أن يتخطى الناس حال تقديمهم إلى مجلس الطعام؛ فيجلس في مكان مخصص لأكابر الضيوف؛ فإن ذلك يزري به، ويحط من قدره.

وكذلك لا ينبغي لضيف ذي مكانة أن يتأخر، ويتباطأ كثيراً؛ فيوقع المضيِّفُ في الحرج؛ حيث يريد المضيِّف إجلاسه في مكان يليق به، وهو يتأخر عن المجيء، فيجد المكان الذي أعد له قد جُلِس فيه، فيحار المضيِّف: هل يقيم من جلس فيه؟ أو أن يُجْلِسَ الضيف الكبير في مكان لا يليق به؟ فالذي ينبغي للضيف أن يلين بيد مضيِّفه، وأن ينزل على حكمه.

٥ـ **حسن الأدب حال تناول الطعام**؛ بحيث يسمي الأكل قبل الآكل، ويأكل ويشرب بيمينه، ويتجافى أن يصدر منه ما يؤذي الحاضرين من تجشأ، وتمخط، وكثرة سعال؛ فإن ذلك ممقوت في كل مجلس، وهو في مجلس الطعام أشد[1].

ويشتد الأمر إذا صدر من عاقل صحيح الجسم، قادر على أن يتلافى ذلك.

ويُعْذَر في ذلك من كان كبير السن، أو مريضاً، أو ثقيل الحركة.

٦ـ **حسن مراعاة المضيِّف لأدب مجلس طعام الضيافة**: فمن ذلك أن يكثر من الترحيب بالحاضرين بين الفينة والأخرى بما يليق، وأن يحذر من نهرهم،

---

(١) انظر أخبار الثقلاء والمستثقلين ص٢٤ـ٢٦.

وزجرهم، خصوصاً إذا رأى اثنين أو أكثر يتهامسون، أو يتجاذبون أطراف الحديث؛ حيث تجد من بعض من لم يفهم من معنى الإكرام إلا إطعام الطعام إذا رأى أمثال هؤلاء زجرهم، وقال لهم: دعوا الكلام، وتفرغوا للأكل.

ومن أدبه ألا يكثر الإلحاح على الضيوف بأكل طعام معين، أو شرابٍ معين إلا إذا تأكد من حيائهم ورغبتهم في ذلك الطعام والشراب.

ومن أدبه -أيضاً- أن **يلاحظ ما نقص على الأضياف** دون أن يشعروا بذلك؛ فإذا نقصهم شيء، أو احتاجوا إلى مزيد طعام أو شراب معين فليبادر إلى إحضاره، وأن يكون ذلك بذوق، وحُسنِ تأتٍّ، حتى لا يشعر الضيف أنه تحت المراقبة التامة، وأن أنفاسه تحصى عليه.

وقد ذكر ابن قتيبة في عيون الأخبار أن أحد الولاة أجلس رجلاً على مائدة يؤاكله، فأبصر في لقمة الرجل شعرة؛ فقال: خذ الشعرة من لقمتك.

فقال له الرجل: وإنك لتراعيني مراعاة من يبصر الشعرة في لقمتي؛ والله لا أكلت معك أبداً، ثم خرج الرجل وهو يقول:

وللموت خير من زيارة باخلٍ ... يلاحظ أطراف الأكيل على عَمْدِ[1]

ومن أدب المضيِّف **ألا يمدح طعامه إلا إذا استدعى** المقام ذلك؛ كأن يُسْأَلَ عن نوع ذلك الطعام، أو أن يريد بذلك أن يرغب الضيوف فيه.

أما مجرد مدح الطعام دون سبب يدعو إلى ذلك فممقوت مذموم، قال أحدهم في ذم بعض البخلاء:

ويَمْدَحُ المِلحَ لأصحابه ... يقول هذا مِلْحُ سيرافِ[2]

---

(١) انظر عيون الأخبار ٣/٢٢١.

(٢) سيراف بلد في إيران. انظر المحاسن والأضداد ص١٠٢.

بخلاف مدحِ الضيفِ طعامَ مضيِّفه، وإشادته بجودة صنعه؛ فإن ذلك من مكارم الأخلاق، ومما يدخل السرور على المضيف وأهل بيته.

ومن أدب المضيف **ألا يستكثر ما يقدمه لأضيافه**، وألا يتحدث في مجلس الطعام بالأحاديث التي تحث على الحِمْيَة، وتحذر من البِطنة، وتوحي بإقلال الطعام، ونحو ذلك.

ومن الأدب في ذلك إذا كان المجلس كبيراً، والضيوف كثراً ـ **أن يجعل من يقوم على خدمة الضيوف** من الأولاد، أو الخدم، أو غيرهم، وهم من يعرفون عند الأوائل بـ: النُّدْل، وهم خدم الدعوة، وسمو بذلك؛ لأنهم ينقلون الطعام إلى من حضر الدعوة.

وإذا قام صاحب الضيافة بالخدمة بنفسه، أو قام بذلك من ينوب عنه ـ فلا ينبغي للضيف أن يرد ذلك النوع من الكرامة، بل يحسن أن يتقبلها بقبول حسن، وأن يشكر لمن يقوم بالخدمة.

قال التابعي الجليل ثابت البناني رحمه الله: «جئت إلى أنس بن مالك رضي الله عنه؛ فلما تعشينا جاء الغلام بالطست، فوضعه بين يدي أنسٍ؛ فأخذه أنس، ووضعه بين يدي؛ فرددته إليه، فقال لي: يا ثابت! إذا دخلت على أخيك المسلم؛ فأكرمك فاقبل كرامته؛ حيث أجلسك فاجلس، وما قدَّم إليك فَكُلْ؛ فإن المؤمن إنما يكرم ربَّه ـعز وجلـ»[1].

ومن أدب صاحب الضيافة **مؤانسة ضيوفه حال الطعام**، والتحدث معهم، وفتح شهيتهم للطعام.

---

(١) لباب الآداب ص٨١ـ٨٢.

قال ابن قتيبة: «وعن الجارود بن أبي سبرة قال: قال لي بلال بن أبي بردة: أتحضر طعام هذا الشيخ -يعني عبدالأعلى بن عبدالله بن عامر-؟.

فقلت: إي والله، فقال: حدثني عنه، فقال: نأتيه -وكان سِكِّيتاً-[١] إن حدَّثنا أحسن الحديث، وإن حدثناه أحسن الاستماع؛ فإذا حضر الغداء جاء خَبَّازُه؛ فَمَثَلَ بين يديه، فيقول: ما عندك؟ فيقول: بطةٌ بكذا، ودجاجة بكذا وكذا.

قال: وما يريد بذلك؟ قال: يحبس كل إنسان نفسه إلى ما يشتهي؛ فإذا وضع الخِوان[٢] خوَّى تَخْوِيَة الظليم[٣]؛ فما له إلا موضع مُتَّكئه؛ فيجِدُّ، ويهزل، حتى إذا رآهم فتروا، وكَلُّوا - أكل معهم أكل الجائع المقرور[٤]، حتى ينشِّطهم بأكله»[٥].

وكانوا إذا أثنوا على أحدٍ بالكرم، وإطعام الطعام أردفوا ذلك بكونه حَسَن الكلام؛ فذلك أبلغ في كرمه، وأكمل في سؤدده.

أخرج الطبراني في (مكارم الأخلاق) عن عمرو بن دينار قال: «كان ابن عباس ضخم القصعة، حسن الحديث»[٦].

وللشماخ في عبدالله بن جعفر:

---

(١) يعني أنه كثير السكوت، قليل الكلام.

(٢) المائدة.

(٣) الظليم: ذكر النعام.

(٤) المقرور: الذي أصابه القر، وهو البرد.

(٥) عيون الأخبار ٣/٢١٥.

(٦) مكارم الأخلاق (١٧٣).

إنـك يـا ابـن جعفـرٍ خـير الفتـى وخيرهـــم لطـــارقٍ إذا أتـــى
وَرُبَّ نِضْـوٍ طـرق الحـيَّ سُـرى صـادف زاداً وحـديثاً مـا اشـتهى
إن الحـديث جانـب مـن القِـرى ثـم اللحـاف بعـد ذاك في الـدُّرا[1]

وكـان شـيخنا عبـدالعزيز بـن بـاز رحمه الله يجلـس مـع ضـيوفه علـى الطعـام؛ ويؤنسهم، ويأكل معهم، ويجيب عن أسئلتهم.

وإذا كان مجهداً، أو لم يكن له رغبة في الطعـام ـ جلـس معهـم؛ إيناسـاً لهـم، وتطييباً لنفوسهم، خصوصاً إذا رغبوا في ذلك.

يقول مدير مكتب بيته الشيخ محمد الموسى رحمه الله في معرض كلام له حول هذا الموضوع: « ومن القصص العجيبة في هذا الشأن قصة حصلت قبل سنتين من وفاة سماحته أي لما كان عمره ثمانيةً وثمانين سنة.

ففي يوم خميس لم يأت سماحته من المسجد مـن درس الفجـر إلا في السـاعة التاسعة صباحاً، أي أن الدرس قد استمر مدة ثلاث سـاعات أو تزيـد، وجلـس للناس كعادته من الساعة الحادية عشرة إلى الساعة الثانية والنصـف بعـد الظهـر، ولا يخفى عليك أيها القارئ صفة مجلسه ومـا يُنْجَـز فيـه مـن الأعمـال العظيمـة، ويُسْتَقبل من البَشَرِ المُخْتَلِفِي الجنسيات، والطباع، والمطالب.

وكان سماحة الشيخ في ذلـك اليـوم مجهـداً متعبـاً، فلمـا وُضِـعَ طعـامُ الغـداء تقدمهم، وقال وهو واقف: تفضلوا للغداء، حياكم الله، فلما جلسوا قـال: أمـا أنـا فسـامحوني لأنـني لا رغبـة لـي في الطعـام، فقـال أحـدهم وبصـوت مرتفـع:

---

(١) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، حققه وشرحه صلاح الدين الهادي ص٤٦٤ـ٤٦٧، وانظر بهجة المجالس ١/٢٩٨.

يا شيخ! نحن لم نأت للأكل، وإنما أتينا من أجل الجلوس معكم، والتحدث إليكم؛ فإما أن تجلس وإلا فلن نأكل.

فلما سمع ﷺ ذلك، والناس على الطعام يقرب عددهم من المائة جلس معهم يباسطهم الحديث، ويجيب عن أسئلتهم، ولم يأكل شيئاً من الطعام، فلما انتهوا استأذنهم، ودخل المنزل»[١].

ومن أدب المضيِّف **ألا يعجل الضيوف** كأن يقوم بين الفينة والأخرى قائلاً: الحمد لله، أو نحو ذلك مما يشعر الضيوف بأن ينتهوا من الطعام.

ومن **كلمات العرب، واصطلاحاتهم** في الضيافة: **المرجفان، وهما الطست، والإبريق**؛ لأن لهما صوتاً يحْدُثُ بِنَقْرِ أحدهما بالآخر؛ فكأن ذلك الصوت يُرجف؛ أي يخبر بتمام الطعام، والحث على القيام[٢].

قال أبو بكر الصفَّار: «حضر مجنون بالكوفة قوماً؛ فجلس يأكل؛ فجعل الغلام يحرك الطست، والإبريق، فقال: من ذا الذي يُرْجِف بنا قبل انتهاء عملنا؟»[٣].

وفي مقامات الحريري ـالمقامة النُّصيبيةـ: «وإياك واستدناء المُرْجِفَينِ قَبْل استقلال حمول البين»[٤].

فقوله: (استقلال حمول البين): أي إبل الفراق، ويريد بها الموائد؛ لأنها إذا ارتفعت تفرق أهل المجلس؛ فيقول: إياك أن تقربهما ـأي الطست، والإبريقـ قبل أن ترتفع الموائد؛ فيتهيأ الناس للغسل والانصراف[٥].

---

(١) انظر عادات عربية ص١٢٢.

(٢) جوانب من سيرة الإمام عبدالعزيز بن باز ص١٨٦.

(٣) عادات عربية ص١٢٢.

(٤) مقامات الحريري ـالمقامة النُّصيبيةـ ص١٦٩.

(٥) انظر عادات عربية ص١٢٣.

وكان شيخنا الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله لا يقوم من المائدة حتى يسأل عن ضيوفه: هل قاموا؟

فإذا قيل له: قاموا: قام؛ كيلا يُعْجِلهم بقيامه قبلهم، وإذا قام قبلهم قال: كُلٌّ براحته، لا تستعجلوا.

٧ـ حسن مراعاة الضيف لأدب الطعام في الضيافة: فمن أدبه في ذلك تجنب الملاهَسَةِ، وهي المزاحمة على الطعام حرصاً؛ فذلك دليل الشَّرَهِ، وعنوان الأثرة[١].

ومن أدبه ـأيضاًـ **ألا يأكل أكل الشَّرِهِ** النَّهِم العجول؛ فلا تراه يرد على أحدٍ؛ خشية أن يفوته شيء من الطعام.

أوصى أحدُ مَنْ هُمْ على هذه الشاكلة بوصية قال فيها: «إذا كنت على مائدة؛ فلا تَتَكَلَّمَنَّ في حال أكلك، وإن كلمك مَنْ لابد لك من جوابه فلا تُجِبْهُ إلا بقولك: نعم؛ فإن الكلام يشغلك عن الأكل، وقولك: (نعم) مَضْغَة»[٢].

هذا ويعظم أمرُ الشَّرَهِ، والنَّهَم إذا كان الطعام قليلاً، والآكلون جوعى؛ فإن ذلك أثرة، وشحٌّ، وإن الإقلال من الأكل ـوالحالة هذهـ إيثارٌ وتَفَضُّل، وفي مِثْل ذلك يقول حاتم الطائي:

وإني لأستحيي حياءً يُشفُني ... إذا القوم أمسوا مرملي الزاد جوَّعا
إذا كان أصحاب الإناء ثلاثة ... حَيِّياً ومستحياً وكلباً مُجشَّعا
وإني لأستحيي صحابيَ أن يروا ... مكان يدي في جانب الزاد أقرعا

---

(١) انظر حكم وأخلاق عربية ص٢٦٠ـ٢٦١.

(٢) يعني أن كلمة (نعم) لا تقطعه عن المضغ؛ فهي مجرد رفع فيه، ثم خفضه، وذلك على هيئة المضغة. انظر المنتخب والمختار ص٥٣١ـ٥٣٢.

وقوله: (أقرعا) يعني من عدم الطعام؛ كناية عن كثرة الأكل.

أُقَصِّر كفي أن تنال أكُفُّهم ... إذا نحن أهوينا وحاجاتنا معا

وإنك مهما تُعْطِ بطنك سُؤْله ... وفَرْجَكَ نالا منتهى الذل أجمعا

أبيت خميصَ البطن مُضْطَمِر الحشا ... حياءً أخاف الذم أن أتضلّعا[1]

وقال الأحنف بن قيس رحمه الله: «وإن من المروءة أن يترك الرجلُ الطعامَ وهو يشتهيه»[2].

وقال الشَّنْفَرى في قصيدته الباذخة المعروفة بـ: لامية العرب:

وإن مُدَّتِ الأيدي إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجلُ[3]

وقوله: (وإن مدَّت الأيدي إلى الزاد لم أكن ...): هو في هذا البيت أولُ أو مِنْ أَوَّلِ من أشار إلى هذا المعنى المليء بالتكرم، والتفضل، والإيثار.

وقد اعتنى الشراح به، وأولوه اهتمامهم.

قال الزمخشري في شرح البيت: «الجشع: أشد الحرص، والماضي: جَشِع: بكسر الشين»[4].

وقال المبرد: «أجشعهم: أحرصهم على الطعام»[5].

---

(١) انظر ديوان حاتم الطائي ص٥٩، والبيان والتبيين ٣/٢٠٧، والفاضل للمبرد ص٤١، وعيون الأخبار ١/٣٤٣.

(٢) عيون الأخبار ٣/٢٢٠.

(٣) بلوغ الأرب في شرح لامية العرب: الزمخشري ـ المبرد ـ العكبري ـ ابن زاكور العربي ـ ابن عطاء المصري ـ جمع وتحقيق: محمد عبدالحكيم القاضي، ومحمد عبدالرازق عرفان، ص٧٨، و٨١.

(٤) المرجع السابق ص٧٨.

(٥) المرجع السابق ص٧٨.

وقال ابن زاكور: «الأجشع بتقديم الجيم على الشين: الأكثر جَشَعاً، وهو أشد الحرص، وأسوأه، وأن يأخذ الإنسان نصيبَهُ، وعينُه على نصيب غيره.

يقول: إذا أجشع الناس على زادهم، ومدوا أيديهم لتناوله لم أكن أنا أكثرهم عجلاً إليه بأن أسبقهم إلى ذلك جميعهم.

أما سبق بعضهم فقط -كما إذا سبق بعضُ الآكلين الجميع، فتلاه بعضهم على الفور قبل غيره- فإن ذلك لا يعد عيباً، بل ربما يكون من مكارم الأخلاق؛ لما فيه من رَفْعِ الجَشْعَةِ عن السابق بإيناسه بذلك.

ولذلك نفى عنه الأعجلية دون مطلق العجل؛ فإنه لا يكون من الزلل، ولا يكون صاحبه مخطئاً؛ فَيُدعى على أمه بالهبل»[١].

وقوله: (إذ أجشع القوم أعجل): قال ابن زاكور: أي أشد القوم حرصاً على الطعام؛ لشدة نهمه أشد عجلاً إلى مد اليد إلى الزاد»[٢].

ولهذا قال في البيت الذي يليه مبيناً سبب بعده عن العجلة في مَدِّ اليد إلى الطعام بحضرة الجمع من الأكلة عليه:

وما ذاك إلا بسطة عن تَفَضُّلٍ عليهم وكان الأفضل المتفضلُ

قال الزمخشري: «البسطة: السعة، والفضل، والإحسان.

والأفضل: الذي يفضل غيره.

والمتفضل: الذي يدَّعي الفضل على أقرانه»[٣].

---

(١) المرجع السابق ص٨٠.

(٢) المرجع السابق ص٨٠.

(٣) المرجع السابق ص٨١.

وقال ابن زاكور العربي: «البسطة هنا: السماحة، والسعة في الكرم»[١].

إلى أن قال: «والمعنى: وليس انقباض يدي عن تناول الزاد قبلهم لعلةٍ سوى سماحة ناشئةٍ عن إحسان إليهم، أو سوى سعةٍ في إحسانٍ إليهم؛ فـ (عن) بمعنى (في) على هذا التقدير الآخر.

وكان المتفضل: أي المحسن الأفضل: بالنصب على أنه خبر كان مقدماً على اسمها»[٢].

وكل ذلك من أرفع أدب الضيف على الطعام.

٨ـ الحذر من قلة العناية بطعام الضيافة: فكما أن الجود بالطعام، وحسن إعداده للضيفان من أعظم ما يمدح به الإنسان ـكما مرـ فعكسه تماماً قلة العناية بطعام الضيفان، والتقصير في إعداده؛ فذلك من أعظم ما يذم ويهجى به.

قال ابن مفلح: «قال ابن عبد البر: قيل للأوزاعي: رجل قدَّم إلى ضيفه الكامخَ[٣] والزيتون، وعنده اللحم، والعسل، والسمن؛ فقال: هذا لا يؤمن بالله واليوم الآخر»[٤].

يشير بذلك إلى أنه لم يأخذ بقول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»، وأن ذلك الإنسان لم يقم بالإكرام كما ينبغي مع قدرته.

وقال آخر يذم من يقدم رديء الطعام لأضيافه:

---

(١) المرجع السابق ص٨٢.

(٢) المرجع السابق ص٨٢.

(٣) الكامخَ: ما يؤتدم به من المخللات المشهية، والجمع: كوامخ.

(٤) بهجة المجالس ١/١٩٥، والآداب الشرعية لابن مفلح ٢/١٠٦.

أتينـــا أبـــا طـــاهر مفطـــرين إلى داره فرجعنـــــا صـــــياما
وجـــاء بخبـــز لنـــا حـــامضٍ فقلـت: دعـوه وموتـوا كرامـا[١]

وقال أبو ذؤيب مُتَبَرِّئاً من هذه الخصلة:

لا درَّ دَرِّيَ إن أطعمـــت نـــازلهم خُبْـزُ الشـعيرِ وعنـدي البُـرُّ مكنـوز[٢]

كما أن مادة البخل من أعظم ما يهجى به عند العرب، خصوصاً من يستأثر بالطعام دون أضيافه، وجيرانه.

قال الثعالبي: «قال بعض الرواة: أهجى بيت قالته العرب قول الأعشى:

تبيتـون بالمشـتى مِـلاءً بطـونُكم وجـاراتُكم غرثـى يـبتن خمائصـا[٣]

يعني أنكم تبيتون الليلة الشاتية وقد امتلأت بطونكم من الطعام، وجاراتكم الضعيفات خُمْصَ البطون يبتن على الطوى؛ فأين أنتم، وأين المكارم؟!.

وقيل أهجى بيت -أيضاً- قول الأخطل يهجو جريراً وقومه:

قـومٌ إذا استنبح الأضياف كلبَهُم قـالوا لأمِّهِـمُ بـولي علـى النـار[٤]

وكان جرير يألم كثيراً لهذا البيت.

وقال آخر يهجو بخيلاً:

اســـتبق ودَّ أبـــي المقـــا تـــل حـــين تأكـــل مـــن طعامـــه
ســـيان كســـر رغيفـــه أو كســـر عظـــمٍ مـــن عظامـــه

---

(١) المحاسن والأضداد ص١٠٣.

(٢) بهجة المجالس ١/٢٩٥.

(٣) أحسن ما سمعت للثعالبي ٢٤٦.

(٤) ديوان الأخطل ص١٦٦.

فتراه من خوف النزيـ ... ـل به يروَّع في منامه

فإذا مررت ببابه ... فاحفظ رغيفك من غلامه[١]

وقال آخر في ذم بخيل:

سيان أكلُ الخُبزِ في داره ... وقلع عينيه بخطَّاف[٢]

وقال بعض الشعراء:

يا تارك البيت على الضيف ... وهارباً منه من الخوف

ضيفك قد جاء بِخُبْزٍ له ... فارجع فكن ضيفاً عن الضيف[٣]

وقال آخر يذم بخيلاً، ويسخر من صنيعه لَمَّا حل ضيفاً عليه:

أبو نوح نزلت عليه يوماً ... فغدَّاني برائحة الطعام

وجاء بلحم لا شيءٍ سمين ... فقدمه على طبق الكلام

فلما أن رفعت يدي سقاني ... مداماً بعد ذاك بلا مدام

فلكان كمن سقى الظمآن آلاً[٤] ... وكنت كمن تغدى في المنام[٥]

وقال آخر في ذم بخيل:

يبخل بالماء ولو أنه ... مُنْغَمِسٌ في وسط النيل

شحًّا فلا تَطْمعُ في خبزه ... ولو تشفعت بجبريل[٦]

---

(١) عيون الأخبار ٣/٢٦.

(٢) الخطاف: مفرد خطاطيف، وهي حديدة حجنان. انظر المحاسن والأضداد ص١٠٢.

(٣) عيون الأخبار ٣/٢٤٩.

(٤) الأل: السراب.

(٥) عيون الأخبار ٣/٢٦٤.

(٦) المحاسن والأضداد ص١٠٣.

٩ـ الحذر من ذم طعام الضيافة، أو احتقاره: فمن أدب الضيف في مجلس الطعام: ألا يَذُمَّ الطعام، وألا يحتقر ما يقدم له من المضيِّف، قال جابر ﷺ: «هلاك بالرجل أن يدخل عليه الرجل من إخوانه؛ فيحتقر ما في بيته أن يُقَدِّمه إليه، وهلاك بالقوم أن يحتقروا ما قرب إليهم»[(١)].

١٠ـ ألا يطيل الضيفُ المكثَ على الطعام بلا داع: فمن جميل أدب الضيف خصوصاً إذا شاهد أكابر الضيوف قد قاموا ألا يطيل المكث على الطعام دون أكل كحال من يتجاذب الحديث مع صاحبه بعد فراغه من الطعام؛ فإن ذلك يقطع أصحاب الضيافة؛ فربما كان هناك من ينتظرون فراغ الضيوف من الطعام؛ ليأخذوا فرصتهم في الأكل، وربما كان صاحب الضيافة يريد الإفادة من باق الطعام؛ لتوزيعه على بعض المحتاجين؛ حذراً من إهدار النعمة.

١١ـ مراعاة أدب الضيافة المفتوحة: وهي ما يسمى في عصرنا الحاضر بـ: (البوفيهات المفتوحة).

فهذه الطريقة من الضيافة ربما توفر قدراً كبيراً من النعمة أن تذهب هدراً.

وبعض الناس لا يحسن التعامل مع هذه الطريقة؛ فتراه يدور على أصناف الطعام مما حلا، ومر، وسخن، وبرد، من مأكول، أو مشروب، فيأخذ منها ما لا يحتاج إلا لأقل القليل منه، ثم يَدَعُ الباقي بعد أن يصير غير صالح للأكل.

وربما أتى على أصناف لم يعهدها من قبل؛ فيأخذ منها قدراً كبيراً، وربما لا تلائمه أصلاً؛ فيدعها بعد أن يفسدها.

---

(١) ويروى: «وهلاك بالقوم أن يحتقروا ما قدِّم إليهم» و«كفى بالمرء شراً أن يحتقر ما قُرِّب إليه» انظر مسند الإمام أحمد (١٤٩٨٥) والبيهقي ـ الكبرى ـ (١٥٠٢٠) وانظر الترغيب والترهيب (٣٩٢١).

وماذا على الإنسان لو أخذ حاجته، أو أقل منها، ثم إذا رغب في نوع معين أن يعاود الأخذ مرة أخرى؟.

١٢ ـ الحذر من التصرفات المؤذية حال طعام الضيافة: فمن الآفات التي تكون في مجلس طعام الضيافة ما يصدر من بعض الضيوف من تصرفات مؤذية، كحال من لا ينظر فيما حوله من الأواني المأكولة أو المشروبة؛ فترى يده تطيش على طاولة الأكل، فربما اتسخت ثيابه وربما أسقط شيئاً من الطعام على من بجواره.

ومن ذلك ما يكون من بعض الجالسين على الطعام، من إصدار أصوات مزعجة حال أكله، أو شربه.

أو ما يكون من بعضهم من مبادرات على الأكل غير مقبولة عند بعض الناس، كحال من يقطّع اللحم بيده دون حائل، ثم يناوله من بجانبه من الضيوف، أو من يتكلم ساعة الأكل بما يفسد على الآكلين طعامهم، كمن يتكلم بكلام تعاف معه النفوسُ الطعام[١].

أو ألا يتحامى حال الأكل فعل ما يكرهه الناس، ونحو ذلك مما هو من فعل الثقلاء.

قال الزمزمي في وصف بعض أحوال هؤلاء: «ومن صفة الثقيل أنه في حال أكله مع الناس لا يتوقى ما يكرهونه، ويكون سببا لهم في النفور من الطعام»[٢].

ثم يضرب أمثلة على ذلك فيقول: «كنفضه يدَه في قصة الطعام، ومسحه أنفه بالمنديل الذي يمسحون به أيديهم، وشربه من الغراف الكبير الذي يصبون منه في أكوابهم، ومسحه أسنانه بمنديله»[٣].

---

(١) انظر أخبار الثقلاء والمستثقلين ص٢٥.

(٢) أخبار الثقلاء والمستثقلين ص٢٥.

(٣) المرجع السابق ص٢٥.

وقال: «ومن صفة الثقيل أنه إذا كان مع الناس تناول ما يكون قُدَّام غيره من الآكلين من اللحم، ومن كل ما يعجبه من الطعام، ولم يبالِ بأحد، ولا بانتقاد أحد»[١].

ومن الآفات ـ في ذلك الباب أيضاً ـ كثرة سؤال المضيِّف عن وقت تقديم الطعام خصوصاً في المناسبات العامة؛ فإن للمضيف شأنه، وتدبيره؛ فمن الثقل في ذلك أن يُعْجَلْ، خصوصاً ممن ليس له عذرٌ، أو قدْرٌ، أو دالَّة.

وهذا صنيع أهل التطفل ممن لا يرعون أدب الضيافة.

قيل لطفيلي: ما تحفظ من القرآن؟ قال: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾[الكهف:٦٢].

وكان نقش طفيلي: (ما لكم لا تأكلون)[٢].

وبالجملة فإن آداب طعام الضيافة كثيرة، وما مضى إنما هي إشارات لأهم ما في الباب.

---

(١) المرجع السابق ص٢٤.

(٢) المنتخب والمختار ص٥٣١.

الخامسة والأربعون: ترتيب جدول الضيافة

فمن جميل ما يكون في الضيافة ـ خصوصاً إذا كان الضيف كبيراً، أو قادماً من بلد آخر ـ أن يسبق مجيئه ترتيبٌ للزيارة.

وأجمل ما في ذلك أن يُوْضَعَ جدولٌ يُكْتَبُ فيه ما سيدور في تلك الزيارة حسب مدة الإقامة، ثم يُرْسَلَ نسخة منه إلى الضيف؛ حتى يعلم ماذا ستكون عليه تلك الرحلة، ومن ثَمَّ يوطن نفسه على القيام بما تضمنه ذلك الجدول من الزيارات، ونحوها؛ فذلك مما يمنع الفوضى، ويمنح المضيِّف فرصة لترتيب وضعه؛ كي يتلاءم الجدول وما يتسق من رغبات الضيف بحسب تخصصه، وموقعه، وما جرى مجرى ذلك.

ويحسن أن يُضَمَّن الجدول زيارات متنوعة، واطلاع على معالم البلد المزار.

وإن كان الضيف محباً لِلْبَرِّ فليضمَّن الجدول رحلة برية، وإن كان محباً للبحر، وفي البلد المزار بحر فليكن ضمن برنامجه زيارة بحرية وهكذا.

ويجمل بالضيف، والمضيِّف أن يسيرا على وَفْقِ ما خُطِّطَ له قَدْرَ المستطاع، وإن كان ثم طروء على الجدول المُعَدِّ من نحو تعديل، أو إضافة، أو إلغاء ـ فلا بأس.

وعلى أهل ذلك البلد المزار، وأصحاب المضيِّف، ومعارفه ألا يتقدموا بين يدي المضيِّف؛ فيطلبوا من الضيف مباشرة أن يحل ضيفاً عندهم، بل لابد لهم من الاستئذان من المضيف.

وعلى المضيِّف أن يحسن التعامل مع الطلبات المتكررة، والإلحاح الشديد ممن يطلبون زيارة الضيف؛ بحيث لا يكهر أولئك الداعين، ولا ينهرهم، وإنما

يحرص على إدخال السرور عليهم، وتلبية رغباتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يحسن الاعتذار إذا لم يجد فرصة لتلبية دعواتهم.

وإذا حُدِّد للضيف موعدٌ معين لزيارة شخص، أو جهة معينة فلْيَلْتَزِمْ بالموعد؛ حتى لا يُقطع الضيفُ عن بقية برنامجه.

كما أن على أهل البلد المضيِّف إن كان الضيف كبيراً، ولم يستطيعوا الحصول على موعد معه أن يعذروه، ويعذروا صاحب الدعوة؛ فإن ذلك إكرام قد يفوق إكرامهم له لو أجيبت دعوتهم.

وأذكر أن ضيفاً كبيراً حل في أحد البلدان، فأكرموه غاية الإكرام، فأراد أحد الناس استضافته، ولم يكن الوقت يسعف؛ كي تلبى دعوته، فغضب، وأساء، وكدَّر على الضيف، والمضيِّف.

وفي الوقت نفسه كان هذا المدعو يرغب في زيارة واحد من الناس من أصحابه في ذلك البلد، وكان حريصاً على زيارته جداً؛ فقال له صاحبه: أعلم حرصك على زيارتي، وتعلم حرصي على تشريفك لي، ولكني آثرت ألا تزورني هذه المرة؛ حتى ترضي غيري، وأنا سأكون برفقتك في أكثر زيارتك؛ فوقعت تلك الكلمات موقعها عند الضيف، وعدّها من جميل الإيثار، ونادر التكرم.

وبالجملة فإن ترتيب الزيارة، وحسن تنظيمها دال على حزم المضيِّف، وحسن تدبيره، وبعده عن الفوضى، والتخبط، بشرط ألا يصل الأمر إلى الصرامة المفرطة التي تؤذي الآخرين، وتكدر الضيافة.

السادسة والأربعون: أصحاب الضيف الكبير

فغالباً ما إذا دعي ضيف كبير لمناسبة مّا ـ أن يأتي معه شخص أو أكثر من أصحابه، أو أولاده، أو أقاربه، أو نحوهم.

ولا ريب أن إكرامهم من إكرامه ـكما مر.

والكلام ههنا عما ينبغي لهؤلاء إذا اصطحبوا أحداً في ضيافة خاصة له.

فينبغي لهم مراعاة أمور عدة؛ كي يكونوا ضيوفاً أعزاء، يُشَرِّفون أنفسهم، وَمَنْ صحبوه في تلك المناسبة؛ إذ هم أَدِلاَّء عليه، وعنوان له.

فمما ينبغي لهم مراعاته أن يسيروا على وَفْقِ ما يريده أهل الضيافة من جهة المواعيد، والتنقلات، وأن يحرصوا كل الحرص على ألا يقطعوا صاحبهم، ولا المضيفين في أي شأن من شؤون الضيافة، فيحرصوا على الاستيقاظ من النوم قبله، وعلى ألا يناموا إلا بعده، وألا ينصرفوا من المجلس إلا إذا انصرف ما لم يكن سبب آخر يستدعي خلاف ذلك، كما في صنيع بعض الناس؛ إذ تراهم يقطعون الضيف الرئيس، وقد يكون عالماً، أو وجيهاً، أو كبيراً في السن؛ فلا هَمَّ له إلا انتظارهم، أو إيقاظهم من النوم.

ومما ينبغي لهم ألا يعجلوه في الانصراف من الضيافة قبل انتهاء وقتها، وإذا أراد تمديد وقت الزيارة ألا يثنوه عن ذلك؛ فإنْ هم ثنوه أحرجوه أمام مضيِّفيه، وأوقعوا أنفسهم في كراهية الناس لهم.

بل يجدر بهم أن يتكرموا، ويَسْخَوا بشيء من وقتهم؛ حتى يسعدوا صاحبهم ومضيفيه.

وإذا كان لأحدهم مانع قوي يمنعه من المكث ـ فليستأذن من صاحبه، وليغادر بكل هدوء دون أن يشعر صاحب الضيافة بذلك.

وأذكر في هذه المناسبة موقفين متباينين جداً يدلان على سعة النفوس، وضيقها من قبل بعض المرافقين للضيف الكبير.

الموقف الأول: يحدث به أحد الناس قائلاً: إنني أدعى إلى مناسبات كثيرة في بلدي، وقريباً منه، وبعيداً عنه.

وكان أحد الأصدقاء المقربين إليَّ ممن سبق لي تدريسهم، وأنا أكبره بسنوات عديدة، وكان يرغب في صحبتي لبعض المناسبات، ويؤكد ذلك مراراً.

وفي يوم من الأيام دعيت دعوة خاصة في بلد قريب لي، فعرضت ذلك عليه؛ ففرح، وكانت المناسبة بعد العشاء وعند أحبة لي قد درست لهم من قبل، وفي بلد عزيز عليَّ.

وبعد الاستقبال وتناول العشاء تجاذبنا أطراف الأحاديث قليلاً، ثم رأيت صاحبي يشير إلي بعينه أن ننصرف، ثم بعد دقائق صار ينظر في الساعة، ثم صار يرفع صوته قائلاً لي: متى ننصرف؛ فأزعجني، وتسبب لي في حرج شديد، وصار المضيِّفون يعرضون عليه أن يجلس ويرغبونه، ويبدون له سعادتهم الغامرة في تلك المناسبة، ولكنه كان يصر على الذهاب.

يقول صاحبنا: فما كان مني إلا أن استأذنت منهم، وهممت بالانصراف فحاولوا مرة أخرى، وقالوا له: إذاً لعلنا نصل معك إلى حل؛ فإن كنت مستعجلاً، وتريد أن تلحق على ما تريد ـ أَوْكَلْنا أحدنا؛ ليوصلك إلى بيتك، ودع فلاناً عندنا؛ فرفض، وقال: لابد أن نذهب معاً، فما كان مني إلا أن

رضخت للأمر، فودَّعتهم، وانصرفت، وأنا أرى في عيونهم الرغبةَ في المكث، والغيظ على ذلك الصاحب الملول الضجور.

يقول صاحبنا: وبعد أن ركبنا السيارة سألته عما أعجله، فقال: لا شيء، ولكن جلسنا عندهم بما فيه البركة!

يقول صاحبنا: فتكدرت كثيراً، ولم أعد أحرص على صحبته لي بعد ذلك.

أما الموقف الثاني فيحدث به أحدهم قائلاً: زارني أحد أكابر العلماء، وكان وقت الزيارة من الظهر إلى العصر، وكان في صحبة ذلك العالم بعض أولاده، وأقاربه، وقد أخبرهم أنهم سيغادرون بعد العصر.

وكان من بين هؤلاء زوجٌ لابنة ذلك العالم.

ولما طاب المجلس رغبنا إلى ذلك العالم في أن يطيل المكث، وأن يمد اللقاء إلى ما بعد العشاء؛ فقال لي: إني أرغب في ذلك، ولكن فلاناً -يعني زوج ابنته- لديه رحلة من بلدنا إلى بلد آخر يعمل به، وقد اتفق مع أمه أن إذا وصل إلى بلدنا أن تصحبه إلى البلد الذي فيه مقر عمله، وهي تنتظره، والمسافة تقرب من ثلاثمائة كيلو.

يقول محدثنا المضيِّف: وبعد فترة يسيرة فقدنا ذلك الرجل -أعني زوج ابنة ذلك العالم- وسألنا عنه، ولم نجده، وبعد ما يقرب من الساعتين اتصل، وقال: أستأذنكم؛ فقد لمست رغبة شيخنا -يعني العالم- في الجلوس، وكرهت أن أعجله؛ فخرجت وسألت عن محطة نقل الركاب؛ فاستأجرت سيارة خاصة، والآن أنا قريب من الوصول إلى بلدي!

فتعجب الحاضرون من ذوق ذلك الرجل، وحسن خلقه، وألمعيته المهذبة؛ فما كان من ذلك العالِم وصحبه إلا أن مددوا الزيارة إلى منتصف الليل.

ومما ينبغي لصحبة الضيف الكبير ألا يتقدموا بين يديه في الكلام، والمجلس، ونحو ذلك.

وإنما **ينبغي** أن يكونوا رهنَ إشارته، وطوع أمره طالما أنه كبيرهم، ومقدمهم؛ فإن ذلك دليل عقلهم، وأمارة نبلهم.

وكما **ينبغي** لصحبة الضيف الكبير أن يكونوا على نحو ما ذكر آنفاً من حسن التأتي، والبعد عما ينفّر ـ فكذلك **ينبغي** له أن يكون على خير ما يرام لأصحابه؛ من ناحية تفقدهم، وتقريبهم، والسؤال عنهم، والتعريف بأسمائهم، والتنويه بهم، وبألقابهم، وما يليق بهم.

ولا بأس أن يعطيهم الفرصة للحديث، وإبداء ما عندهم إذا كان الوقت، والحال يسمحان بذلك؛ فإن ذلك الصنيع دليل سعة نفسه، وكريم خلقه.

بخلاف بعض الناس؛ حيث إذا صحبه مَنْ صَحِبَه لضيافة تنكَّر لهم، ولم يُعِرْهم أدنى اهتمام؛ فلا يعرف بهم، ولا يسأل عنهم.

بل ربما نهرهم، وزجرهم، وأساء إليهم، وكأنهم خدم عنده.

بل إن الخدم لهم حق التقدير بما يلائمهم طالما أنهم صحبوه.

يحدثني أحد الأصحاب أنهم يصحبون صديقاً لهم في سنهم، وفي درجة تعليمهم، وليس له عليهم مزية تذكر.

وكان يدعوهم إلى أن يصحبوه إلى بعض دعوات الضيافة.

يقول محدثي: إننا إذا سافرنا معه أصبحنا كالخدم؛ فلا يسأل عنا، ولا يُعَرِّف بنا، ولا يقدمنا في المجلس.

والمصيبة أنه ما بين الفينة والأخرى يقول: انتظروني في الخارج، أو عند السيارة؛ لأجل أن ينفرد بالمضيِّف ونحن نعلم أنه لا قيمة لحديثهم، وليس بسرٍّ يُخاف من

نشره؛ لأنه يخبرنا بما دار بعد أن يخرج، ولكن تَغِيْبُ عنه معاني الصحبة، وواجباتها.

يقول هذا الصاحب: وفي يوم من الأيام صحبنا أحد أصحابنا ممن هو أَوْجَهُ من صاحبنا الأول، وأَعْلَمُ؛ ونحن قد اعتدنا على التنكر؛ والازدراء، والانتظار من صاحبنا الأول؛ فما كان من صاحبنا الآخر إلا أن قرَّبنا، وعَرَّفَ بنا، وبألقابنا العلمية، وصار لا يجلس إلا بعد أن يُلِحَّ بتصديرنا في المجلس، وكان يستمطرنا الحديث، ويعلي من شأننا، فعادت لنا الروح، وأدركنا الفرق بين هذا وذاك راجع لِفِقْهِ النفس، وسعة الصدر، وسجاحة الخلق.

السابعة والأربعون: هدايا الضيافة

فالهدية شعور جميل يحمل في طياته معانيَ الود، والحب، والذكرى والكرم، والوفاء، والشكر، ورقة الشعور، وهي مقصد من مقاصد الشريعة المطهرة، ومظهر من مظاهر الإنسانية المهذبة، ومعلم من معالم جلبِ السعادة، ونفيِ الوحشة؛ وسرٌّ من أسرار استمالة القلوب، وزيادة المحبة.

وللهدية ذوقها، وطريقتها، وملاءمتها.

والمقصود ههنا ما يكون من هدايا الضيافة؛ إذ الضيافة، والهدية متشابهان في نواحٍ شتى؛ إذ هما دالان على الكرم، وطيب النفس، ونحو ذلك مما مضى ذكره.

والهدية من مكملات الضيافة؛ إذ يحسن بالضيف القادم من بعيد أن يصطحب معه هدية تقدم للمضيِّف، يعبر من خلالها عن محبته له.

ويجمل أن يراعى فيها ما يراعى في ذوق الهدية، ومدى ملاءمتها.

كما يحسن بالمضيف أن يهدي لضيفه الزائر ما يناسب الحال والمقام؛ فذلك أدعى لعلوق الزيارة في قلب الضيف، وأبقى لذكراها في نفسه.

ولو ضمنها بعض ما يهدى لرفاق الضيف لكان حسناً، لو خصص جزءاً من الهدية لأهل المضيف، وأولاده؛ لزاد جمال الهدية؛ إذ فيه فرح له، ولأهل بيته إذا قدم إليهم.

ومن ذوق الهدية إذا كانت ثقيلة، أو كثيرة أن تحمل عن المهدَى إليه، وتوصل إلى سيارته، أو إلى بيته.

وإذا كانت الهدية كثيرة، أو ثقيلة، وكان الضيف قادماً من بلد آخر فما أجمل أن تحمل عنه، أو تشحن في الطائرة إن كان قادماً عبر الجو، أو أن ترسل عبر أناس

يوصلونها إلى منزله؛ حتى لا يثقل عليه حملها بعد أن يصل، خصوصاً إذا كان كبيراً في السن، ولم يكن معه مرافق يتولى أمر الهدية؛ فذلك ذوق رفيع يتمم الهدية، ويعلي من شأنها.

وإن كانت الهدية مما يبقى فيحسن أن تُمْهَر بإهداء يتضمن اسم المهدي، والمهدى إليه وتاريخ الهدية، وأن يتخلل ذلك عبارات الود والمحبة[1].

(١) وقد فصلت في شأن الهدية، ومقاصدها، وطرائفها، وأحوال الناس فيها، وما ورد فيه شأنها من أخبار، وقصص، وأشعار، في كتابي ذوق الهدية، ويقع في ٤٧ صفحة.

الثامنة والأربعون: طول المكث عند المضيِّف

فالأصل أن تكون مدة الضيافة قصيرة إما أن تكون يوماً، أو بعض يوم، أو يومين، أو ثلاثة.

وقد أخرج البخاري، ومسلم عن أبي شريح الخزاعي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزَته**».

قال: وما جائزته يا رسول الله؟

قال: «**يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام؛ فما كان فوق ذلك فهو صدقة عليه**»[(١)].

وفي لفظ لمسلم: «**الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يوم وليلة**»[(٢)].

قال الخطابي رحمه الله: «قوله: (جائزته يوم وليلة) سئل مالك بن أنس عنه، قال: (يكرمه، ويتحفه، ويخصُّه، ويحفظه يوماً وليلة، وثلاثة أيام ضيافة).

قلت[(٣)]: يريد أن يتكلف له في اليوم الأول بما اتسع من بر، وإلطاف، ويقدم له في اليوم الثاني والثالث ما كان بحضرته، ولا يزيد على عادته.

وما كان بعد الثلاثة فهو صدقة، ومعروف؛ إن شاء فعل، وإن شاء ترك»[(٤)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «إن للضيف حقاً واجباً على من نزل به، وهو ثلاث مراتب: حق واجب، وتمام مستحب، وصدقة من الصدقات.

فالحق الواجب: يوم وليلة، وقد ذكر النبي ﷺ المراتب الثلاثة في الحديث المتفق على صحته من حديث أبي شريح الخزاعي»[(٥)].

---

(١) البخاري (٥٦١٣) ومسلم (٤٨).

(٢) مسلم (٤٨).

(٣) القائل: الخطابي.

(٤) معالم السنن للخطابي ٤/٢٣٨.

(٥) زاد المعاد ٣/٦٥٨.

وقال ابن قدامة رحمه الله: «والواجب يوم وليلة، والكمال ثلاثة أيام»[١].

والمقصود بالضيف ههنا: الضيف القادم من بلد آخر، وليس المقيم.

وتفصيل ذلك يطول، وليس هذا مجال بسطه.

والمراد ههنا الكلام على مسألة طول مكث الضيف عند مضيِّفه؛ فالأصل هو كما مر في الحديث السابق -حديث أبي شريح رضي الله عنه-.

وطول المكث عند المضيف لا يجوز خصوصاً إذا كان في ذلك تحريج له، وإثقال عليه، وقطع له عن أعماله.

أما إذا لم يكن كذلك، وكان المضيف كريماً راغباً رغبة شديدة في بقاء الضيف، أو كان بينهما مصالح مشتركة تحتاج إلى طول إقامة - فلا بأس.

أما ما عدا ذلك فتحريج، وإثقال، وإملال.

وبعض الناس لا يبالي بذلك؛ حيث لا يترتب على مكثه عند مُضَيِّفه مصلحة، وليس هناك حاجة لذلك، وربما يكون بنفسه ثقيلاً مستثقلاً[٢] فيزيد الأمر ضغثاً إلى إبَّالة[٣].

---

(١) المغني ٩١/١١.

(٢) مرت هاتان الكلمتان كثيراً، ومعنى الثقيل: من يكون ثقيلاً على القلوب من حيث طبعُه، أو كلامُه، أو عملُه، أو منظرُه؛ فهو ثقيل بالطبع، ويزيد ثقله بقلة إحساسه.

والمستثقل: هو الذي يكون ثقيلاً عند بعض الناس دون بعض؛ لحسد، أو مزاحمة في صنعة، أو مكانة، أو نحو ذلك.

وقد يكون الرجل مستثقلاً في بعض الأحوال، وإن كان غير ثقيلٍ في الأصل والواقع؛ بحيث يضع نفسه في مواضع تستثقل. انظر أخبار الثقلاء والمستثقلين ص٧.

(٣) هذا مثل عربي (ضغثٌ على إبَّالة) ويضرب مثلاً للرجل يُحَمِّل صاحبَه المكروه، ثم يزيده منه.

والإبَّالة: الحزمة من الحطب، والضغث: الجُرزَة التي فوقها يجعلها الحطاب لنفسه.

والجرزة والحزمة: واحد.

قال الشاعر:

لي كلُّ يومٍ من دؤالهْ ... ضغث يزيد على إبالهْ

في كل يوم ضِيقَةٌ ... فوقي تفيأ كالظُّلالهْ

انظر كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ٨/٢.

قال أبو حنيفة رحمه الله: «ما يَعْرِف الفِقه، وقدره، وقدر أهله من كان ثقيل المجالسة، وكان يقول:

عدمنا ثقال الناس في كل بلدةٍ فيا رب لا تغفر لكل ثقيل[1]

ويزيد الثقل إذا كان المضيِّف ممن لا يطيق، ولا يتحمَّل؛ ذكر الحافظ في التهذيب عن عبدالرزاق عن قتادة أنه أقام عند سعيد بن المسيب ثمانية أيام، فقال له في اليوم الثالث: ارتحل يا أعمى؛ فقد أنزقتني»[2].

وذكر الزمزمي في كتابه (أخبار الثقلاء والمستثقلين) قصصاً من هذا القبيل، ومن ذلك قوله: «وحكوا أن بعضهم زار أحد أصدقائه، ولبث عنده شهوراً، فقال له صديقه -صاحب الدار-: ألا تظن أن عائلتك قد اشتاقت إليك؟!

فقال الثقيل: أعرف ذلك، وقد كتبت إليهم أطلب منهم أن يقدموا إلى هنا!!»[3].

وقال الزمزمي: «وذكروا أن ثقيلاً كان ضيفاً على بعض معارفه، فرأى أن يحتال عليه؛ ليطرده عنه؛ فقال لامرأته؛ سأعمل لهذا الضيف حيلة؛ لأطرده بها من الدار؛ فبمجرد ما ترينه قد خرج من الدار فسدي الباب؛ لئلا يرجع.

فلما كان الغد في الصباح قال صاحب الدار للضيف الثقيل: أتقدر أن تثب كما أثب أنا؟

ثم وثب وثبةً إلى الشارع؛ ليتبعه الضيف.

---

(١) أخبار أبي حنيفة للصيرفي ص١٠٥.

(٢) تهذيب التهذيب ٥٥٢/٨.

(٣) أخبار الثقلاء والمستثقلين ص٢٩.

لكن الضيف اللئيم لم يتبعه، بل وثب وثبة إلى داخل الدار.

فقال له صاحب الدار: ما لك لم تتبعني في الوثوب إلى الشارع؟

فقال له الضيف: ذراعان في داخل الدار أحسن من عشرة أذرع في الشارع»[1].

ومن كرام الناس من يقيم عنده بعض أولئك الثقلاء مدداً طويلة تصل إلى الشهور، وربما الأعوام، وهم يتحملونهم، ويصبرون على جفائهم، ولأوائهم.

وأعرف أن بعضهم كان يؤوي بعض الغرباء مدة تزيد على أربعين سنة حتى ماتوا.

وقد ذكرت في كتابي مروءات معاصرة قصةً عنوانها (جار في المستشفى) وأنا أعرف أحداث تلك القصة، وأصحابها، وهي تعبر عن معنى الثقل من بعض الأضياف، وكرم النفس من بعض الناس، ولسان الثقيل يقول عنهم:

أبوا أن يملو ولو أن أمَّنا ... تلاقي الذي يلقون منا لَمَلَّتِ

وإليكم تلك القصة:

يحدث أحدهم عن قصة حصلت لوالده فيقول: كان والدي رحمه الله في أخريات عمره يتردد كثيراً على المستشفى، وربما مكث فيها أياماً، وإذا انتعش وتحسنت صحته خرج إلى البيت.

وكان من عادته في البيت أن يفتح الباب من طلوع الشمس إلى قبيل الظهر، كما أن له جلسة بعد العصر وبعد المغرب، ويأتيه الناس على اختلاف طبقاتهم.

---

(١) أخبار الثقلاء والمستثقلين ص٢٩-٣٠.

وإذا كان في المستشفى جاءه الناس أثناء الزيارة، فيأنس بهم ويأنسون به.

وكان من عادته إذا كان في المستشفى أن يؤتى إليه بالقهوة والشاي من المنزل؛ كي يقدما للزائرين.

كما أن من عادته ـأيضاًـ أن يؤتى إليه بالغداء والعشاء من المنزل، ويؤخذ ما يكفيه ويكفي من معه في الغرفة التي يرقد فيها في المستشفى.

ومن القصص التي أذكرها في ذلك الشأن أنه أيام كنا طلاباً كان بعض إخوتي في الابتدائية، وبعضهم في المتوسطة، وذلك في حدود عام ١٣٩٨هـ.

وحصل أن نوِّم في المستشفى رجل ليس من أهل البلد، وإنما هو عابر سبيل حصل عليه حادث سير، فكسرت رجله، وأجريت له عملية تجبير، ووضع فيها الجبس من أعلى فخذه إلى أطرف أصابع رجله؛ فكان بجوار والدي في الغرفة، وكان والدي يأمرنا بأن نحضر له القهوة والشاي والغداء والعشاء؛ فاستمررنا على هذه الطريقة حتى بعد أن خرج والدي من المستشفى.

وهكذا سار الحال على هذا النحو حتى قرر الطبيب لذلك الرجل أن يخرج من المستشفى، ثم أعطاه موعداً بعد مدة تقرب من الشهرين؛ ليتم إزالة الجبس عن قدمه.

وبدلَ أن يرجع إلى موطن إقامته الذي يبعد مسافة تزيد على مائتي كيلو ـ قال لوالدي: أريد أن أقيم عندكم حتى يحين موعد المستشفى؛ فقال له والدي: حياك الله، وعلى الرحب والسعة، فجاء عندنا في البيت وهو على العكاز، ويحتاج إلى من يعينه في قيامه وجلوسه ونومه؛ فأعددنا له غرفةً خاصةً، وصرت أنا وإخوتي نتعاقب على خدمته، وكان لوالدي جلسة في الصباح في مجلسه المعتاد، فنأتي

بالرجل إلى المجلس، ثم نعود به إلى غرفته الخاصة، كما كان لوالدي مجلس بعد المغرب في مكان مكشوف يطل على الشارع من المنزل؛ فنذهب بصاحبنا إلى ذلك المجلس، فنعد له فراشاً ومكاناً يلائمه، وهكذا استمر الحال إلى أن حان موعد إزالة الجبس من قدم صاحبنا.

والغريب في الأمر ليس في مكثه الطويل، ولا فيما يقدم له في المنزل؛ فذلك حق يراه والدي لذلك الضيف.

وإنما الغريب هو كزازة ذلك الضيف، وثِقَل نفسه، وكثرة أوامره، وقلة شكره أو انعدامه؛ فنحن شباب صغار، ونريد أن نخرج أحياناً للعب، ونفرح بكلمة الشكر والثناء من والدي وأضيافه، وكثيراً ما نسمع شيئاً من ذلك من أضيافنا العابرين.

أما ذلك الضيف فكان يعاملنا بكل فظاظة، وكان يأمرنا بصيغة متعالية؛ بل كان يتعمد ذلك أحياناً؛ إذ لا يأمر الواحد منا بإحضار شيء إلا إذا جلس؛ حيث لا يأمر الواحد منا إذا كان واقفاً، أو يريد أن يأتي بحاجة من داخل المنزل؛ فإذا ما أخذ واحد منا مكانه في المجلس ناداه وقال له: فلان، فإذا قال: نعم، قال: إيتني بكذا، أو أحضر لي الماء، أو ناولني فنجان قهوة، أو كأس شاي.

ووالله ما رأينا منه نفساً طيبة، ولا كلمة مؤنسة، ولا ابتسامة راضية طيلة مكثه عندنا.

كل ذلك بمرأى ومسمع من والدي.

ومع ذلك فلم يكن والدي يشعره إلا بالأنس والإكرام.

ونحن لا نستطيع أن نَنْبِسَ بِبِنْتِ شَفَة، بل ولا إشارة أو تلويح؛ خشية من غضب والدي أو تكدير صفوه.

وبعد أن أزيل الجبس من قدمه، وشفي تماماً ـ غادر إلى أهله.

وبعد مدة من مغادرته مر ببلدنا، فزار والدي، ومكث عنده ما شاء الله أن يمكث، وكأن شيئاً لم يكن؛ فمعاملته، وكزازته هي هي، ومعاملة والدي وبشاشته هي هي.

فهذه خلاصة تلك القصة؛ فسبحان من وهب وسبحان من سلب؛ هذه همة علياء، ويد معطاءٌ سحاء تجود وتحسن وتهش وتبش.

وتلك يد شلاء، ونفس كزة إذا هم صاحبها ولو بكلمة طيبة قالت له: مهلاً، ولسان حال صاحبها كما تقول العامة (محمول ويرفس).

كما أن هذه القصة ترينا وجهاً من وجوه الحياة الجميلة، وتعرض لنا لوحة حسنةً براقة تخلب ألباب ذوي المروءة، والشهامة.

كما ترينا وجهاً من أوجه اللؤم المتأصل في بعض النفوس؛ فلا تحس لمروءتها وجبةً، ولا تسمع لها ركزاً[1].

ويحدث الشيخ محمد الموسى مدير مكتب بيت الشيخ ابن باز ـرحمهما اللهـ أن «منزل أسرة سماحة الشيخ ابن باز في الرياض لا يتسع لكثرة الضيوف القادمين إليه، وكثيراً ما يأتيه أناس بأُسَرهم إما من المدينة أو غيرها؛ إما طلباً لشفاعة أو مساعدة، أو نحو ذلك، فكانوا يسكنون عند سماحة الشيخ في المنزل.

وإذا خرج سماحة الشيخ في الصباح أخذ معه أوراقهم وطلباتهم، ويقول: اقرؤوا ما فيها.

---

(١) انظر مروءات معاصرة ص١١٩ـ١٢١.

وكنت أقول لسماحة الشيخ: ألا ترون أن يقال لهؤلاء اذهبوا إلى بلدكم، ونحن ننظر في الأوراق في الوقت المناسب، ثم نخبركم ؟

فيرد سماحته قائلاً: ما نرى ذلك، نصبر ونتحمل إقامتهم عندنا حتى ينتهي موضوعهم.!» [١].

ويحدث الشيخ محمد الموسى -أيضاً- فيقول: «لدى سماحة الشيخ مكان مُهَيَّأٌ للضيوف، وهذا المكان في بدروم بيت الرياض.

وربما اجتمع فيه عشرة أشخاص، أو خمسة عشر، وربما جلسوا أياماً، وربما شهوراً!!

وفي يوم من الأيام قلت لسماحة الشيخ: إن فلاناً ساكنٌ عندنا منذ وقت طويل، فقال: لو استغنى عنكم ما جلس عندكم!» [٢].

---

(١) جوانب من سيرة الإمام عبدالعزيز بن باز ص١٨٩.

(٢) المرجع السابق ص١٨٩-١٩٠.

التاسعة والأربعون: الوداع في الضيافة

فالوداع هو الحلقة الأخيرة من الضيافة، أو إحدى الحلقات الأخيرة؛ فينبغي أن يكون جميلاً رائعاً؛ حتى يبقي أثره؛ ولأجل أن يكتمل عِقْد الضيافة سواء من الضيف أو من المضيِّف.

ومن حسن التوديع أن يسير المضيِّف مع الضيف حتى يخرج من مكان الضيافة متوجهاً إلى ما يريد.

وإن كان سيركب سيارته فمن جميل التوديع أن يسير معه إليها، وأن يفتح لها بابها، وأن يودعه بعد أن يركب فيها، وينظر إليه حتى يغيب عن الأنظار.

ولقد كان مثل هذا المعنى حاضراً عند أسلافنا؛ فقد ساق ابن الجوزي بسنده عن أبي عبيد القاسم بن سلام، قال: «زرتُ الإمام أحمد بن حنبل في بيته؛ فأجلسني في صدر المجلس، وجلس دوني، فقلت: يا أبا عبدالله، أليس يقال: صاحب البيت أحق بصدر بيته؟.

قال: نعم، يَقْعُدُ ويُقْعِدُ من يريد.

قال: قلت في نفسي: خذ إليك يا أبا عبيد فائدة.

قال: ثم قلت: يا أبا عبدالله لو كنت آتيك على نحو ما تستحق لأتيتك كل يوم.

قال: لا تَقُل ذلك؛ إن لي إخواناً لا ألقاهم إلا كل سنة مرة أنا أوثق بمودتهم ممن ألقى ذلك كل يوم.

قال: قلت هذه أخرى يا أبا عبيد.

فلما أردت القيام قام معي، فقلت: لا تفعل يا أبا عبدالله، فقال: قال الشعبي: **من تمام الزيارة أن تمشي معه إلى باب الدار، وتأخذ بركابه.**

قال: قلت: هذه ثالثة يا أبا عبيد.

قال: **فمشى معي إلى باب الدار، وأخذ بركابي**»[1].

والشاهد من ذلك الجملة الأخيرة، وهي مشيه معه، وأخذه بركابه.

وأعرف في وقتنا الحاضر أحد أكابر الأجواد المشهورين بكثرة الضيافة؛ فلقد كان يسير مع ضيفه حتى يفتح له باب سيارته مهما كان الضيف.

ثم إذا كان الضيف سيقيم أياماً فلابد له من إيذان المضيِّف بوقت رحيله خصوصاً إذا كان لا يعلم.

والمضيِّف لابد أن يَعْلَم وقت رحيل ضيفه؛ حتى يتفرغ لتوديعه، وتشييعه.

فلحظات التوديع من أوقات العمر المليئة بالحب، والوفاء؛ خصوصاً إذا كان الضيف قادماً من بلد بعيد، وقد حضر مضيِّفوه لتوديعه في مطار، أو محطة قطار، أو ميناء بحري، وهو سيسافر إلى أهله بعدما قضى عندهم أياماً.

ولعل ما في موقف التوديع من الرقة، والرحمة، والصدق ما يكون سبباً في زيادة المودة، وإجابة الدعاء.

ولهذا جاءت السُّنةُ بتوديع المسافر، والدعاء له، فعن سالم ابن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهم - أن عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- كان يقول للرجل إذا أراد سفراً: «ادن مني حتى أودِّعك كما كان رسول اللهﷺ يودعنا، فيقول:

---

(١) انظر مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص١١٨.

استودع الله دينك، وأمانتك، وخواتيم عملك».[١]

وعن عبدالله بن يزيد الخطمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يودع الجيش يقول: «**استودع الله دينكم، وأمانتكم، وخواتيم أعمالكم**».[٢]

وقول الراوي: «كان رسول الله ﷺ يفعل أو يقول كذا وكذا...، يدل على أنه السنة المعتادة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني أريد سفراً؛ فزودني، قال: «**زوَّدك الله من التقوى**».

قال: زدني، قال: «**وغفر ذنبك**».

قال: زدني بأبي أنت وأمي، قال: «**ويسَّر لك الخير حيثما كنت**».[٣]

قال ابن عبدالبر رحمه الله: «قالت أعرابية لابنها وقد ودعته وهو يريد سفراً: امضِ مُصاحباً مكلوءًا، لا أَشْمَتَ اللهُ بك عدواً، ولا أرى محبيك فيك سوءًا.

وودع أعرابي رجلاً فقال: «كَبَتَ اللهُ كلَّ عدوٍّ لك إلا نفسَك، وجعل خيرَ عملِك ما ولي أجَلَكَ».[٤]

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٤٣) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) رواه أبو داود (٢٦٠١) وصححه النووي في رياض الصالحين (٧١٥)، قال الشيخ فيصل آل مبارك رحمه الله في تعليقه على الحديث: «في الحديث كمال فضله ﷺ وتوديعه لأصحابه مع علو مقامه.

وذكَرَ الدِّينَ؛ لأن السفرَ مَظِنَّةُ التساهلِ في أمره، والأمانة: التكاليف الشرعية، وذكر خواتيم الأعمال؛ اهتماماً بشأنها؛ لأن الأعمال بالخواتيم» تطريز رياض الصالحين للشيخ فيصل المبارك ص٤٦١.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٤٤)، وقال: «حديث حسن».

(٤) بهجة المجالس ١/٢٥٥.

هذا وإن لكلمة الوداع نصيباً غير منقوص عند أهل العلم والأدب؛ فهي تجري على ألسنة العلماء، والشعراء، وفي منشآت الأدباء؛ ولهم مذاهبهم المختلفة في تصويره، ونظرتهم له.

فعن المعتمر بن إياس رحمه الله قال: «ودع الحسنُ رجلاً، وعيناه تهملان، وهو يقول:

وما الدهر إلا هكذا فاصطبر له ... رزيئةُ مالٍ أو فراقُ حبيب[1]

وقال آخر لرجل ودَّعه: بقي علينا أن نَكُفَّ من غَرْبِ الشؤون[2]، ونستعين على فُرقة الوحشة بالكتب؛ فإنها ألسن ناطقة، وعيون رامقة».[3]

وهذا أحدُهم يكره أيام الوصال؛ لأنها مؤذنة بالفراق والوداع، ويحب أيام الهجر والبعاد؛ لأنها قد تفضي إلى اللقاء، فيقول:

أحبُّ لياليْ الهجر لا فرحاً بها ... عسى الدهر يأتي بعدها بوصال

وأكره أيام الوصال لأنني ... أرى كل وصل محكماً بزوال

وهذا آخر يؤمل يوم الوداع بالرجوع، واللقاء، فيقلب كلمة الوداع، فتكون كلمة (عادوا) تفاؤلاً بالاجتماع مرة أخرى، فيقول:

لا تأسَ يا قلبُ من وداع ... فإن قلب الوداع عادوا

ولأبي الطيب المتنبي وقفات مع الوداع تملأ ديوانه؛ فها هو يصور لوعة الوداع، فيقول:

حُشاشة نفسٍ ودعت يوم ودعوا ... فلم أدرِ أيّ الظاعنين أشيعُ

---

١ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/٣٢.

٢ ـ قوله: غرب الشؤون: الغرب: مسيل الدمع، والشؤون: الدموع.

٣ ـ عيون الأخبار ٢/٣٢.

أشـــاروا بتســـليم فجُـــدْنا بـــأنفسٍ تســـيل مـــن الآمـــاقِ والسِّـــمُّ أدمـــعُ
حشـاي علـى جمـر ذكـي مـن الهـوى وعينـاي في روض مـن الحسـن ترتـع
ولـو حُمِّلـت صـم الجبـال الـذي بنـا غـداة افترقنـا أوشـكت تتصـدع[1]

ومن أبدع ما قيل في وداع الأصدقاء ما قاله أبو تمام يمدح فيها عليَّ بن الجهم القرشي الشاعر، وقد جاءه يودعه لسفر أراده، وكان أصدق الناس له:

هـيَ فُرْقَـةٌ مـنْ صَـاحبٍ لـكَ ماجِـدٍ فغـداً إذابـةُ كـلِّ دمـعٍ جامـدِ
فـافْزَعْ إلى ذخـر الشُّـؤون وغَرْبِـه فالـدَّمْعُ يُـذْهبُ بَعْـضَ جَهْـد الجَاهـدِ
وإذا فَقَـدْتَ أخـاً ولَـمْ تَفْقِـدْ لَـهُ دَمْعـاً ولا صَـبْراً فَلَسْـتَ بفاقـد
أعلـيُّ يـا بـنَ الجهـمْ إنـكَ دفـتَ لـي سُـمّاً وخمـراً في الـزلالِ البـاردِ
لا تَبْعَـدَنْ أَبَـداً ولا تَبْعُـدْ فمـا أخلاقـك الخُضْـرُ الرُّبـا بأباعـدِ[2]

إلى آخر ما قاله في تلك القصيدة الرائعة[3].

ومن لطيف ما يذكر في التوديع ما ذكره علامة الجزائر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ت ١٣٨٥هـ رحمه الله وذلك في مقالة له عنوانها (من نفحات الشرق: الأستاذ محمد بهجة البيطار).

حيث تكلم في تلك المقالة عن صديقه البيطار رحمه الله وما كان عليه من علم،

---

(١) ديوان المتنبي بشرح العكبري ١٣٩/٢-١٤٠.

(٢) قوله: لا تَبْعَدَن بفتح العين: يعني لا تهلك، دعاء له بالسلامة.

وقوله: لا تَبْعُدْ بضم العين: أي لا تفارق، ولا تذهب عنا؛ فَبَعُدُ يبعد من بعد المكان، وبَعِدَ يَبْعَدُ في معنى الهلاك.

(٣) انظر شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي ٢١٥/١-٢١٧.

وخلق، كما تحدث فيها عن ذكرياته في دمشق، والتي أقام فيها أربع سنين إلا قليلاً، وما كان في تلك الأيام من مجالس علمية، ومسامرات أدبية مع علماء وأدباء، وعلى رأسهم صاحبه الشيخ محمد الخضر حسين التونسي رحمه الله إذ كان في تلك الفترة مقيماً في الشام.

وفي خاتمة تلك المقالة الماتعة الرائعة قال متحدثاً عن يوم الودائع: «ويا يوم الوداع ما أقساك، وإن كنت لا أنساك.

لا أنسى بعد ثلاثين سنة، ولن أنسى ما حييت موقف الوداع بمحطة البرامكة والأستاذ الخضر يكفكف العبرات، وتلامذتي الأوفياء: جميل صليبا، وبديع المؤيد، ونسيب السكري، والأيوبي، يقدّمون إلي بخطوطهم كلمات في ورقات، ما زلت محتفظاً بها احتفاظ الشحيح بماله.

عهود لم يبق إلا ذكراها في النفس، وصداها في الجوانح، والحنينُ إليها في مجامع الأهواء من الفؤاد.

ولولا أن السلوّ كالزمن يتقادم، وأن الهوى مع العقل يتصادم، لقلت مع المتنبي: أبوكم آدم!...[1]

ولقد راجعت « مذكراتي » المنقوشة في ذاكرتي فوجدُتها حافظة لتلك العهود بأيامها ولياليها وأحاديثها، فليت شعري أيذكر الأحياء من إخوان الصفا مثل

١- يشير إلى قول المتنبي في قصيدة شِعب بَوَّان:

يقول بشعب بَوَّان حصاني ... أعن هذا يُسار إلى الطعان

أبوكم آدمٌ سنَّ المعاصي ... وعلمكم مفارقة الجنان

ما أذكر؟».[1]

وآخر ما وقفت عليه في توديع الأحبة قول أخينا الشيخ الدكتور محمود العمراني في وداع أحد أصدقائه بعد زيارته له، وكان ذلك الصديق يعاني من مرض شديد مخوف، فأنشأ محمودٌ أبياتاً قال في مقدمتها: «في المطار كنت أتجرع غصص الوداع، وأنا أنظر إلى الروح التي نعمت بصحبتها ليومين، كانا أجمل يومين يمران على العاصمة الرياض، أظنها شعرت بذلك.

كنت أنظر إلى روحه عبر عينيه، وعندما هممت بوداعه دلف قبلي إلى صالة المسافرين، فمنعني موظف المطار من اللحاق به.

أردت أن أفهمه ماذا يعني لي فراقه، ولكن ملامحه قالت لي: لا تفعل، لا فائدة؛ فاكتفينا بعناق الأعين من بعيد.

حتى الوداع حُرمتُ منه فليتني ... أطفأت بعض الشوق في توديعه
وقطفت من عينيه آخرَ وردةٍ ... لتكون ملهمتي ليوم رجوعه
وضممتُه ورحلت في أعماقه ... وغرقت فيه بدفئه وصقيعه
يا ليتني لكنها أُمْنِيَّةٌ ... ماتت على كفي لدى تشييعه
وطفقت أنظر والدموعُ غِشاوةٌ ... وأراه ينظر من وراء دموعه
وأشار لي عند الرحيل بكفه ... بل قد أشار مودِّعاً بجميعه
فكأنه يمشي على قيثارةٍ ... مبحوحةٍ والعزفُ من توقيعه
ليت الذي قد حال دون وداعنا ... يُكوى بلوعة خافق وولوعه

١ـ انظر المقالة بتمامها في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٥٦٤/٣، وقد كتبها عام ١٩٤٩م، وانظرها ـكذلكـ في مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث ٤٣٣/٣ـ٤٤١ للكاتب.

لـو كـان يـدري مـا التفـرق لم يحـل لكنـــه مـــا ذاق نـــزع ضـــلوعه[1]

ومن جميل ما يودع به الضيف ضيفه مع ما مضى من الدعوات أن يذكر له بعض ما يتيسر من الشعر الموحي بالمودة حال الوداع، كأن يقول:

ودّعَ الصـــبرَ محـــبٌّ ودَّعـــك ذائـــع مـــن سّـــره مـــا اســـتودعك
يَقْـــرَعُ السِّـــنَّ علـــى أن لم يكـــنْ زاد في تلـــك الخطـــا إذ شـــيَّعك

أو يقول:

أيـــا عجـــبي ممـــن يمـــد يمينـــه إلى إلفـــه يـــوم الـــوداع فيســـرع
ضـــعفت عـــن التوديـــع لمـــا رأيتـــه فصـــافحته بالقلـــب والعـــين تـــدمع

وكذا يحسن بالضيف المودَّع أن يبادل مضيفه الشعور، ويجيبه بما تيسر له من الدعاء، والثناء، وأن يذكر من الشعر ما يناسب الحال، كأن يقول شيئاً مما ذكر آنفاً، وأن يقول مثل قول القائل:

أودِّعُكُـــم والله يعلـــم أنـــني شـغوفٌ بكـم لا أبتغـي البعـد عَـنْكُمُ

إلى غير ذلك مما يقوي عرى المودة، ويضاعف قدر الضيافة.

---

١ ـ انظر مزيد حديث عن الوداع في عيون الأخبار ٢/٣١ـ٣٤، والمحاسن والمساوئ للبيهقي ٣٥٨ـ٣٥٩، وبهجة المجالس لابن عبد البر ١/٢٤٦ـ٢٥٦.

الخمسون: الثناء الصادق المتبادل على حسن الضيافة

فمن جميل ما يكون في أثناء الضيافة، وبعدها الثناء الصادق الذي تجود به نفس المضيِّف من خلال شكره، ودعائه للضيف على كرمه إجابة الدعوة.

وما تجود به نفس الضيف من الثناء الصادق على المضيِّف لقاءَ حسن كرمه، وبشاشته، وجمال استقباله، وعلى أهل ذلك البلد الذي أكرموه خصوصاً إذا كانت الضيافة كبيرة؛ فإن ذلك سبيل لرفع همم الناس، والرقي بأحاديثهم، ونشر معاني الفضل، والنبل، والكرم؛ لئلا ينقطع سبيل الخير، والمعروف.

والناس تهش، وتطرب لأحاديث الكرام، وتنبعث إلى الاقتداء بهم، والسير على منوالهم.

ولهذا كان أهل الأدب -كما مر- يولعون ببيتي أبي الهندي:

نزلت على آل المهلب شاتياً غريباً عن الأوطان في بلدٍ مَحْلِ

فما زال بي إكرامهم وافتقادهم وبِرُّهُمُ حتى حسبتهم أهلي[1]

ويعجبون بأبيات الشعراء الذين ينوهون بالكرام، ويذكرون مآثرهم في ذلك.

وكرام الناس إذا أُكْرِموا لهجت ألسنتهم بذكر من أكرمهم، وأثنوا عليه بما يستحق.

ومن جميل ما يذكر في هذا الشأن أن تاج الدين بن حمويه السرخسيَّ وَرَدَ بلادَ المغرب، فسأله سلطان المغرب يعقوب ابن يوسف بن عبدالمؤمن قائلاً: أين هذه البلاد من بلادك الشامية؟

---

(١) مر الكلام عليه عند الحديث على تفقد الضيف.

فقال السرخسي: بلادكم حسنة أنيقة، وفيها عيبٌ واحدٌ، فقال السلطان: وما هو: قال: أنها تنسي الأوطان.

وممن قاموا على هذا الأدب الجميل العلامة المقَرّيُّ صاحب كتاب (نفح الطيب) فقد نظم في الثناء على دمشق أشعاراً، وتمثل فيها بأشعار، ومما أنشده قول شمس الدين الأسدي:

إذا ذُكِرت بقاعُ الأرض يوماً ... فقل: سُقياً لِجلّق[1] ثم رُعيا

وقل في وصفها لا في سواها ... بها ما شئت من دين ودنيا[2]

وقال النصيب بن رباح في سليمان بن عبدالملك:

فعاجوا وأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب[3]

يعني لما فيها من العطايا، والهبات.

وقال أبو تمام:

سلفوا يرون الذكر عَقْباً صالحاً ... ومضوا يعدون الثناء خلودا

ويعني بالذكر: حسن الأحدوثة[4].

وقال آخر يوصي قوماً بذكر الجميل:

فإذا بلغتم أرضكم فتحدثوا ... من الثناء مهالكٌ وخلود[5]

وقال أبو نُخيلة:

شكرتك إن الشكر حبلٌ من التقى ... وما كل من أقرضته نعمة يقضي

---

(١) جلق: من أسماء دمشق.

(٢) انظر رسائل الإصلاح ٢/٨٤-٨٥.

(٣) زهر الآداب ٢/٣٩٠.

(٤) شرح ديوان أبي تمام تأليف محمد محيي الدين عبدالحميد ص٢٦٠.

(٥) عيون الأخبار ٣/١٦١.

فأحييت من ذكري وما كان ميِّتاً ولكن بعض الذكر أنبَهُ من بعضي[١]

وقال أعرابي في الثناء على من أكرمه:

رهنت يدي بالعجز عن شُكْرِ بِرِّه وما فوق شُكري للشكورِ مزيدُ

ولو كان شيئاً يستطاع استطعته ولكن ما لا يستطاع شديد[٢]

وقالوا: الشكر ترجمان النية، ولسان الطويَّة، وشاهد الإخلاص، وعنوان الاختصاص.

وقالوا: الشكر نسيم النعم، وهو السبب إلى الزيادة، والطريق إلى السعادة[٣].

وقال بعضهم:

يجزيك أو يثني عليك وإن مَنْ أثنى عليك بما فعلت كمن جزى[٤]

وقال رجل لسعيد بن جبير: المجوسي يوليني خيراً؛ فأشكره، ويسلم عليَّ فأرد عليه.

فقال سعيد: سألت ابن عباس عن نحو هذا، فقال: لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه مثله[٥].

بخلاف من إذا رجعوا صاروا يتحدَّثون عن المثالب، والمعايب، ويتطلبون التقصير، ويبحثون عن الشعرة والشعير، والفتيل، والقطمير، حتى ولوكان مضيِّفهم قد أكرمهم غاية الإكرام، ولكنها النفوس الكزة الغليظة.

---

(١) عيون الأخبار ١٦٥/٣.

(٢) زهر الآداب ٢١٧/٢.

(٣) انظر زهر الآداب ٣٨٩/٢.

(٤) المحاسن والأضداد للجاحظ ص٤٧.

(٥) عيون الأخبار ١٦٥/٣.

ولا يعني ما مضى من الشكر والثناء المتبادل بين المضيِّف والضيف أن يتطلب الإنسان ـ وخصوصاً المضيِّف ـ ذلك، بل إن من أعظم ما يحمد عليه ألا يبتغي بضيافته جزاءً، ولا ينتظر شكوراً، فضلاً عن أن يُدِلَّ بمعروفه، وضيافته.

قال حكيم: «من انتظر بمعروفه شُكرك فقد استدعى عاجل المكافأة»[١].

وقال آخر: «إذا كان الكفر يقطع مادة الإنعام فكذلك الاستطالة بالصنيعة تمحق الأجر»[٢].

وقال علي بن عبيدة: «من المكارم الظاهرة، وسنن النفس الشريفة ـ ترك طلب الشكر على الإحسان، ورفع الهمة عن طلب المكافأة، واستكثار القليل من الشكر، واستقلال الكثير مما يَبْذُل من نفسه»[٣].

ولئن كان طلب المدح، والثناء من الكريم المضياف لكونه كذلك مذموماً ـ فإن الذم أعظم، والمصيبة أطمُّ إذا كان من يطلب ذلك عاطلاً عن المكارم، زاهداً فيها.

قال أحدهم يذم من كان على تلك الشاكلة:

عثمان يعلم أن الحمدَ ذو ثمن ... لكنه يشتهي مدحاً بجمَّان

والناسُ أكْيَسُ من أن يمدحوا رجلا ... حتى يروا عنده آثار إحسان[٤]

---

(١) المحاسن والأضداد ص٤٧.

(٢) المرجع السابق ص٤٧.

(٣) المرجع السابق ص٤٧.

(٤) المرجع السابق ص٥٠.

الحادية والخمسون: متابعة الضيف بعد الانصراف

وذلك بالاتصال عليه عبر الهاتف الجوال، والاطمئنان على سلامته، وسلامة وصوله.

وكان الأوائل يستغربون بيت القائل:

ونكرم ضيفنا ما دام فينا ... ونتبعه الكرامة حيث مالا

ويقولون: كيف يُكرم بعد أن يغادر؟.

ولو أدركوا زماننا، وما فيه من وسائل التواصل لما حصلت لهم تلك الغرابة.

والحاصل أن متابعة الضيف، والسؤال عنه، وقطع الطريق عليه بين الفينة والأخرى كل ذلك من إكرام الضيف على ألا يصل إلى حد الإملال، والإثقال.

الثانية والخمسون: غرائب الناس في الضيافة

للناس في شأن الضيافة غرائب، ولهم فيها عجائب، ومذاهب، فمنهم من لا يعرف من الضيافة إلا أن يكون ضيفاً فحسب؛ فلا يخطر بباله أن يستضيف أحداً من الناس.

ومنهم من هو عكس ذلك؛ فلا تراه حالاًّ في ضيافة أحد من الناس، وإنما تراه مضيِّفاً بكل حال.

وفيهم من يصلح إذا كان ضيفاً؛ حيث تراه ينزل على حكم المضيِّف، ويسير على وَفْقِ مراده؛ فيعرف حدوده، وما ينبغي له في ذلك.

ولكنه لا يصلح أن يكون مضيِّفاً؛ فإذا حللت ضيفاً عنده لم تجد الراحة، ولا الإكرام؛ وقد لا تسلم من وخزاته، وجراحاته.

ومنهم من لا يستجيب لدعوتك إذا استضفته؛ فإذا انقضى مجلس ضيافتك أمطرك بوابل من التقريع على أن لم تكن أخبرته أن فلاناً وفلاناً قد حضرا، وأن مجلسك كان من شأنه كذا وكذا من السرور، والمتعة.

ومنهم من لا يخطر بباله أن يستضيفك، بل لو عرضت عليه ذلك تطييباً لخاطره فقد يعتذر منك بأوهى المعاذير.

فإذا سمع أن فلاناً استضافك، أو أنك حللت على صاحب آخر ثارت ثوائره، وصار يعاتبك على ذلك، وربما هجرك.

ومنهم من لا يعرف موقعه من الضيافة سواء كان هو الضيفَ الكبيرَ، أو كان هو من ضمن عامة المدعوين؛ إذ يظن دائماً أن الجوَّ جوُّه، واليوم يومه.

ومنهم من تدعوه مراراً فلا يأتي، ولا يعتذر.

وإذا نسيته مرة فلم تَدْعُه استشاظ عليك غضباً، ولم يقبل منك عدلاً ولا صرفاً.

ومنهم الفذ الجامع العاذر، الألوف الودود؛ إن دعوته لضيافتك لبى الدعوة؛ فحضر، وأضفى على الضيافة ما أضفى من بشره، ويسره، وسماحته.

وإن لم يستطع المجيء اعتذر بلطف، وشكر.

وإن استضافك أسعدك، وأعزَّك، وشكر لك.

فمن لي بهذا ليت أني لقيته فقاسمته ما لي من الحسنات

الخاتمة

وبعد هذا التطواف في شأن الضيافة، ونوازلها يتبين أن شأن الضيافة عظيم، وأنها تستحق الوقوف عندها؛ دراسةً لمستجداتها، وتحليلاً لتفاصيلها، وربطاً لحاضرها بماضيها، حتى تؤتي ثمارها، وآثارها من نحو تقوية الروابط، وإزالة أسباب التقاطع، والإسهام في رقي الأفراد والمجتمعات؛ فتكون سبباً في تحصيل السعادة في هذه الدنيا، ورِفْعةِ الدرجات في الحياة الأخرى، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
ـ المقدمة	٣
مفهوم النوازل	٣
منهج الكتاب	٥
ـ مدخل: منزلة الضيافةِ، وإكرام الضيف	٦
ـ الضيافة شعبة إيمانية، ومكرمة أخلاقية	٦
ـ امتلاء لغة العرب بمفردات الضيف	٦
ـ ارتباط الضيافة بركنين من أركان الإيمان	٦
ـ كرم الخليل ـعليه السلامـ	٧
ـ تكنية المطعام بأبي الأضياف ـنماذج شعرية لذلكـ	٧
ـ إجلال الناس للأجواد، وبعض أخبارهم	٩
ـ كرم أهل المدر وأهل الوبر	١١
ـ خبر كريم معاصر	١٣
ـ مسائل نوازل الضيافة	١٤
الأولى: مفهوم إكرام الضيف	١٤
ـ خطأ قصر الضيافة على الإطعام فحسب	١٤
ـ الحكمة من التعبير النبوي بلفظ (الإكرام)	١٤

- شمول معنى إكرام الضيف	١٥
الثانية: متابعة الضيف، والاهتداء إلى مكان الضيافة	١٨
- المقصود بالمتابعة	١٨
- سُكنى الكرام العوالي	١٨
- القادم إلى مكان الضيافة -العاشي-	١٨
- أبيات في نار الضيافة، واهتداء الأضياف إليها	١٩
- سبل معرفة مكان الضيافة في العصر الحاضر، ومتابعة الأضياف	٢٢
- تنبيهات في ذوق متابعة الضيف	٢٢
الثالثة: انتظار الضيف القادم، والاستعداد لاستقباله	٢٤
الرابعة: الفرح بالضيف، وإظهار ذلك	٢٦
- أقوال، وأشعار، وأخبار في ذلك	٢٦
الخامسة: المزاح مع الضيف	٣٣
- أبيات في ذلك مع شرحها لعتيبة المازني، والمتنخل الهذلي، وجران العود	٣٣
السادسة: تهيئة مكان إقامة الضيف	٣٥
- عناية العرب، ورسومهم، وأسماؤهم، وفي ذلك: الثوي، التكرمة	٣٥
- الأمور المستجدة في شأن إقامة الضيف	٣٥
- عناية المضيف بتهيئة مكان الضيافة	٣٦
السابعة: العناية بمجلس الضيافة	٣٧
- العناية بسعته	٣٧

ـ العناية بطيب رائحته	٣٧
ـ العناية بملاءمة جوِّه	٣٧
ـ عناية العرب بشأن نار الضيافة ، وجودتها	٣٧
ـ تفضيل بيتين للأعشى في وصف نار الضيافة	٣٨
ـ تفضيل بيت للحطيئة في وصف نار الضيافة على بيت الأعشى	٣٩
الثامنة: التماس العذر للضيف إذا تأخر	٤١
ـ حادثة في ذلك	٤١
ـ حادثة أخرى	٤٤
التاسعة: توزيع أعمال الضيافة	٤٥
ـ تأكد ذلك في حال المناسبات الكبيرة	٤٥
ـ حسن الاختيار لمن يسند إليهم	٤٥
ـ التوجيه بحسن التعامل مع الأضياف	٤٥
ـ وقفة مع بيت للحطيئة في ذلك الشأن	٤٥
ـ أبيات لابن هرمة في ذلك	٤٦
ـ التوافق وفهم الإشارة بين المضيِّف ومن يقومون بشأن الضيافة	٤٧
العاشرة: إكرام القائمين بشأن الضيافة	٤٨
ـ تنوع الإكرام لهم	٤٨
ـ الحذر من إهانتهم	٤٨
الحادية عشرة: التماس العذر لصاحب الضيافة إذا بدرت منه جفوة	٤٩

- بيت لزينب بنت الطثرية في ذلك المعنى ٤٩
- شرح التبريزي للبيت ٤٩
- شرح ابن قتيبة للبيت ٤٩
الثانية عشرة: حسن التفقد للأضياف، والتتبع لرغائبهم ٥١
- من ألمعية المضيِّف ٥١
- حديث في تعاهد النبي ﷺ لأضيافه ٥١
- بيتان لعبيدالله بن طاهر ٥٢
- بيتان لأبي الهندي في ذلك، وشرحهما، واختلاف روايتهما ٥٢
- تفقد مركبة الضيف ٥٣
- تفقد ما يحتاجه من ملبسه ٥٣
- حديث نبوي، وبيتا شعر للعلوي، والقاسم بن أمية بن أبي الصلت في إراحة الضيف، وإعزازه ٥٤
الثالثة عشرة: المراعاة للأضياف في الإقبال عليهم ٥٥
- توزيع المضيف نظراته عليهم ٥٥
- إعطاء الضيف الكبير حقه دون إهمال البقية ٥٥
- حادثة في ذلك ٥٦
الرابعة عشرة: حفظ حق الأهل والأضياف حال الضيافة ٥٨
- بعض مظاهر التقصير في ذلك ٥٨
- بعض مظاهر حفظ حقوقهم حال الضيافة ٥٩

ـ التماس العذر للمضيِّف إذا قصر في ذلك	٥٩
الخامسة عشرة: الترحيب بالضيوف	٦٠
ـ كثرة الترحيب بالضيف	٦٠
ـ اختيار العبارات الجميلة المناسبة	٦٠
ـ معنى أهلاً، وسهلاً، ومرحباً	٦٠
ـ حديث في الترحيب	٦٠
ـ أبيات لعمرو بن الأهتم، وهدبة بن الخشرم في الترحيب	٦١
ـ تحية كل قوم بحسب عرفهم	٦٢
ـ الترغيب في كثرة الترحيب دون إملال، أو حرج	٦٢
ـ ذم قلة الترحيب، وحادثة في ذلك	٦٢
ـ إبداء السعادة بالأضياف بين الفينة والأخرى	٦٣
السادسة عشرة: استمطار الضيف، واستطعامه الحديث	٦٤
السابعة عشرة: تعريف الضيوف ببعض	٦٥
ـ فائدة في ذلك	٦٥
ـ أربعة أحاديث في ذلك	٦٥
ـ استعلام ابن باز عن أسماء أضيافه	٦٦
ـ متى لا يحسن تعريف الضيوف ببعض	٦٦
ـ بيتان في ترك التعرف على الضيف، وشرح التبريزي لهما	٦٧
الثامنة عشرة: حبس الضيفان بلا طعام	٦٨

- بعض ما يترتب على ذلك ٦٨
- وقفة مع قوله -تعالى-: ﴿فراغ إلى أهله﴾ ٦٩
- حديث في هذا الشأن ٦٩
- الإسراع بالطعام أظهر في الكرم ٦٩
- من عادة العرب فيما يقدم للضيف قبل الوجبة الرئيسة ٧٠
- أبيات في هجاء من يؤخر الطعام للضيف ٧٠
- حمد من يعجل الطعام للضيف ٧١
- أبيات لمسكين الدارمي في ذلك ٧١
التاسعة عشرة: مراعاة المضيِّف لذوق السؤال ٧٢
- إشارات في ذلك ٧٢
- حديث في حسن السؤال ٧٢
- شذرات من التاريخ لأناس لم يراعوا ذوق السؤال ٧٣
العشرون: المبالغة في عرض الطعام على الضيف ٧٤
- صور من ذلك ٧٤
الحادية والعشرون: مراعاة عرف الضيف ٧٥
الثانية والعشرون: تصوير الضيف ٧٦
الثالثة والعشرون: كثرة نظر المضيِّف إلى الساعة ٧٧
الرابعة والعشرون: استخدام الضيف ٧٩
- كلمة لابن حبان في ذلك ٧٩

ـ بيان أن خدمة الضيف شرف لا يأباه أحد	٨١
ـ كلمة لعبدالملك بن مروان في ذلك	٨٢
ـ كلمة لمجاهد	٨٢
ـ حادثة معاصرة في ذلك	٨٢
ـ متى يسوغ استخدام الضيف؟	٨٢
الخامسة والعشرون: موقف المضيف من جفاء بعض الضيوف وحماقاتهم	٨٣
ـ تفاوت الناس ذوقاً وأدباً..	٨٣
ـ صور من حماقة بعض الضيوف	٨٣
ـ سعة صدر المضيف، وصبره على ذلك	٨٣
ـ كلمات، وأشعار في الثناء على من يصبر على جفاء الضيوف	٨٤
ـ قصة لابن باز في ذلك الشأن	٨٤
ـ من أعظم الصبر على جفاء الضيوف وحماقاتهم....	٨٥
ـ نموذج معاصر للصبر على جفاء الضيوف	٨٥
السادسة والعشرون: الإلحاح الشديد في الدعوة إلى الضيافة	٨٨
ـ صورة هذه المسألة	٨٨
ـ آثار الإلحاح الشديد في تفرق القلوب	٨٨
ـ حادثة في ذلك	٨٩
السابعة والعشرون: التعامل مع من دعي إلى الضيافة ولم يحضر	٩٠
ـ صورة المسألة	٩٠

- الذي تقتضيه الحكمة والعقل في ذلك ٩٠
- كلمات في حسن التصرف مع مثل تلك الأحوال ٩١
- قصة معاصرة في سوء التصرف مع من دعي، ولم يتمكن من الحضور ٩١
- قصة أخرى معاصرة في حسن التصرف مع من دعي ولم يحضر ٩٢

الثامنة العشرون: دعوة الصاحب الهاجر ٩٦

- صورة المسألة ٩٦
- الذي يقتضيه أدب الإسلام، ومروءة الكرام في ذلك ٩٦
- قصة رواها ابن قتيبة في ذلك ٩٧
- حادثة معاصرة عنوانها (خصومة شريفة بين وجيهين) ٩٧

التاسعة والعشرون: تأخر الضيف عن المجيء بلا داع ١٠٠

الثلاثون: التبكير الزائد عن وقت الضيافة ١٠١

الحادية والثلاثون: سؤالُ المدعوِّ الضيفَ عمن عنده ١٠٢

- صورة المسألة ١٠٢
- اللائق بمن دعي إلى ضيافة ١٠٢
- خبر علي بن الحسين لما دعاه المساكين ١٠٢

الثانية والثلاثون: الاعتذار عن المجيء، إذا لم يتسن ١٠٥

الثالثة والثلاثون: اصطحاب الضيف معه من لم يُدْعَ إلى الضيافة ١٠٦

- التفصيل في هذه المسألة ١٠٦

ـ ما يترتب على اصطحاب الضيف معه من لم يدع	١٠٦
ـ حاجة من دعي إلى التفطن لهذه المسألة	١٠٧
ـ ما ينبغي لمن أراد اصطحاب من لم يُدْعَ	١٠٧
ـ ما جاء في هذه المسألة في كتاب (التطفيل) للبغدادي	١٠٧
ـ متى يسوغ اصطحاب من لم يدع إلى الضيافة ؟	١٠٧
الرابعة والثلاثون: حضور من لم يُدْعَ أصلاً	١٠٨
ـ التفصيل في هذه المسألة ، متى يسوغ؟ ومتى لا يسوغ؟	١٠٨
ـ ما جاء في كتاب التطفيل في ذلك	١٠٨
ـ قصة لعبدالله بن جعفر في ذلك	١٠٩
الخامسة والثلاثون: احراج المضيف بكثرة الأسئلة، وفضولها	١١٠
السادسة والثلاثون: أدب مجلس الضيافة	١١١
ـ شمول ذلك الأدب للمضيِّف والضيف	١١١
ـ مجالس العرب ، وما كانت عليه	١١١
ـ وصف زهير لمجالس آل سنان	١١١
ـ وصفُ بعض المجالس لطرفة ، وعمرو بن الإطنابة	١١٢
السابعة والثلاثون: التفسح في مجلس الضيافة	١١٤
ـ وقفات مع قوله ـتعالى ـ: ﴿ إذا قيل لكم تفسحوا... ﴾	١١٤
ـ كلمات لعمر بن الخطاب ، والأصمعي في التفسح	١١٦
ـ خبر عن ابن عباس في ذلك	١١٧

ـ حادثة معاصرة في ذلك	١١٧
الثامنة الثلاثون: الرزانة في مجلس الضيافة	١١٨
ـ مفهوم الرزانة	١١٨
ـ من أدب مجلس نبينا محمد ﷺ	١١٨
ـ صفة مجالس الأكابر ـأشعار وأخبار في ذلكـ	١١٩
ـ موقف شهده الأحنف في مجلس قيس بن عاصم	١٢٣
ـ الرزانة لا تعني التكلف	١٢٤
التاسعة والثلاثون: المزاح في مجلس الضيافة	١٢٥
ـ المزاح المحمود في مجلس الضيافة	١٢٥
ـ أخبار وأشعار في مزاح السلف	١٢٥
ـ إدراك الأكابر لوزن المزاح	١٢٨
ـ كلام للحصري القيرواني فيما ينبغي أن يكون عليه المزاح من المراعاة	١٢٨
ـ المزاح ليس على وتيرة واحدة	١٢٨
ـ مراعاة الاعتدال في المزاح في مجلس الضيافة أولى وأحرى	١٢٩
الأربعون: الجلوس في المكان اللائق في مجلس الضيافة	١٣١
١ ـ الحذر من التفريق بين اثنين متجالسين دون إذنهما	١٣١
٢ ـ الحذر من إقامة الرجل من مجلسه والجلوس مكانه	١٣٢
٣ ـ الحذر من الجلوس مكان الرجل إذا قام لحاجة	١٣٢
٤ ـ معرفة الإنسان موقعه في كل مجلس ومناسبة	١٣٣

٥ـ تجنب الجلوس في الأماكن غير المناسبة ١٣٥
الحادية والأربعون: المراعاة لأدب السلام في مجالس الضيافة ١٣٨
١ـ الاستئذان بالسلام قبل الدخول ١٣٨
٢ـ السلام قبل الدخول وبعده ١٤٠
٣ـ مراعاة الذوق العام في مصافحة الآخرين ١٤٠
ـ صور من قلة المبالاة بذلك الأدب ١٤١
الثانية والأربعون: المراعاة لنظام مجلس الضيافة ١٤٣
ـ صور من حسن المراعاة في ذلك ١٤٣
ـ خبر عن الشاعر محمد العوني في اشتراطه إذا أريد منه الحديث ١٤٤
ـ مراعاة نظام المجلس لا تعني الإفراط في الصرامة ١٤٤
ـ البعد عن كل ما ينافي الذوق العام ١٤٥
الثالثة والأربعون: المراعاة لأدب الكلام في مجالس الضيافة ١٤٧
ـ الحاجة إلى ذلك ١٤٧
ـ جماع ذلك الأدب ١٤٧
ـ أقوال، وأشعار في اللسان والمجالسة ١٤٧
ـ كلمة للحصري القيرواني في شرط المسامِر والمنادِر ١٤٨
ـ من أعظم ما يعين على إثراء مجالس الضيافة، والسلامة فيها من الإثقال: ١٤٩
١ـ الحذر من الثرثرة ١٤٩

٢ـ الحذر من الاستئثار بالحديث : ١٥٢
ـ قصة لأحد كبار السن مع مستأثر بالحديث ١٥٢
ـ كلام للحصري القيرواني في أدب الحديث في المجلس ١٥٣
٣ـ تجنب تكرار الحديث بلا داع : ١٥٤
ـ أخبار وأشعار في ذلك ١٥٥
٤ـ الحذر من التقدم بحضرة الأكابر : ١٥٦
ـ كلمة للشيخ السعدي في ذلك ١٥٦
ـ حادثة لبعض من لا يراعي ذلك الأدب ١٥٧
٥ـ التحلي بحسن الصمت : ١٥٨
ـ أقوال وأشعار في ذلك ١٥٨
ـ الصمت يتفاوت بتفاوت ذوق أصحابه ١٦١
٦ـ حسن الإنصات لمن يتكلم : ١٦٣
ـ أقوال وأخبار في حسن الإنصات ، والثناء على أهله ١٦٣
ـ حسن الإنصات يرفع قدر الإنسان : خبر سعيد بن مسلم ١٦٥
ـ خبر مع المأمون ، وإعجاب السفاح بأبي بكر الهذلي ١٦٥
ـ أمور تنافي حسن الإنصات ١٦٦
٧ـ الحذر من الحديث بما لا يناسب الحال والمقام : ١٦٩
ـ كلمات لابن المقفع ، والحصري القيرواني في ذلك ١٦٩
٨ـ الحذر من الحديث عند من لا يرغب ١٧١

٩ـ مجانبة التقعر في الكلام: ١٧٢
ـ أقوال وأخبار في ذلك ١٧٣
الرابعة والأربعون: العناية بطعام الضيافة ١٧٨
ـ المقصود بهذه المسألة ١٧٨
ـ أحاديث في إطعام الطعام ١٧٨
١ـ العناية بجودة الطعام المقدَّم ١٧٩
ـ أخبار في ذلك عن الحسين بن علي، وابن سيرين، وابن باز ١٨٠
٢ـ العناية بمجلس الطعام ١٨١
٣ـ العناية بمقدار الطعام: حادثة في ذلك ١٨١
٤ـ الجلوس في المكان اللائق ١٨٢
٥ـ حسن الأدب حال تناول طعام الضيافة ١٨٢
٦ـ حسن مراعاة المضيف لأدب مجلس طعام الضيافة ١٨٢
ـ أن يكثر من الترحيب ١٨٢
ـ ألا يكثر في الإلحاح على الضيوف بأكل معين ١٨٣
ـ أن يلاحظ ما نقص على الأضياف ١٨٣
ـ ألا يمدح طعامه إلا إذا استدعى المقام ذلك ١٨٣
ـ ألا يستكثر ما يقدمه لأضيافه ١٨٤
ـ أن يجعل من يقوم على خدمة الأضياف إذا كان المجلس كبيراً والضيوف كثراً ١٨٤

- مؤانسة ضيوفه حال الطعام: قصص وأخبار في ذلك عن عبدالأعلى بن عامر، وابن عباس، وعبدالله بن جعفر، وابن باز ١٨٤
- ألا يعجل الضيوف: كلمات للعرب، واصطلاحات في ذلك - أدب ابن باز في ذلك ١٨٧
٧- حسن مراعاة الضيف لأدب الطعام في الضيافة ١٨٨
- تجنب الملاهسة ١٨٨
- ألا يأكل أكل الشَّره: وصية شَرِهٍ لابنه حال الطعام ١٨٨
- متى يعظم أمر الشَّرَه؟ ١٨٨
- شعر لحاتم الطائي، وكلمة للأحنف في التكرم عن الشره ١٨٨
- بيت الشنفري في التكرم: (وإن مُدَّت الأيدي إلى الزاد...) وعناية الشراح به، ونماذج من شروحهم له ١٨٩
٨- الحذر من قلة العناية بطعام الضيافة: كلمات، وآثار، وأشعار في ذلك ١٩١
٩- الحذر من ذم طعام الضيافة، أو احتقاره ١٩٤
١٠- ألا يطيل الضيف المكث على الطعام بعد الفراغ منه ١٩٤
١١- مراعاة أدب الضيافة المفتوحة ١٩٤
١٢- الحذر من التصرفات المؤذية حال طعام الضيافة: أمثلة وأخبار في ذلك ١٩٥
الخامسة والأربعون: ترتيب جدول الضيافة ١٩٧
السادسة والأربعون: أصحاب الضيف الكبير ١٩٩
- ما ينبغي لهم مراعاته ١٩٩
- موقفان متباينان لأصحاب الضيف الكبير ٢٠٠

السابعة والأربعون: هدايا الضيافة	٢٠٤
الثامنة الأربعون: طول المكث عند المضيف	٢٠٦
ـ الأصل في مدة الضيافة	٢٠٦
ـ حديث: «فليكرم ضيفه جائزته...» وشرحه، وأقوال بعض العلماء فيه	٢٠٦
ـ أخبار عن بعض ثقلاء الضيوف	٢٠٨
ـ أحوال كرام الناس مع ثقلاء الضيوف ـ قصة في ذلك	٢٠٩
ـ بعض أخبار ابن باز مع الضيوف الذين يطيلون المكث عنده	٢١٢
التاسعة والأربعون: الوداع في الضيافة	٢١٤
ـ الوداع إحدى الحلقات الأخيرة من الضيافة	٢١٤
ـ حادثة في ذلك بين أبي عبيد والإمام أحمد بن حنبل	٢١٤
ـ جاءت السنة بتوديع المسافر	٢١٥
ـ الوداع عند أهل العلم والأدب: كلمات، وأشعار في ذلك	٢١٧
الخمسون: الثناء الصادق المتبادل على حسن الضيافة	٢٢٢
الحادية والخمسون: متابعة الضيف بعد الانصراف	٢٢٦
الثانية والخمسون: غرائب الناس في الضيافة	٢٢٧
ـ الخاتمة	٢٢٩
ـ الفهرس	٢٣١